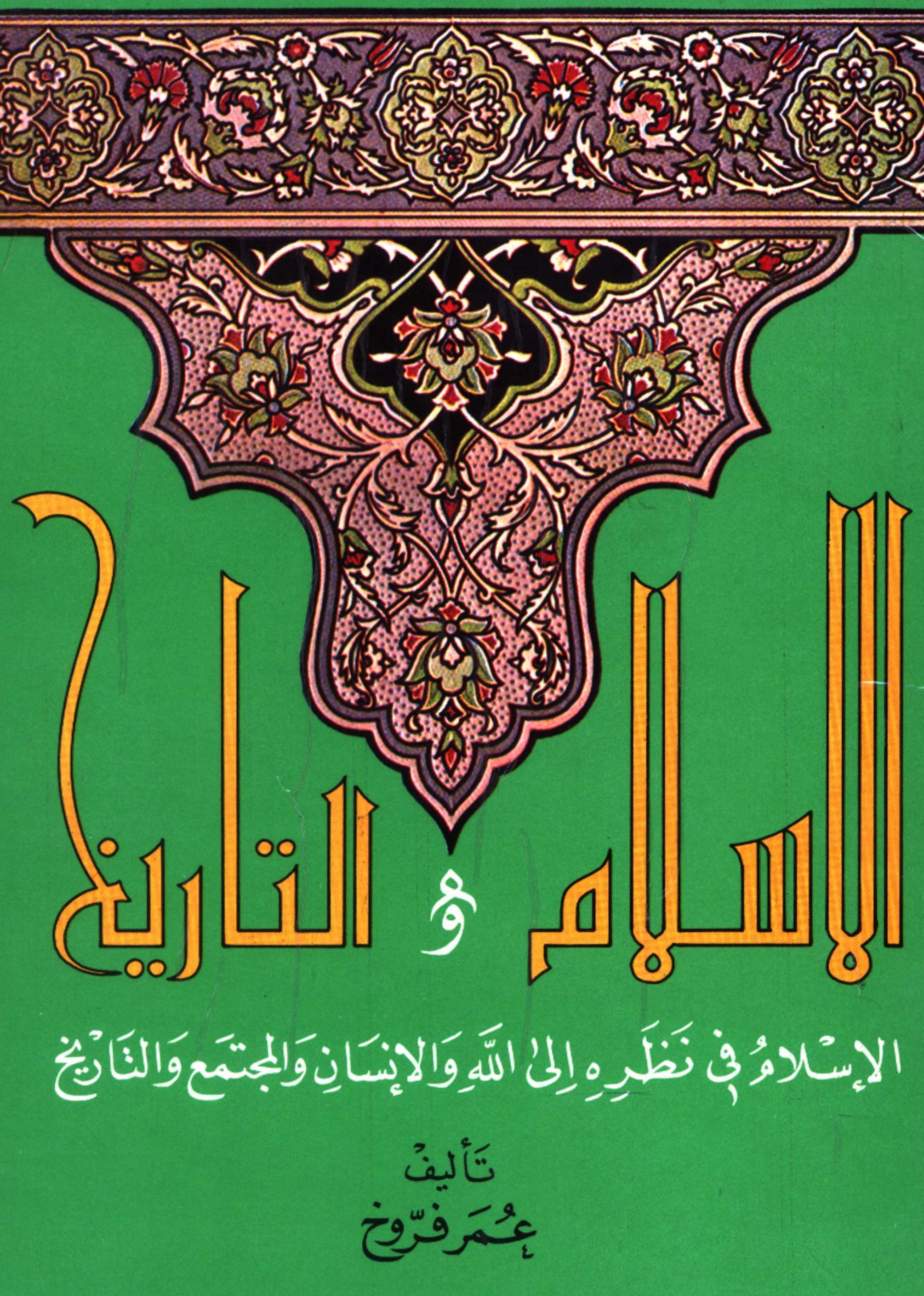


الإسلام و التاريخ

الإسلام في نظره إلى الله والإنسان والمجتمع والتاريخ

تأليف
عمر فرّوخ

دار الكتاب العربي

الإسلام والتاريخ

الإسلام في نظرة إلى الله والإنسان والمجتمع والتاريخ

تأليف
عمر فرّوخ

دكتور في الفلسفة
عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الإسلامية في بومباي
عضو المجمع العلمي العراقي

الناشر
دار الكتاب العربي



دار الكتاب العربي
بيروت - نيوملكارت سنتر. الرملة البيضاء. ص. ب. ٥٧٦٩ - ١١ العنوان البرقي: الكتاب - بيروت.

الكلمة الأولى

الحَضارة وَالتَاريخ

إن للعُمرانِ البشريّ ـ للبشر في وجودِهِمُ الطبيعيّ والاجتماعيّ ـ وجهَيْنِ أساسييّن: حضارةً ومدنيّةً. فالحضارةُ هي القُدرة على صُنع وسائلِ الحياة، كما أنشأ المِصريّون القدماءُ والبابليّون القدماء والهنود القدماء وأمثالُهم فُنونَ الزّراعة والبِناء والعِلم، وكما تُنْشِىءُ الشعوبُ الأوروبيّةُ والأميركيّة اليومَ أسبابَ الرفاهية ووسائلَ النّقل السريعةِ ووجوهَ الفَن العِلميّ (التكنولوجيا).
أمّا المدنيّةُ فَهِيَ أستخدامُ أسبابِ الحياة التي جاءتْ بها الحضارة. فالشعوبُ العربية اليومَ تستخدمُ الطائرةَ والسيّارةَ والمِذياعَ (الراديو) والمِرْياءَ (التلفزيون) والحَسَّابَ (الكومبيوتر)، ولكنْ لا تستطيعُ صُنْعَ هذه الأدَواتِ ولا إصلاحَها إذا دَخَلَ عليها عُطْلٌ كبيرٌ أو صغيرٌ. وربّما نسجتْ هذه الشعوبُ أنواعاً من الثّياب، ولكنْ بآلاتِ غريبةٍ وبخيوطٍ من صُنع الآخَرين.

فالتاريخُ الانسانيّ، إذَنْ، هو تاريخُ التطوُّر الحَضاري عندَ الإنسان. من أجلِ ذلك نستطيعُ أنْ نقولَ: إنّ الشعوبَ المُتخلّفةَ والشعوبَ الصغيرةَ لا تاريخَ لها. إنّ لها أحوالاً تتكرّرُ، وإن لها قَصَصاً يُروى، ولكنّ تاريخَها هو

جُزْءٌ جانِبِيٌّ من تاريخِ الأممِ الكبيرةِ حولَها.

ثم إنّ الشعوبَ الصغيرةَ غيرَ المُتخلّفةِ تستطيعُ أن تُشارِكَ الأممَ الكبيرةَ في خِدمة الحضارة ـ كما نَقَلَ الكنعانيّون (ويسمّيهم قليلو العِلم بالتاريخ: الفينيقيين) الأبجديةَ إلى اليونانيّين ـ. ومن اليونان انتشرت هذه الأبجديّةُ (مَعَ اختلافٍ في أشكالها وعددِ حروفِها) في سائرِ العالم المتحضّر. غيرَ أن هذه الشعوبَ الصغيرة ـ متخلّفةً كانتْ أو غيرَ متخلّفةٍ ـ لا تستطيع أن تُشارِكَ الأممَ الكبيرةَ القويّةَ في السَّيْطرة السياسية، ذلك لأنّ السّيطرةَ السياسيّة تقوم على العصبيّة. وأوّلُ مُقوِّماتِ العصبية «عددُ الناس»، فالقوّةُ العدديّةُ للشُّعوب عُنصُرٌ مُهِمّ من عناصرِ السيطرة، إلاّ إذا فَقَدَتِ الشعوبُ الكبيرة عُنصُرَيِ المال والسِّلاح وعُنصُرَ الجامعِ الرّوحيّ (أو الدينَ، كما يقولُ ابْنُ خَلْدونٍ). وعُقدةُ الأمر، عندَ ابنِ خَلْدونٍ أنّ السيطرةَ على الارض وعلى الناس تحتاج إلى حاميةٍ، ونِسبةُ الحاميةِ في كلِّ أمّةٍ تَرْجِعُ إلى عدد أفراد تلك الأمّة.

وسيَلِي هذه «الكلمةَ الأولى» مُقدّمةٌ نُوجِزُ فيها تاريخَ الإسلام من الجانب الآتي وحدَه: إن القارىءَ سَيَرى أنّ الفُتوحَ الإسلاميةَ انطَلَقَتْ من مبدأينِ: ردِّ العُدوان الفارسيِّ والعُدوانِ الرُّومي (البيزنطيّ) عن بلادِ العرب، وعن شِبهِ جزيرةِ العرب نفسِها. إنّ عربَ الجاهليةِ ـ مثلاً ـ ما كانوا يستطيعون أن يَرْعَوْا أنعامهم على الضّفّة الغربية من نهر الفُرات (قبلَ أنْ يلتقِيَ الفُراتُ بدِجْلَةَ لِيُشَكّلا «شطّ» العرب) إلاّ بإذنٍ من مُلوكِ فارس. أمّا المبدأ الثاني فَهُوَ الدعوةُ التي كان أهلُ البلاد المغلوبة يُوجّهونها إلى الخلفاء والقادةِ

المُسلمين للمُساعدة على التخَلُّص مِنَ آستبدادِ الفُرس والروم. إنّ صُفرونيوسَ بَطْرِيَرْكَ القُدس قد طَلَبَ من خليفةِ المُسلمِينَ عُمَرَ بنِ الخطّاب أنّ يَتَسلَّمَ منه القُدسَ وسائرَ فِلَسْطِينَ أيضاً، حتّى يتخَلَّصَ سُكّانُ البِلاد النَّصارى من حُكْمِ بيزَنْطَةَ النَّصرانية الظالمةِ.

وكذلك دِمَشْقُ عاصمةُ سُوريةَ الداخليّةِ آستقبَلَتِ العربَ المُسلمين بذِراعين مَبْسَوطَيْنِ. ولا يزالُ المؤرّخون إلى اليومِ يتجادلونَ فيما إذا كان فتحُ دِمَشْقَ قد تَمّ صُلحاً أو بعدَ مَعرَكة. وإذا قال نفرٌ مِنَ المؤرّخين إنّ دِمَشْقَ قد فُتِحَتْ حرباً بعدَ مَعْرَكةٍ، فإنّ هذه المعركةَ قد كانتْ بين العَرَبِ المُسلمينَ والرومِ البيزنطيّين؛ ولم تكُنْ بينَ العربِ المُسلمين والآراميّين النَّصارى أهلِ دِمَشْقَ والشام. ومِنْ أوضَحِ الأمثلةِ على ذلك أنّ خالدَ بنَ الوليدِ لـمّا آضْطُرَّ إلى سَحْبِ أقسامِ جَيْشهِ من بُلدانِ الشام (سورية) المفتوحةِ لِيَلْتَقِيَ الجيشَ الروميَّ على نهر اليرموك في مَعركةٍ فاصلةٍ، أنشأ أهلُ دِمَشْقَ حاميةً من أنْفُسِهم ليمنعوا الروم من الرُّجوع إلى دِمَشْقَ إذا فكّر الرومُ في الرُّجوع إلى دِمَشْقَ.

أمّا أمر الـمُقَوْقِسِ عظيمِ القُبط في مِصْرَ وأمرُ أولبان في شأن الاندلس فمشهورانِ. وكذلك أمرُ الفَتْحِ في التُركِستانِ وراءَ نهر جَيْحونَ. وسأَرْجِعُ إلى هذه الفُتوحِ الثلاثةِ في المُقدّمة التي تلي هذه الكلمةَ الأولى، لأنّ هذه الفتوحَ تحتاجُ إلى شيءٍ من الشرح.

* * *

والشُّعوبُ التي دَخَلَتْ في الإسلام ـ في الشام والعِراق وفارسَ وفي مِصْرَ

والمغربِ والأندلُس ـ آختارَتْ ذلك من عندِ أنْفُسِها، ولم يكنْ للفتحِ العسكريّ أثرٌ كبيرٌ في آنتشارِ الإسلامِ في البلادِ المفتوحة. وممّا يدُلّ على ذلك دَلالةٌ قاطعةٌ أن الجُيوشَ الإسلاميةَ لم تَصِلْ إلى الصين وجزائرِ الفِلِيبّين وجزائرِ أندونيسِيَةَ، ومَعَ ذلك فقدِ آنتشرَ الإسلامُ في تلك البلادِ آنتشاراً واسعاً من طريق التُّجّارِ ومن طريق آحتكاكِ الحضاراتِ الوَثَنيّة بالحضارةِ الإسلامية.

* * *

ثـمّ تأتي بعدَ المقدّمة اربعةُ فصول:

* نَظَرُ الإسلامِ إلى الله: وموضوعُ ذلك النَّظَرِ «التوحيدُ الخالصُ» مـن حيثُ أنّ الله تعالى واحدٌ بالعددِ ثم هو أحَدٌ (وحيد) في صفاتهِ، «لَيْسَ كَمِثْلهِ شَيْءٌ»[1] ـ لا هُوَ يَشْرَكُ أحداً من خَلْقهِ في صِفاتهم، ولا يَشْرَكُه أحدٌ من خَلْقهِ في أسمائه الحُسنى.

* نظرُ الإسلام إلى الإنسان وأنّ هذا الإنسان كائنٌ مُكَرَّمٌ يأتي إلى هذا العالمِ على الفِطْرة (الطّهارة والآستعدادِ لِتَقبُّلِ الأحوالِ المُختلفةِ بالتعليم) ثم يكون مَكَلَّفاً (عاقلاً قادراً مسؤولاً عن أعماله). وكذلك تكونُ نجاةُ الفَرْدِ من البَشَرِ يومَ القِيامة بأعمالهِ الصالحة التي كانتْ له في حياتهِ في هذه الدنيا.

* نَظَرُ الإسلام إلى المُجتَمع الإنساني وأنِ الانسانَ جَزْءٌ من مُجتَمعهِ في الدَّرجةِ الاولى، ثم هو ـ ومُجْتَمَعُهُ مَعَهُ ـ جُزْءٌ من المجتمعِ الأعظمِ في هذا

---

(١) القرآن الكريم ٤٢ (الشورى): ١١.

العالمِ كُلّهِ. ثمّ لا بدّ في المُجتمعين الصغيرِ والكبيرِ من قانونٍ يَضْبِطُهُما، وإن كانَ هذا الضابطُ أحياناً مُضِرّاً بِنَفَرٍ من أبناء المُجتمع أو قَيْدا ثقيلاً على حُرّيتِهم على الأقلّ.

وكذلك لا بُدَّ، في هذا العالمِ الواسع المُتَعَدِّدِ الوجوهِ، من الكِفاحِ (أو الحرب). ولكنّ الآستعدادَ للحرب (في نظرِ الإسلامِ) يُطيلُ أمَدَ السِّلْمِ. والحرب، في الإسلام أيضاً، تكونُ في مُقاومة الذين يَحْمِلون السلاح لِقتال المسلمين. أمّا الذين لا يَحْمِلون سلاحاً في هذه السبيل ولا يَحْمِلون السلاح في مثلِ هذه الحال، فانّهم «سَلَمٌ» (بفتح ففتح) لا يجوزُ قِتالهم.

والتاريخ يُفهَم على عدد من الأوجه:

الوجه الطبيعي: وجودُ هذا العالم الذي نعيش نحن فيه وكيف تَطوّرَ منذ الخَلْق الأوّل حتّى اصبحَ على ما هو عليه اليومَ، وما في ذلك كلّهِ من القوانين الطبيعيّة. ولقد جعَلتُ هذا القسمَ الأوّل في الفصل الذي يتكلّم على «اللهِ عزَّ وجلَّ»، ما دامَ الكلامُ يَجِبُ أن يدورَ على «أسباب الوجود». واللهُ تعالى هو السببُ الأوّلُ والمُطْلَقُ لوجود هذا العالم، في الدين وفي الفلسفة معاً، حتّى في فلسفةِ أرسطو الوثنيّةِ المَنْحى من جانبٍ والعِلميّةِ المنحى من جانبٍ آخَرَ، ذلك الجانبِ الآخَرِ الذي أرادَ به أرسطو أن يجعَلَ لكلِّ موجودٍ سبَباً في وجودِه.

الوجه الإنساني: حياةُ الإنسانِ على هذه الأرض وما يتخلّلُ تلك الحياةَ من تطوّرٍ وما يحدُثُ فيها من الأحداث الكبارِ التي هِيَ مَعالِمُ في الحضارة الإنسانيّة.

الوجه المنطقي: تعليلُ الأحداث التي تقعُ في الحياة الإنسانية. وهذا الوجه في الحقيقةِ جانبٌ من الوجهِ الانساني، ولكنّ موضوعَه من باب الفلسفة (ربطِ النتائج في الحياةِ الإنسانيةِ بأسبابِها الظاهرة أو بأسبابها الحقيقية). وذلك ـ طبعاً ـ غير «قِصّةِ التاريخ».

* * *

* نَظرُ الإسلام إلى التاريخ

ولقدِ آقتصرتُ في هذا الكتاب على الرجوع إلى القرآن الكريم وحدَه. ولو أنّني رَجَعْتُ في آستجماع القول إلى الحديث الشريف وإلى ما قاله الفقهاءُ والعلماء والفلاسفة في الموضوعات الأربعة التي هي فصول هذا الكتاب: اللهِ والإنسانِ والمجتمع والتاريخ، لأصْبَحَ حجمُ هذا الكتاب أضعافَ ما هو عليه الآنَ من غير أن يزيدَ في معانيه إلاّ أشياءُ من التفاصيل أو من الآراء التي نشأت بعد تأثُّر الفكر الإسلاميّ بالفكر اليوناني، وليس في ذلك كلّهِ زيادةٌ مادّيّة تستحقّ جعلَ هذا الكتّاب أضعافَ ما هو عليه الآنَ في عدد الصفحات. ويحسُنُ ألاّ ننسى أن منهجي الذي خَطَطْتُه وبَنَيْتُه (في معالجة الموضوعات المذكورة آنِفاً) على ما وَرَدَ في القرآنِ الكريم فَحَسْبُ، يجعَلُ من هذا الكتاب بحثاً مُعيّناً مُتحيّزاً شاملاً لوجه من وجوه الثقافة الإسلامية، ويدُلُّ على تلك الثروة الواسعة الموجودة في الكتابِ العزيز والتي أرادَ اللهُ تعالى أن يُعَلِّمَ بها المسلمين والناسَ أجمعين ويُثَقِّفَهُمْ بها أيضاً.

غيرَ أنّني قد توسّعتُ في الفصل الذي تكلّمتُ فيه على «الله» في الإسلام

بأنّ تناولتُ أيضاً ـ في هذا الموضوع ـ آراءَ نفَرٍ من المفكّرين المسلمين. فعلتُ ذلك لأنّ موضوعَ «الألوهيّة» في الإسلام ركنٌ في التفكير الإنسانيّ كُلّهِ. ثمّ إنّ لهذا الموضوع في الإسلام مكانةً ووُضوحاً ليسا له في الفلسفات الأُخرى. فَلْيَكُنِ التوسّعُ في الكلامِ على موضوعِ الألوهيّةِ مِقياساً للثروةِ الفِكريّة التي كانت للـمُسلمين في الموضوعاتِ الباقية.

ولعلّ هذا الكتابَ الموجزَ سيساعدُ على جلاء عددٍ من الحقائق في معانيها الصحيحة، وسيساعدُ عدداً من الجماعاتِ الإنسانية على العيشِ بسلامٍ لخيرِ أنفسِهم ولخير الحضارة الإنسانية.

بيروت في ثامنَ عشَرَ رجَبَ من سَنة ١٤٠٣، ١٠/٥/١٩٨٣.



فهرس الموضوعات

المقدمة

جانب من تاريخ الإسلام
الدين والدولة - السلم والحرب

كان نفر من المستشرقين يَرَوْنَ أنّ الإسلام لم يَلْقَ آنتشاراً في العالم إلاّ في القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) - قياساً على النَّصرانيّة التي لم تَلْقَ آنتشاراً إلاّ بعد زمن طويل من دعوة المسيح عيسى بن مريمَ عليهما السلام. ولا شكّ في أنّ «المسيحيّة الراهنة» (الحاضرة) كانت من عَمَلِ القِدّيس بولصَ (ت ٦٧ م). من أجل ذلك قال مايْكِلْ هارْتْ[١] في كتابه «المائة»، وهُمُ المِائةُ الذين كان لهم أثرٌ فعّال في التاريخ الإنساني (ص ٤٨):

«فإذا نحن أخذنا بالمنطقِ وَجَبَ أن نجعَلَ بولُصَ - في هذهِ السلسلة (من هذا الكتاب) - قبل يَسوعَ. ومَعَ أنّه لم يكن بإمكاننا أن نعلَمَ ما كان بالإمكان أن تكونَ حالُ النَّصرانيّة اليومَ لولا بولُصُ، فإنّه لولا المسيحُ لَما كانت النَّصرانيةُ».

أمّا الأمر فيما يتعلّق بالإسلام وبمُحَمَّدٍ ﷺ فمُختلفٌ جداً: إنّ الإسلام قد تَمّ دِيناً ودَوْلةً ونِظاماً آجتماعيّاً ونَهْجاً أخلاقيّاً في حياة محمّدٍ نفسِه. فمن

---

(١) Michael H. Hart, The Hundred, A & W Visual Library, New York 1970

أجلِ ذلك جعَلَ مايْكِلْ هارْتَ ترجمةَ[1] محمّدٍ رسول الله أُولى التَّرْجماتِ المِائَةِ ثمّ جعَلَ الكلام على عيسى عليه السلام في الترجمةِ الثالثة من كتابه.

وكذلك كان نفرٌ من المستشرقين أيضاً يَرَوْنَ أنّ الإسلام آنتشرَ بالسيف (بالقوّة).

أما الموضوعُ الأوّل (تأخُّرُ آنتشارِ الإسلام عن حياةِ محمّدٍ رسولِ الله) فقد عالَجْتُه في رسالتي * لرُتبة «المَشْيخة» (الدكتوراه)[2] وأوضحتُ في هذه الرسالة أنّ أثرَ الإسلام قد بدأ يظهَرُ في المسلمين ـ مِمّا يدُلّ عليه الشعرُ العربيّ (كما آشترط عليّ أُستاذي المُشرفُ في مِنهاجِ البحث) ـ مَنذُ السَّنَة الأولى للهِجرة (قبل وفاةِ محمّدٍ رسولِ الله بثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً). وقد تبدّى هذا الأثرُ في الميادينِ المختلفة: في العِبادات وفي السُّلوك الأخلاقيّ وفي الآعتقادات (بالله وبالنُّبُوّة وبالحِساب من الثواب والعِقاب يومَ القيامة) وفي عدد من جوانبِ المُعاملات وفي السياسة وفي الشُّعور العَصَبَيّ (القوميّ) أيضاً ـ وذلك كُلّه قبلَ أن يلحَقَ محمّدٌ رسولُ الله بالرفيق الأعلى (١١ للهجرة = ٦٣٢ م).

* * *

---

* Das Bild des Frühislam in der arabischen Dichtung von der Higra bis zum Tode des Kalifen Umar (1 - 23 d.H. und 622 - 644 n. Ch.), Leipzig 1937

(١) الترجمة (هنا) تاريخ حياة فرد من الناس.

(٢) «الدكتوراه» رتبة اشتق اسمها من جذر (في اللاتينية) من التعليم والمعرفة أو الفقه (وهو العلم الذي يصبح في الإنسان ملكة). وكان المسلمون يسمّون مثل هذا العالِم شيخاً. ومن المشهور أن ابن خلدون مثلاً كان يقول: وكان من لقيته من شيوخنا....

ونأتي الآنَ إلى آنتشار الإسلام.

والكلامُ على ذلك يحتاجُ إلى الكلامِ على صِلَةِ الدين بالدولة وإلى حاجةِ الدولةِ إلى السِّلْمِ والحرب.

قَسَمَ الإسلامُ الناس قِسمَيْنِ: عَرَباً وغيرَ عربٍ. أمّا العَرَبُ فلم يكن لهم مَفَرٌّ مِنَ آعتناق الإسلام بالرِّضا أو بالقوّة، وفي ذلك نَزلتِ السورةُ التاسعةُ في المُصْحَفِ[1] (سورة «برَاءة» أو التَّوبة). تبدأ هذه السورةُ بالآياتِ الخَمْسِ التالية (ويحسُنُ أن نُلاحظ ما فيها من السياسة الداخلية ومن أصول السياسة الخارجيّة ومن الحقوق الدولية في عقد المعاهدات. ـ وهذه السورة لم تبدأْ بالآيةِ الكريمة ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ﴾، لأنّها نَزَلَتْ في «الحَرْبِ والقِتال»، ثمّ إنّ «البَسْمَلَةَ» أمانٌ، وهذه السورة نَزَلَتْ في «السيف»):

قالَ الله تعالى في أوّلِ سورة «براءة»:

بَراءةٌ مِنَ اللهِ ورسولهِ إلى الذين عاهَدتُّمْ مِنَ المُشركينَ[2] فَسِيحوا في الأرضِ أربعةَ أشهُرٍ واعْلَموا أنّكُمْ غيرُ مُعْجِزِي اللهَ، وأنّ اللهَ مُخْزِي الكافرين * وأذانٌ[3] مِنَ اللهِ ورسولهِ إلى الناسِ يَوْمَ الحَجِّ الأكبرِ[4] أنّ اللهَ

---

(١) المصحف عامّة هو الكتاب المؤلّف من صحف (أوراق). ثمّ هنا: الكتاب الذي دوّن فيه القرآن الكريم. وسور القرآن الكريم ليست منسوقة في «المصحف» بالترتيب التي نزلت به (وأن كان الترتيب التاريخيّ محفوظاً ومشاراً اليه في عدد من طبعات المصحف).

(٢) سورة «براءة» هي التاسعة في المصحف. والمشركون هم الذين يجعلون مع الله آلهاً آخر (الذين يعدّدون الآلهة) ـ والمشركون هنا هم العرب الذين كانوا في الجاهلية قبل الإسلام.

(٣) أذان: إعلام، إعلان، إنذار.

(٤) الحجّ الأكبر هو المفروض على المسلمين في تاسع ذي الحِجّة (الشهر الثاني عشر من التقويم =

بَريءٌ مِنَ المشركينَ ورسولُهُ، فإنْ تِبْتُمْ فَهُوَ خيرٌ لكُمْ، وإنْ تَوَلَّيْتُمْ[1] فآعلَموا أنّكم غيرُ مُعْجِزِي اللهِ. وبَشِّرِ الذينَ كَفَروا بعذابٍ أليمٍ * إلاّ الذينَ عاهَدتُّمْ مِنَ المشركينَ ثمّ لَمْ ينقُصوكُمْ شيئاً ولم يُظاهِروا[2] عليكم أحداً، فأتمّوا إلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ. إنّ اللهَ يُحِبُّ المُتّقين * فإذا آنْسَلَخَ الأشهُرُ الحُرُمُ[3] فآقتُلوا المُشركين حيثُ وَجَدتُّموهم. وخُذوهم وآحصُروهم وآقعُدوا لهم كلَّ مَرْصَدٍ. فإنْ تابوا وأقاموا الصَّلوةَ وآتَوُا الزَّكاةَ فخَلّوا سَبيلَهم. إنّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ *.

وأمّا غيرُ العربِ ـ من الفُرس والهُنودِ ومن الآرامِيّين واليَهودِ ومن الرّوم والإفْرِنْجِ ـ فإنّ الإسلامَ يُعْرَضُ عليهم. فإنْ قَبِلوه فَلَهُمُ الحُسنى[4]؛ وإنْ لم يَقْبَلوه فلا سبيلَ لأحدٍ عليهم. جاء في سورةِ البَقَرة (السورةِ الثانية في المُصْحَفِ، الآيةِ ٢٥٦):

﴿لا إكراهَ في الدين. قد تَبيّنَ الرُّشْدُ من الغَيّ، فَمَنْ يكفُرْ بالطاغوتِ[5]

= القمري)، إذ بإمكان المسلم أن يقوم متى شاء بعمرة (بضمّ العين): حجٌّ في غير تاسع ذي الحجة.

(١) تولّيتم: رجعتم، تركتم، لم تقبلوا (الايمان بالله والدخول في الإسلام).

(٢) لم يظاهروا عليكم: لم يساعدوا أعداءكم في مقاتلتكم.

(٣) انسلخ: مضى، انتهى. الأشهر الحرم أربعة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم (ثلاثة أشهر متواليات) ثمّ رجب (الشهر السابع في التقويم القمري). ويقال له: رجب الفرد لأنّه يأتي وحده شهراً حراماً (لا تجوز الحرب فيه)، بينما الأشهر الثلاثة الباقية تأتي مجموعة (متوالية). وكان الله قد إذن للمشركين من العرب بهدنة مداها أربعة أشهر لا يجوز لهم بعدها البقاء على الشرك.

(٤) الحسنى: أفضل ما في الحياة. المعاملة الحسنة. المنهج الحسن.

(٥) الطاغوت: الشيطان (كلّ معبود غير الله تعالى).

ويُؤمِنْ باللهِ فقَدِ آستَمْسَكَ بالعُروة الوُثْقى لا آنفصامَ[1] لها. واللهُ سميعٌ عليمٌ﴾ *.

وقريبٌ من ذلك وأكثرُ وُضوحاً في الرَّدّ على الذين يَرَوْنَ في الدعوة الإسلامية مجالاً للإكراه (١٠ : ٩٩، سورة يونس):

﴿ولو شاءَ ربُّكَ لآمَنَ مَنْ في الأرضِ كُلُّهُمْ جميعاً. أفَأنْتَ تُكرِهُ النّاسَ حتّى يكونوا مُؤمِنِينَ؟﴾ *.

هذا من حيثُ المبدأ - من الناحيةِ الفِقْهيّة النَّظَرية - واضحٌ. ثمّ هو أيضاً من حيثُ التطبيقُ أو مِنَ الناحيةِ العَمليّة والواقعِ الأجتماعيّ واضحٌ أيضاً.

إنّ الحربَ والسِّلْمَ حالانِ مُلازِمتانِ لكُلِّ دولةٍ، وما كانتِ الدولةُ الإسلامية بِدْعاً[2] في الدُّوَل. والسِّلْم في الإسلامِ هو الآختيارُ الأوّلُ والواجبُ الأوّلُ والرُّكن الأوّلُ في الدعوة الإسلامية وفي الدولة الإسلامية. ولقد جاء في القرآنِ الكريمِ آياتٌ كِثارٌ تُفصِّلُ هذا الواجبَ من حالَيِ السِّلم والحرب نَقْصَه، على ما وَرَدَ في القرآن - قبلَ أن نأتِيَ إلى آستقراءِ أحداثِ التاريخ.

المُسلمون مَدْعُوُّونَ إلى إقرار السِّلمِ بقولهِ تعالى (٢ : ٢٠٨، سورة البقرة): ﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا، أُدْخُلوا في السِّلم كافّةً[3]...﴾. ومَعَ أنّ

---

(١) العروة (العقد، كلّ شيء يمسك الإنسان به ليثبت في موقفه) الوثقى: المتينة. انفصام: انفصال، انقطاع.

(٢) البدع: الشيء يفعل للمرّة الأولى (ليس هنالك ما يشبهه)، غريب، شاذّ.

(٣) السلم (بالفتح أو بالكسر، وتذكّر وتؤنّث): السلام (ضدّ الحرب) والإسلام أيضاً.

«السِّلْمَ» فُسِّرَ هنا بالإسلام، فإنّ المَدْرَكَ الأساسيَّ مِنَ الآستقرارِ والأُخُوَّة واضحٌ جِدّاً. ولعلّ كَلِمةَ «السِّلْم» هنا تَجِدُ سَنَداً في معنى السّلام مِنَ الآياتِ الثلاثِ التالية (٨ : ٦٠ ـ ٦٢، سورة الانفال): ﴿وأَعِدّوا لهُمْ ما آستَطَعْتُمْ من قُوّةٍ ومن رِباطِ الخيلِ تُرهِبون[١] به عَدُوَّ اللهِ وعَدُوَّكم وآخَرينَ من دُونِهم لا تَعْلَمونَهم، اللهُ يعلَمُهم. وما تُنْفِقوا من شيءٍ في سَبيلِ اللهِ يُوَفَّ إلَيْكُمْ وأنْتُمْ لا تُظْلَمون * وإنْ جَنَحوا[٢] للسَّلْمِ فاَجْنَحْ لَها وتَوَكَّلْ على اللهِ. إنّه هُوَ السميعُ العليم * وإنْ يُريدوا أنْ يَخْدَعوكَ، فإنَّ حَسْبَكَ[٣] اللهُ. هو الذي أيّدَكَ[٤] بنَصْرِهِ وبالمُؤمنين *.

ولكنْ إذا حدَث آعتداءٌ على قومٍ، فإنّ القِتالَ يُصبِحُ حينَئِذٍ واجباً. ومِصداقُ ذلك في قولِه تعالى: ﴿أُذِنَ للذين يُقاتَلون بأنّهم ظُلِموا،[٥] وإنّ اللهَ على نَصْرِهم لَقَديرٌ * الذين أُخْرِجوا من دِيارِهم بغيرِ حَقٍّ....﴾ (٢٢ : ٣٩ ـ ٤٠، سورة الحجّ): والإسلامُ يأمُرُ المُسلمينَ بألاّ يُقاتِلوا إلاّ الذي يُقاتِلُهُمْ (راجع ٤ : ٩٠ وما بعد، سورة النساء): ﴿.... فإنِ آعتَزَلُوكُم فلم يُقاتِلوكم، وألْقَوْا إلَيْكُمُ السَّلَمَ، فما جعَلَ اللهُ لكُمْ عَلَيْهِمْ سَبيلاً *...

---

(١) تُرهبون به: تخيفون أعداءكم (باستعدادكم للحرب: بإعداد الخيل والسلاح).

(٢) جنحوا: مالوا، طلبوا.

(٣) أن يخدعوك (أن يتظاهروا بالسلم وهم يضمرون الحرب). حسبك: يكفيك (الله)، وهو ينقذك من خداعهم هذا.

(٤) أيّدك الله: أعانك، جعلك قويّاً.

(٥) أذن الله للمؤمنين بأن يقاتلوا المشركين لأنّ المشركين كانوا قد بدأوا يظلمون المسلمين ويعتدون عليهم. وسورة «الحجّ» التي منها هذه الآية نزلت في مطلع الدور المدني (بعد الهجرة من مكّة الى المدينة بزمن قصير). وهذه الآية هي أوّل آية تذكر القتال.

فإنْ لم يَعْتَزِلوكم ويُلْقُوا إلَيْكُمْ السَّلَمَ ويَكُفّوا أيْدِيَهُمْ، فخُذوهُمْ واقْتُلوهم حيثُ ثَقِفْتُموهم[1]. وآولئكم جعَلْنا لكُمْ عليهم سُلطاناً مبيناً﴾[2] *.

ولا يدخُلُ في هذا البابِ (في الدعوةِ إلى السّلم) حالُ الذي يُثير الحربَ ثمّ يطلُبُ وَقْفَ القِتال إذا بدا عليه شيءٌ من التَّعَب، وهُوَ يُريدُ أن يستَجْمِعَ قوّةً جديدةً لِيُعيدَ الهُجومَ على المؤمنين، كما كان يَتّفِقُ في أثناء حربِ السَّنواتِ الثّماني (١٩٧٦ - ١٩٨٢ م) - حينما كان الإسرائيليّونَ وأعوانُ الإسرائيليّين من هُنا ومن هُناك - يُعلنونَ وَقْفَ القِتال، ثمّ، بعدَ ساعةٍ أو أقلَّ من ساعةٍ أو أكثرَ من ساعة (بِحَسْبِ حاجةِ الإسرائيليّين)، يعودُ القَصْفُ على المِنْطَقَة الغربية من البرّ والبحر والجوّ شديداً عنيفاً أو أكثرَ شِدّةً وأشدَّ عُنْفاً. لقد نبّهَ اللهُ تعالى المُسلمين إلى مثلِ هذه الخدعَة بقولهِ (٤٧ : ٣٥، سورة محمّد): ﴿فلا تَهِنوا وتَدْعُوا إلى السَّلْم وأنْتُمُ الأعلَوْنَ[3]. واللهُ مَعَكم ولن يَتِرَكُمْ[4] أعمالَكم﴾ *

ونأتي الآنَ إلى الواقعاتِ التاريخيّة:

كان للعربِ قبلَ الإسلام ثلاثةُ أعداءٍ: الفرسُ الوَثَنِيّون في الشرق ثمّ الرومُ النَّصارى في الغرب ثمّ الحَبَشَةُ في الجَنوب. ومَعَ أن الحَبَشَةَ كانتْ تَعْتَنِقُ

(١) ثقفتموهم: وجدتموهم.

(٢) سلطانا (برهانا، دليلاً، حجة) مبيناً (واضحاً، ظاهراً).

(٣) لا تهنوا: لا تضعفوا. السلم (بالفتح أو بالكسر): السلام. - لا تدعوا (لا تطلبوا) الصلح مع المشركون وأنتم الأعلون (الغالبون، المنتصرون).

(٤) وتر يتر فلان فلانا عملَه: بخسه حقّه، نقصه (أو أنقصه) شيئاً من حقه.

مذهباً مُخالفاً لمذهبِ الروم في أُوروبّةٍ، فإنّ النَّصرانيةَ كانت تجمَعَ بينَ الدَّوْلَتَيْنِ ، وكانتِ الحَبَشَةُ ـ لِضَعْفِها السِّياسيِّ ـ لا تستطيعُ مُهاجمةَ بلادِ العرب إلاّ بتَشْجيعٍ وعَوْنٍ من قِبَلِ الروم. ومن حُسنِ حظِّ العرب، فيما يتعلّقُ بعَداوةِ الحَبَشَةِ لَهُمْ، أنّ الفُرسَ كانوا يُقاومون حَمَلاتِ الحبشةِ على شِبهِ جزيرة العرب، لأنّ انتصارَ الأحباشِ كان يَعْني (في رأي الفُرس وفي الواقعِ السِّياسيّ) انتصارَ الرومِ أعداءِ الفُرسِ. وفي القصيدة السِّينيّة للشاعر العَبّاسيِّ أبي عُبادةَ البُحتريِّ (ت ٢٨٦ هـ = ٨٩٩ م) إشارةٌ واضحةٌ إلى ذلك. وَصَفَ البُحتريُّ معركَةَ أنطاكيةَ التي كان الفُرسُ قدِ انتصروا فيها على الروم[1] فقال في أثناء ذلك:

فإذا ما رأيتَ صورةَ أنطا ... كِيَّةَ ارْتَعْتَ بينَ رومٍ وفُرسِ ،
والمَنايا مَواثِلٌ وأنوشِرْ ... وانُ يُزجي الصُّفوفَ تحتَ الدِّرَفْسِ.[2]

ثمّ قال في الافتخارِ بأعمالِ الفُرس:

ذاك عِندي وليستِ الدارُ داري ... باقترابٍ منها، ولا الجِنْسُ جنسي،
غيرَ نُعمى لأهلِها عِنْدَ أهلي ... غَرَسوا من ذَكائها خيرَ غَرْسِ.[3]

---

(١) لا شكّ في أن الشاعر البحتري قد رأى صورة معركة أنطاكية (بين الفرس والروم) مصوّرة في إيوان كسرى (وهو قصر على بعد نحو عشرين ميلا شرق بغداد)، ويعرف اليوم باسم «طاق» كسرى أو سلمان باك. والمعركة المشار اليها هنا قديمة من أيام داريوس الأوّل (في مطلع القرن الخامس قبل الميلاد).

(٢) الدرفس (درفش): راية كبيرة من جلد.

(٣) الذكاء (هنا): الفطنة (حسن إدارة المعركة)، الشدّة، اللهب. ـ كانت لها نتيجة واضحة نافعة (لنا).

أيّدوا مَلْكَنا وشَدّوا قُواهُ بكُماةٍ تحتَ السَّنَوَّرِ حُمْسِ،[1]
وأعانوا على كتائبِ أريا طَ بطَعْنٍ على النُّحور ودَعْسِ.[2]
وأراني، مِنْ بَعْدُ، أكلَفَ بالأشـ راف طُرًّا من كُلِّ سِنْخٍ وأُسِّ.[3]

ومعَ هذا كلّهِ فقد كان للفُرس في العِراق (على الحدود الشَّماليّة الشَّرقية من شِبهِ جزيرة العرب) دُويلةُ المَناذرةِ عينَ طليعةٍ على القبائلِ العربية ترصُدُ حَرَكاتِها وتُشتّتُ بالسِّياسة جُهودَها. وبَلَغَتْ سيطرةُ الفُرس على قبائلِ العربِ الشَّمالية إلى أنّ الأكاسرةَ (ملوكَ الفُرس) كانوا يُعَيِّنون للقبائلِ العربية الضاربةِ في الشَّمالِ الشرقيِّ من شِبهِ الجزيرةِ مشاربَ أنعامِهِمْ ومَشارِبَهُمْ من نَهْرِ الفُرات. وربّما مَنَعوهُمُ الشُّربَ إذا هم سَلَكوا مسلَكاً مُخالفاً لأطماعِ فارِسَ.

وكذلك كانَ للرومِ في دُوَيْلةِ الغساسنةِ، في بُصرى من أرضِ حَوْرانَ في الشام (سورية)، عينٌ على العرب. وقد نَجَحَ الروم في غَرْسِ دُويلةٍ تابعةٍ لهم في نَجْدٍ من شَماليِّ شِبهِ جزيرة العرب وأمَّروا عليها حِجْراً (والدَ الشاعرِ الجاهليِّ المشهورِ آمْرِىءِ القَيْسِ). ولَـمّا ثار بنو أسَدٍ، ـ وهم مِنْ عَربِ

(١) أيدوا: أعانوا، ساعدوا. الملك (بفتح فسكون) هو الملك (بفتح فكسر). وهو هنا سيف ابن ذي يزن ملك اليمن (ت ٥٠ قبل الهجرة = نحو ٥٧٢ للميلاد). الكميّ: الشجاع التامّ السلاح. السنوّر: درع من جلد، ثـمّ هو جملة ما يكون مع المحارب من السلاح أيضاً. الأحمس: الشديد (في القتال).

(٢) أرياط: قائد حبشي جاء إلى اليمن (بتشجيع من ملك الروم) وقاتل أهل اليمن وقتل منهم مقتلة عظيمة. الطعن يكون بالرمح. النحر: أعلى الصدر.

(٣) أكلف: أشدّ حبّاً. الأشراف (لقب للفرس). السنخ والأس: الأصل.

الشَّمال ـ على تلكَ الدُّويلةِ المُستنيمة للروم وقَتَلوا مَلِكَها حِجْراً، ذَهَبَ آمْـرُؤُ القَيْس إلى القُسْطنطينيةِ (عاصمةِ الروم) لِيُطالِبَ بجيشٍ روميّ يُحارِبُ به إخوانَه العَرَبَ في شِبه الجزيرة. ولكنّ مَلِكَ الروم يوستنيانـوسَ الأوّل[1] لم يَجِدْ مِنَ مصلحته أن يُرسِلَ جيشاً إلى الشرق لِيَرُدَّ على آمْرِىءِ القيس مُلْكاً صُورِيّاً مَنَحَه الرومُ لأبيه. إنّ الروم «مَلّكوا» حِجْراً على عرب الشَّمال لِيَخْدِمَ هو مَصالِحَهم لا لِيُدافِعوا هم عن عرشهِ الوَهْميّ. إنّ هذا الداءَ في الشرقِ قديمٌ.

ومَعَ هذا كُلّهِ، فلـمّا جاء الإسلام وشَهِدَ القِتال بينَ الرومِ والفُرس آثَرَ الإسلامُ أنْ يَقِفَ إلى جانبِ الرومِ النَّصارى في وَجْهِ الفُرس الوَثَنِيّينَ، ذلك لأنّ النَّصرانيةَ دِينٌ سَماوِيٌّ كالإسلام ـ وإن كان قَدْ نَبَعَ فيها مذاهبُ بعيدةٌ عن الدِّينِ السَّماويّ.

لـمّا توالتْ هزائمُ الروم أمامَ الفُرس بينَ سَنَةِ ٦١١ وسَنَةِ ٦١٩ للميلاد (في أيامِ أبْرَويزَ الفارسيِّ وهِرَقْلَ الروميّ، وفي الدَّوْرِ المَكّيِّ من تاريخِ الدَّعوة الإسلامية) نَزَلَتِ السُّورةُ الثلاثون في المُصْحَفِ (سورة الروم) وفي مَطْلَعِها: ﴿غُلِبَتِ الرّومُ في أدنى الأرضِ[2]، وهُمْ من بعدِ غَلَبِهِمْ[3]

(١) يوستنيانوس (جوستينيان) الأوّل (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) امبرطور الروم، صاحب مجموع «القانون». أغلق جامعة أثينا التي كانت مركزاً للتفكير الوثني (اليوناني القديم)، سنة ٥٢٩ م وعقد صلحاً مع الفرس (٥٣٢ م) ودخل في نزاع (سنة ٥٥٤ م) مع البابوية.

(٢) في أدنى الارض: بالقرب من شبه جزيرة العرب ـ في الشام ومصر (راجع «الروم وصلاتهم بالعرب» ١: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٣) من بعد غلبهم: بعد هزيمهم في حرب الفرس.

سيَغْلِبون * في بِضْعِ سِنينَ، للهِ الأمرُ من قَبْلُ ومن بعدُ. ويومَئِذٍ يفرَحُ الـمُؤمنونَ * بِنَصْرِ الله. ينصرُ من يشاءُ، وهُوَ العزيزُ الرحيم * وَعْدَ اللهِ، لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ. ولكنَّ أكثرَ النّاسِ لا يَعْلَمون﴾ *.

وفي العام ٦٢٣ للميلاد (السنةِ الثانيةِ للهجرة)، بعدَ أربعِ سَنَواتٍ، آنْتَصَرَ الرّومُ على الفُرْس،[١] «وَعْدَ اللهِ، لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ».

الفتوح الإسلامية:

جاء الإسلام ليُخرِجَ الناسَ من الظُّلُمات الى النور، من الجهل إلى العلم، ومن الذُّلّ إلى العِزّ، ومِنَ الآستعبادِ إلى الحرّيّة. ثمّ كانت حروبُ الرِّدّة: ثار عدد من قبائلِ العرب في شرقيّ شِبهِ جزيرة العربّ وجَنوبيّها (بعدَ وفاة النبيّ مُباشرةً، سنة ١١ للهِجرة = ٦٣٢ م) على السُّلطة المركزيّة في المدينة ولم يُرسِلوا زكاتَهم إلى بيتِ المال في العاصمة. وآستطاع الخليفةُ الأول أبو بكرٍ الصِدّيقُ أن يَرُدَّ هذه القبائلَ إلى الطاعة. وكان أحدُ القُوّاد في حروب الرِّدّة المُثنّى بنَ حارثةَ الشَّيْبانيّ، فبعدَ أنِ آنتهتِ حروبُ الرِّدّة آتّجهَ بمن كان مَعَه من الرجال إلى بلاد فارسَ لِيُحارب الفرسَ آنتقاماً لِما كان العربُ يقاسون مِنْهم قبلَ الإسلام. وكذلك كان المثنّى بنُ حارثةَ هذا من قُوّاد العربِ في مَعَركةِ ذي قارٍ[٢] التي آنْتَصر فيها العرب (سَنَةَ ٦١٠، في السَّنَة الأولى من الدعوة الإسلامية)، على الفرس للمـرّةِ الأولى في التـاريـخ. كـان الـمُثنّى

---

(١) «الروم وصلاتهم بالعرب» ١: ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٢) ذو قار: مكان من نواحي الفرات (بين واسط والكوفة).

يُحارِبُ في أثناءِ «الردّة» في شرقيّ بلاد العرب، على مقرُبَةٍ من الحدود الفارسيّة.

وخَشِيَ أبو بكرٍ الصدّيقُ ـ الخليفةُ الأولُ في تاريخ الإسلام ـ أن تَفْني هذه الحَفْنةُ من الرجال بالقتال في أرض غريبةٍ وفي وجه إمبراطوريّة عظيمة عاتية. وأشار أبو بكرٍ على المثنّى بأن يَرْجِعَ عن عزمه، فلم يَرْضَ المثنّى. ثمّ كان فتح فارس والعراق ودخل أهلها في الإسلام طوعاً جَماعةً، هَرَباً من ظلم ملوكِ الفرس إلى عدل الإسلام.

ولم يكن ظُلْمُ الروم في الشام ـ من الناحية الدينية والناحية الاقتصادية والناحية الاجتماعية أقلَّ من ظُلمِ الفرس في فارس نفسِها وفي العراق. وكما أنّ بني تغلب، وهم نصارى من العرب، قد وَقَفوا في معركة القادسية[1] (في العراق) إلى جانب المسلمين في وجهِ الفرس، فإنّ جماعاتٍ كثيرةً من الآراميّين النصارى (في الشام: سورية) قد خَذَلوا هِرَقْلَ مَلِكَ الرومِ وانحازوا إلى المسلمين فساعدوا في انتصار المسلمين على الروم في معركة اليرموك (سَنَةَ ١٥ للهِجرة = ٦٣٦ م). ثمّ دخل أهلُ الشام (سورية) في الإسلام. أمّا الذين لم يدخلوا في الإسلام من سكّان سورية فكانوا جانباً من الجاليات الروميّة (البيزنطية). إنّ قسماً من هؤلاء آثروا أن يَرْجِعوا مَعَ الجيش الرومي المنسحب إلى بلاد الروم. ثمّ كان هنالك قِسمٌ من هذه الجاليات آثرتْ أن تبقى في سورية وأن تبقى على النَّصرانية الأرثوذكسيّة ـ دينِ الإمبراطورية

(١) معركة في جنوب العراق، بين العرب والفرس، قادها سعد بن أبي وقّاص وانتصر فيها العرب سنة ١٦ للهجرة (٦٣٧ م).

الروميّة (البيزنطية) ـ نَعْرِفُ هؤلاء من ألقابهم: بُسترُس، سُرسُق، تُويني (من طوانة، في شرقيّ آسية الصغرى) وغيرَهم.

ولـمّا وَقَفَ عَمْرُو بنُ العاص بالجيش الإسلاميّ عند أسوار القدس، وَجَدَ صفرونيوسُ بطريركُ القُدس أنّ الفرصةَ قد سَنَحَتْ للتخلّص من ظُلم الروم بتسليمِ القُدس للخليفةِ عُمَرَ بنِ الخطّاب شخصيّاً. قال الدكتور أسد رستم (١٨٩٧ ـ ١٩٦٥ م) في كتابه «الروم وصلاتهم بالعرب» (١: ٢٣٢): «في السَّنَة ٦٣٤ (للميلاد) تبوّأ العرشَ البطريركيَّ في المدينةِ المُقدّسة راهبٌ شديدُ الشكيمةِ[١] قـويُّ القلـب، (هـو) صفـرونيـوس الشهير[٢] .... فحرّم القول بالمَشيئة الواحدة»[٣]. وحاول البابا أونـوريـوس الأوّل (٦٢٥ ـ ٦٣٨ م) ومَلِكُ الروم هِرَقْلُ الأوّل (٦١٠ ـ ٦٤١ م) أن يَجْمَعا الشِّيَعَ النَّصرانيّةَ على قولٍ واحدٍ، فلم يُوَفّقا. وقال كيروس أُسْقُفُ فاسيسَ في بلادِ الأكراد بالمَشيئة الواحدة، فسُرّ منه هِرَقْلُ وجعله بطريركاً

---

(١) الشكيمة: حديدة في طرف اللجام لتكون في فم الحصان. قويّ الشكيمة: أنف (بفتح فكسر): يأبى الذلّ والقهر، قويّ القلب.

(٢) مؤرّخ الدولة البيزنطية الدكتور أسد رستم (ت ١٩٦٥ م) يقول في صفرونيوس إنّه مشهور، وقاموس «المنجد» (المطبعة اليسوعية) لا يذكره (في قسم الأدب والعلوم).

(٣) القول بالمشيئة الواحدة (في المسيح) مذهب مسيحيّ نشأ في القرن الخامس للميلاد، وهو يقول بأن في المسيح طبيعة واحدة شخصيّة أو طبيعة واحدة مركّبة نشأت من اتّحاد الطبيعة الآلهية بالطبيعة الإنسانية. وقد حرّمت الكنيسة الكاثوليكيّة القول بهذا الرأي في مجمع خلقيدونية (عام ٤٥١ م). غير أن هذا المذهب أصبح المذهب الرسميّ للامبرطوريّة الرومية (البيزنطية) وانتشر في العراق والشام ومصر والنوبة (مقاطعة في جنوب مصر) والحبشة.

ووالياً على مِصْرَ. ولم يُوَفَّقْ كيروس في جَمْعِ المِصريّين على قولٍ واحد، فقد وَافَقَهُ الساويريّون على القول بالمشيئة الواحدة، ولكن البيوليانيّين والشِّيَعَ الأخرى أعترضوا. فضايقهم كيروس وعـذّبهم وقتـل فـريقـاً منهـم. ففـرّ رؤساؤهم إلى البراري لِيَعودوا إلى مِصْرَ مَعَ العرب الفاتحين (أسد رستم، الروم ١ : ٢٣١ ـ ٢٣٢). وكيروس هذا هُوَ الذي يدعـوه العـربُ «الـمُقَـوْقِس» (الروم ١ : ٢٥٠) ثـمّ هو الذي كان قد هادى الرسولَ وبَعَثَ إليه بمالٍ ودوُابَّ وبِجاريتين إحداهُما ماريا القُبطيةُ والدةُ إبراهيمَ بنِ محمّدٍ رسولِ الله. (ابن الأثير ٢ : ٢١٠ ـ ٢١١، ٥٢٥ ـ ٢٢٦، ٣١٣ ـ ٣١٥). ولـمّا حاصر المسلمون حِصْنَ بابيلونَ (باب إيليون)، عند رأسِ الدّلتا جَنوبَ عينِ شمسٍ اليومَ ـ وهُوَ مِفتاحُ مِصْرَ السُّفلى ومِصرَ العُليا ـ حاوَلَ كيروس أن يَرُدَّ المسلمين عن الحِصْن فلم يَستطِعْ، وأدرَكَ أنّ هذا الحِصْنَ سيسقُطَ وشيكاً برُغْم مناعته، لقلّةِ الجُنودِ الروم في مصر. وخاف كيروس (المقوقس) أن يسقُطُ الحصن وما وراءه فعقَدَ هُدنةً مَعَ عَمْـروِ بـن العـاص قـائـد الجيشَ الإسلامي ثـمّ سافر إلى القُسطنطينية لِيَطلُبَ مَعونةً من الملك هِرَقْلَ. فآتَهمه هِرَقْلُ بالخيانةِ (لأنّه عقد هُدنةً مَعَ عَمْروِ بنِ العاص) ونفاه. ومات هِرَقْـلُ (١١/٢/٦٤١ م)، فـأعـادتْ مَـرْتِينَـةُ (زَوْجـةُ هِـرَقْـلَ) كيروسَ إلى الاسكندريةِ لِيُفاوِضَ العَرَبَ في الصُّلح. وعقَدَ كيروسُ صُلحاً مَعَ العرب (٨/١١/٦٤١ م = أواخرَ صَفَرَ من سَنَةِ ٢٠ للهِجرة). وكان في هذا الصلح أن يدخلَ العربُ الإسكندريّة، على أن يبقى في الإسكندريّة من سُكّانها من شاءَ وأن يَخرُجَ منها من شاء

ثـمّ إنّ الروم نقضوا هذا الصلحَ وأرسلوا جيشاً لآستعادة الإسكندريّةِ

من العرب (بعد أن تواطأوا على ذلك مَعَ أفرادِ الجالية الروميّة الذين بَقُوا في الإسكندرية). ورفض كيروسُ المُقَوْقِسُ أن ينقُضَ صُلْحَه وأنْ يشتركَ في معرَكةٍ ضدّ العرب. فجاء من القُسطنطينيّة جيشٌ كبيرٌ وخاضَ مَعَ العرب معرَكَةً آنهزمَ الرومُ فيها.

ومَعَ أنّ للمؤرّخين المُختلِفين آراءً مُختلِفةً في موقفِ القُبْطِ (نَصارى مِصْرَ) من العرب الفاتحين (الروم ١ : ٢٥٢، السطر الأخير)، فإنّ تاريخَ مِصْرَ وسُلوكَ أهلِها على مرّ العصور لا يحتاجان إلى جِدالٍ كثيرٍ أو قليل في هذا الموضوع.

ولا أُحِبُّ أن أُطيلَ الكلامَ في هذا النّطاق لِئلاّ أخرُجَ إلى غيرِ النّطاقِ الضيّقِ الذي رُسِمَ لهذا الكتاب. ولكنْ لا بُدَّ من ذِكْرِ الاندلس.

لم يكُنْ وإلى المَغربِ موسى بنُ نصيرٍ يُفَكّر في الفتح في الأندلس (أو في القارّة الأوروبيّة شَمالَ البحر الأبيض المتوسّط). ولكنّ أولبان (أو يوليانَ حاكَم سَبْتَةَ من قِبَلِ القُوط ملوكِ إسبانية)[1] كان يَحُثُّه على ذلك. وخاف موسى بنُ نُصَيرٍ أن يُغامر بالجيش الإسلاميّ في مجاهلَ من الأرض وأراد أنْ يختَبِرَ صِدْقَ يوليانَ فطلب من يوليانَ أن يقومَ هو (أي يوليانُ) بحملةٍ

(١) هنالك خلاف في شأن هذا الرجل: في اسمه (يوليان، أولبان، أوربان، جوليان) وفي قومه (أهو من القوط الجرمان الأوروبيّين أم من البربر الأفريقيّين؟). ولكنّ الجميع متّفقون على أنه كان مسيحيّاً وأنّه كان حاكم سبتة (في أقصى الشمال من المغرب على البحر الأبيض المتوسّط). ويبدو أنّ العرب كانوا يقرّون يوليان هذا على حكمه في مرفأ سبتة منذ وصولهم الى المغرب. راجع ذلك كلّه في كتاب ليفي بروفنسال:
Histoire de l'Espagne Musulmane, I 12 - 16.

آستطلاعٍ (وقيامُ يوليانَ بمثلِ هذه الحَمَلة ـ وهُوَ موظَّفٌ قوطيٌّ ـ يدخل في بابِ الخيانة). ومَعَ ذلك فقد قام يوليانُ بهذهِ التَجْرِبة وعادَ إلى المغرب بغنائمَ كثيرةٍ. كان ذلك في السَّنَة التِّسعينَ من الهِجرة (٧٠٩ م).

وظلّ يوليانُ يحُثُّ موسى بنَ نُصيرٍ على فَتْحِ الأندلسِ، وظلّ موسى يخشى عواقبَ هذه المغامرة. ولكنّ موسى قَنِعَ بالقِيام بتَجْرِبةٍ ثانية فأرْسل في السَّنَةِ التالية حملةً صغيرةً بقيادة قائدٍ آسمُه طريفٌ وطَلَبَ من يُوليانَ أن يُرافِقَ طريفاً. فوافقَ يوليانُ على مرافقةِ طريفٍ ونَقَلَ الجُنودَ العَرَبَ في مراكبَ يَمْلِكُها هو. وعادتْ حملةُ طريفٍ بغنائمَ جديدةٍ وبمعلوماتٍ كانت اثمنَ من تلك الغنائم. وظلّ إلحاحُ يوليانَ على آشتداده وخوفُ موسى على ما كان. ومَعَ ذلك، فإنّ موسى طَلَبَ من يوليانَ أن يُرافِقَ حملةً جديدةً جَعَلَها موسى في هذه المرّة (وفي السَّنَةِ ٩٢ للهِجرة = ٧١١ م) بقِيادةِ طارقِ بنِ زِيادِ المشهورِ. وفي زَمَنٍ قصيرٍ جِداً تقدّمَ العربُ في الاندلس حتّى وَصَلوا إلى طُلَيْطُلَةَ عاصمةِ القوط. عندَئِذٍ أدركَ موسى بنُ نُصيرٍ أنّ الأمرَ جِدٌّ وأنّ يوليانَ كان دائماً مُخْلِصاً فيما كان يدعو موسى بنُ نُصيرٍ إليه. وعندئِذٍ فقطْ سارَ موسى بنفسِه على رأسِ جيشٍ لا يَجِدُ مُقاومةً حتّى آلْتَقى بطارقِ بنِ زيادِ عند أسوارِ طُلَيْطُلَةَ. وفي عامينِ آثنَيْنِ فَتَحَ العرب بِلاداً مِساحتها سِتُّمِائَةِ ألفِ كيلو مترٍ مُرَبَّعٍ، لو أرادَ أحَدُنا اليومَ أن يقومَ فيها ـ بِوَسائِلِ النَّقل السريعة الحديثة ـ بِسياحةٍ للترفيهِ عن نفسِه لآحتاجَ إلى أكثرَ من عامين. ولم يكن ذلك مُمْكِناً لو لم يكن أهالي الأندلسِ من سُكّانها الوطنيّين قد ساعدوا العربَ على قِتال القوط هَرَباً من ظُلم الحكّام القوط إلى عدلِ

العرب. ودخل الإسلامُ إلى الأندلس (إسبانية) دخولاً عامّاً.

ولـمّا قامتِ البابويّة بالحُروب الصليبية (في أوروبةَ قبلَ أن تأتِيَ بتلك الحروبِ إلى الشرق) آستَخْدَمَتْ جميعَ الشعوب الأوروبيّة في ذلك. ولـمّا بدأ نجاحُ البابويّة في إخراج العربِ (أيِ المسلمين) من الأندلس، لم يَرْجعْ أهلُ الأندلس عنِ الأسلام إلاّ بعدَ أنْ أوْجَدتِ البابويّة «ديوانَ التفتيش» ولجأتْ إلى القَهْر والقَتْل والإجلاء والتشريد.

هذا هو التاريخ «المُدَوَّنُ» (أوِ المنقولُ من الواقع الآجتماعي). ولا حاجةَ بي إلى تَفْصيلِ الإشارةِ إلى جماعاتٍ من المُبشّرين وأفرادٍ من المستشرقين ونَفَرٍ من المُواطنين وَضَعوا كُتُباً في التاريخ المصنوعِ الذي لا صِلةَ له بالواقعِ الإنساني. إنّ مُحاولةَ ذلك محتاجةٌ إلى فصْلٍ جديدٍ طويل.

الاحد ٢٠ صفر ١٤٠٣ = ١٩٨٢/١٢/٥.


www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

«الله» في الإسلام

الإسلامُ دينُ دعوةٍ جاء لجميع الناس ـ ومِثْلَهُ كانتِ النَّصرانيّةُ من قبلُ ـ بخِلافِ اليهوديّةِ التي تبدو (من التّوراة الموجودةِ بأيدي الناس) ديناً عَصَبيّاً (أو قَوْميّاً) خاصّاً بِقومٍ بِعَيْنِهم من أولئك الذين يَرْجِعون بأنسابِهم إلى إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ أو يظُنّونَ أنّهم يَرْجِعون بأنْسابِهم إليه. من أجلِ ذلك كان «اللهُ» في اليَهوديّة الحاضرة «إلَهَ إسرائيلَ»، ففي سِفْرِ الخُروج (٢٤ : ١٠): «ثـمّ صَعِدَ موسى وهرونُ.... وسَبْعونَ من شُيوخِ إسرائيل ورأوْا إلَـهَ إسرائيـلَ وتَحْـتَ رِجْليـهِ شِبـهُ صَنعـةٍ مِـنَ العقيـقِ الأزْرقِ الشّفّاف»[1]. وفي سِفر «صَمُوئيلَ» الأوّلِ (١ : ١٧): «وإلَهَ إسرائيلَ يُعطيك سُؤْلَكَ». وفي ذلك كلّهِ تَعديدٌ للآلهةِ ظاهرٌ في سِفر صموئيل الأول نفسه (٦ : ٥): «واصْنَعوا تَماثيلَ بَواسِيرِكُمْ[2] وتَماثيلَ فيرانِكُم التي تُفْسِدُ

(١) في الأصل: وتحت رجليه «بَنِيّة» (كلّ شيء يبني). هنا: مصطبة: بناء غير مرتفع يجلس عليه).... من اللازورد (وهو حجر كريم أزرق اللون) اللمّاع.

(٢) هذه كلمة مزعجة جداً. الباسور (جمعها: بواسير): مرض يكون في الشّرَج (بفتح ففتح) أو المِقعدة (بالكسر) مؤخّرة الجسم. والبواسير مرض يحدث به تمدّد وريدي (من أقنية الدم) ثمّ ينزف منها دم. والكلمة موجودة في العهد القديم بهذا المعنى (بالعبريّة والانكليزيّة والعربية، ثـمّ طبعاً في جميع ترجمات التوراة) وفي جميع القواميس الخاصّة بالعهد القديم من =

الأرضَ، وأعْطوا إلَهَ إسرائيل مجداً لعلّه يُخفِّفُ يدَه عنكم وعن آلِهَتِكُمْ وعن أرْضِكم». وهنالك في التوراةُ سَبعةٌ وعِشرونَ عدداً (جملة) يَرِدُ فيها هذا التعبيرُ «إلَهَ إسرائيلَ». ثـمّ يَرِدُ هذا التعبيرُ مرّتينِ في الإنجيل: «مُبارَكٌ الربُّ إلَهُ إسرائيلُ» (لوقا ١ : ٦٨) ثـمّ في مكانٍ آخَرَ (متّى ١٥ : ٣١): فجاء إليه (إلى يسوع[١]) جُموعٌ كثيرةٌ مَعَهُمْ عُمْيٌ وخُرْسٌ وشُلٌّ[٢] وآخَرونَ كَثيرون. وطَرَحوهم عِنْدَ قَدَمَيْ يَسوعَ فشَفاهُمْ، حتّى تعجّبَ الجُموعُ إذ رأَوُا الخُرْسَ يتكلّمون والشُّلّ يَصِحّون والعُرْجَ يَمْشون والعُمْيَ يُبْصِرون. ومجّدوا إلَهَ إسرائيلَ.

* * *

أمّا في الإسلامِ فاللهُ واحدٌ وهُوَ ربُّ كُلِّ شيءٍ. ففي السورة الأولى في المُصْحَفِ (سورة الفاتحة)، وفي الآيةِ الأُولى منها: ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمين﴾. ثـمّ يتكرّرُ هذا التعبيرُ نفسُه ﴿ربُّ العالمين﴾ بعدَ ذلك اثْنَتَيْنِ وأرْبعين مرّةً.

ويبدو أن نفَراً كثيرين، من أولئك الذين كانوا على الدّيانات السالفةِ ثم دخلوا في الإسلام، كانوا يستغربون ذلك فيسألون إذا كان اللهُ ربَّ السماءِ أو ربَّ الأرض أو ربَّ البحر أو ربَّ كذا وكذا. ولقد ردَّ اللهُ تعالى في القرآن

= تلك التي استطعت الاطّلاع عليها في مكتبة الجامعة الاميركيّة في بيروت. والكلمة «بواسير» غير مستقرّة في مكانها بحسب المعنى.

(١) يسوع الاسم المسيحي للمسيح عيسى بن مريم.

(٢) الشلّ (بالضمّ) جمع أشَلّ وشلاّء. والعضو الأشلّ هو الذي فقد الحركة.

الكريم على هؤلاء جميعاً بقولـهِ عـن نفسِه: ﴿ربُّ النـاسِ (١١٤ :١ سـورة الناس)، ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما (١٩ : ٦٥ سورة مريم، ٢٦ : ٢٤ سورة الشعراء، ٣٧ : ٥ سورة الصافّات، الخ)، ربُّ كُلِّ شيءٍ (٦ : ١٦٤ سورة الانعام)﴾.

واللهُ الذي هو، في الإسلام، ربُّ كُلِّ شيءٍ، مُخْتَلِفٌ من كُلِّ شيءٍ آخَرَ في الوُجود، وقد قال هُوَ عن نفسِه في القُرآن الكريم (٤٢ : ١١، سورة الشورى): ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ﴾. من هذا النَّظَرِ ـ أي اختلافِ اللهِ تعالى مـن كُـلِّ شيءٍ آخَـرَ في الوُجـود ـ يبـدأُ التـوحيـدُ الحقيقـيُّ. وسُـورةُ ﴿الإخلاصِ﴾ (السورة الثانيةَ عَشْرَةَ بعدَ المِائَةِ في المُصحف) تدُلّ على هذا التوحيدِ دَلالةً واضحةً:

قُلْ: هُوَ اللهُ أحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ[1] *.

لم يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ * ولَمْ يكُنْ له كُفُواً[2] أحَدٌ *.

ففي التوحيدِ، إذَنْ، شَرْطانِ اثنانِ: التوحيدُ بالعَدَدِ ثـمّ الوَحْدانيّةُ في الصِّفات.

التوحيد بالعدد

تعَوّدَ البشرُ، مُنْذُ الزَّمن الأبعدِ، أنْ يجعلوا لِكُلِّ مَظْهَرٍ من مظاهرِ الوُجودِ ولكُلِّ جماعةٍ من الناس إلَهاً خاصّاً: إلَهاً للغابة، إلَهاً للنَّهر، إلَهاً

---

(١) الصمد: المقصود عند طلب حاجة من الحاجات.

(٢) الكفوء: المماثل.

لِكُلِّ بَلَدٍ، إلَهاً لكلّ قبيلةٍ، إذ كانوا ينظُرون إلى الله على أنّه رئيسٌ مِنَ الرُّؤساء. من أجلِ ذلك كان القُدماءُ يُؤَلِّهون أبْطالَهُمْ ومَشاهيرَ زَمانِهِمْ بعدَ مَوْتِهِمْ ـ كما كان شأنُ الإغريقِ (اليونانيّين القُدماء) مثلا، فإنَّ «البانْثِيونَ»[1] الإغريقيَّ (مَجْمَعَ الآلِهةِ عِنْدَهُم) كان يتألّفُ من رِجالٍ كان لهم في الحياةِ ذِكْرٌ. فلـمّا ماتَ هؤلاءِ رَفَعَهُمْ قومهم إلى مقام الألوهيّة ثـمّ تَركوهم هُنالِكَ أحياءً، ولكنْ غائبينَ عن أعْيُنِ البشرِ لا يظهَرون إلاّ لِمَنْ شاءوا هم أن يظهَروا له.

فالآلِهةُ كانوا عند الإغريقِ كائناتٍ قويّةً ولكنْ لهم حَسَناتُهم وسَيِّئاتهم وعناصرُ ضَعْفٍ وعناصرُ قُوّةٍ. وكانَ آلِهةُ الإغريقِ أيضاً يؤلّفون الأُسَرَ ويُنْجِبون أولاداً بَرَرَةً[2] وأولاداً عاقّينَ. فالإلّه «زَفْسُ» أوْ زُوسُ (وآسمُهُ مُشتّق من كَلِمَةٍ جرمانية قديمةٍ تعني «السماء») كان في الواقع «إلـهَ السماء» عند الإغريق، وكانتْ هيرا (بإماله الياء بينَ الفتح والكسر) آمرأتَه (وكانتْ تتمثّلُ عِنْدَهُم بالقمر).

كانَ مسكنُ زَفْسَ وأُسْرتِهِ على قِمّةِ جبلِ أُولومْبوسَ المُعَمَّمِ ـ في مُعْظَمِ فُصولِ السَّنةِ ـ بالغُيوم. وكانَ يَطيبُ لِزَفْسَ أنْ يَنْزِلَ مرّةً بعدَ مرّةٍ إلى سهلِ أولومْبوسَ لِيُلاعِبَ أولادَهُ فَيَجْعَلَهُمْ يُسابِقُ بعضُهم بعضاً ويُغالِبُ بعضُهم بعضاً ويُباري[3] بعضُهم بعضاً في ألعابٍ أُخرى مُختلفةٍ. ومن هذه

---

(١) بانثيون (من اليونانية ـ بان: كلّ. ثيون: إلّه: مقدّس): الهيكل المقدّس أو المكان الذي تكون فيه تماثيل جميع الآلهة.

(٢) الولد البار: المطيع.

(٣) بارى يباري (نافس).

الخُرافة نشأتْ عِندَنا الألعابُ الأُولمبِيّة المعروفةُ.

أمّا أبولّو (آبنُ زَفْسَ)، فكان هادئاً مُطيعاً فجُعِلَ إلّهاً للنّور والجمال والفَنّ. وأمّا بوسيئِيدونُ (وعو عِنْدَ الرّومان: نَبْتونُ) - وكانَ يُقال فيه، في الخُرافة، إنّه آبنُ «زُحَلَ» وأخو زَفْسَ (أو جُوبِيتَرَ عِنْدَ الرُّومان[1])، فكان شديداً عنيفاً مُتمَرِّداً فعُوقِبَ بأنْ جُعِلَ إلّهاً للبحر وحُكِمَ عليه بأنْ يَظَلّ في أعْماقِ الماء عِقاباً له على تَشرُّرِه. وهم يُصَوِّرونه مُلْتحِياً لِحيةً كَثّةً وحاملاً في يَدِهِ «حَرْبَةً» ذاتَ ثَلاثِ شُعَبٍ. وكان باخوسُ عِندَهُمْ إلّهاً للخَمْرِ ثمّ هِرْمِسُ رَسولاً للآلِهة.

هذه الصّورةُ الإغريقيةُ الواضحةُ للخُرافاتِ اليونانيـة المُتعلّقـةِ بـالآلِهـة كانتْ معروفةً - بأسماءٍ أُخرى وبأشكالٍ أُخرى - عِندَ الهُنود والمِصريّين والبابليّين وغيرِهم. ولا حاجةَ إلى المرورِ بجميع أشكالها في هذه المُقدِّمةِ المُوجزةِ من هذا الكتاب قبلَ الآنتقالِ إلى التوحيد كما عَرَفَهُ الإسلامُ وكما دعا إليه الإسلامُ.

والعَرَبُ قبلَ الإسلامِ لم يكونوا مُختلفينَ آختلافاً كبيراً من المُعاصرين لهم والسابقين عليهم مِنَ الـهُنود والكَلْدانيّين[2] والفُرس واليونانيّين، ولكـن كانوا - فيما يتعلّقُ بالوَثَنيّة - أضيقَ أُفُقاً وأقربَ إلى الفِطْرة. كان في عددٍ من القبائلِ العربيةِ قبلَ الإسلامِ أصنامٌ تُعْبَدُ تقليداً للأُمَمِ المجاورة. إنّ

(١) الرومان: سكّان رومية (أو سكّان شبه جزيرة إيطالية في العصور القديمة).

(٢) الكلدانيون: سكان جنوبيّ العراق بعد البابليّين (نسبة إلى مدينتهم «خلدة»).

عَمْرو بْنَ لُحَيٍّ ـ وهُوَ رَجُلٌ من العرب لا نَعْرِفُ زمَنه بالتدقيق، ولكنْ نَعْرِفُ أنّه كان يَتولّى «حِجابة»[1] الكَعْبةِ ـ كان مرّةً في مَآبَ (مُؤابَ) من أرضِ الأُردُنّ فرأى أصناماً تُكَرَّمُ ويَسْتَشْفِعُ أصحابُ الحاجاتِ بها (جهلاً منهم وغَباءً) فَحَمَلَ عدداً منها إلى مكّةَ. وعَرَفَ العربُ الجاهليّون من الأصنام «هُبَلَ»[4] وكان كبيرَ الآلهةِ عِنْدَهُمْ، وكان موضوعاً في جَوْفِ الكَعْبةِ؛ وكذلك كان لهم من الأصنامِ نَسْرٌ وَوُدٌّ وسُواعٌ ويَغوثُ ويَعوقُ[3]، كما كان لهم أيضاً اللاتُ والعُزّى ومَناةُ[4] (وكُنّ إلاهاتٍ مُؤنّثةً هن عِنْدَهُمْ بناتُ الله).

ولم يكُنِ الجاهليُّ ـ قَرَوياً (مَدَنِياً، حَضَرياً) كان أو بَدْوِياً ـ كثيرَ الجِدّ في النَّظر إلى أصنامه. كان، في عددٍ من الأحيان، يُقْسِمُ بها أو يَتَشَفَّعُ بها أو يسألُ عِندَها حاجةً. ولم يُرْوَ عن عربِ الجاهليّة «عِبادةٌ» مُعيّنةٌ للأصنام.

(١) حجابة الكعبة: القيام على خدمتها وإدارة شؤونها (والتكّسب من الذين كانوا يـزورونها).

(٢) هبل: الصنم الأكبر عندهم (= البعل ـ من ها (أداة تعريف) وبال (أي «بعل»، لأنّ قوماً من قدماء الأعرابيّين كالآشوريّين لم يكن عندهم عين؟ (فجعلت العين مدّاً).

(٣) نسر صنم (كان ـ أو كان له رأس ـ على صورة النسر). ودّ (بالضمّ أو بالفتح): صنم قديم اتّخذه من العرب بنو كلب (ولعلّه آله للمحبّة أو الوداد). سواع (بالضمّ أو بالفتح): صنم قديم ثـمّ اتّخذه من العرب بنو هُذيل (ولعلّه: إلّه الحماية، لحماية الإبل الضالّة وردّها). يغوث: صنم كان لبني مَذْحج (في اليمن، ولعلّه إلّه الغوث أو العون أو المساعدة). يعوق: صنم قديم (لعلّه للتعويق، لتأخير عمل الخصوم).

(٤) اللات صنم أو وثن (صخرة كانت تعبد). وفي معناها ووجوه اشتقاقها خلاف كثير (راجع تاج العروس ـ الكويت ٥: ٧٤ ـ ٧٦). العُزّى: صنم أو وثن (سَمُرة ـ بفتح فضّم: شجرة كانت تعبد)، راجع تفصيل أمرها في تاج العروس (الكويت ١٥: ٢٢٣ ـ ٢٢٤). مناة: صنم (أو وثن).....

وكان البَدْوِيُّ ـ مرّةً بعدَ مرّةٍ، كما رُوِيَ في الأخبار ـ يصنَعُ صَنَماً له من تَمْرٍ ويسألهُ حاجةً أو يُقْسِمُ يميناً في حَضْرتِه. فإذا جاعَ أكَلَهُ.

وكان عند عرب الجاهلية إلى جانب الأصنام (والصنم شخص على صورة الإنسان أوِ الحيوان) أوثانٌ (وهي أشياءُ على غير صورةٍ معيّنة، من الحجارة أو من الشجر).

ولم يكنْ لهذه الأوثانِ ولتلك الأصنام أثرٌ بارزٌ أو ظاهرٌ في حياة الإنسان الجاهليّ، ولم يظهرْ لها في الشعر الجاهليّ أثرٌ أبعدُ من الآثار التي سَبَقَ لنا ذِكْرُها قبلَ بضعة أسطر.

ثـمّ جاء الإسلامُ بالتوحيد الذي كان قد نُسِيَ عند جميع الأمم. وبدأ توحيدُ اللهِ بالعددِ، فهو واحدٌ لا إلَهَ غيرُه. ولقد تردّدَ هذا التأكيـدُ كثيراً في القرآن الكريمِ، من ذلك، مثلاً: ﴿وإلَهكم إلَهٌ واحدٌ لا آلَهَ إلاّ هو﴾ (٢ : ١٦٣ سورة البقرة)؛ ثـمّ ﴿وما أُمِروا إلاّ ليَعْبُدوا إلَهاً واحداً لا إلَهَ إلاّ هو﴾ (٩ : ٣١ سورة التوبة). ولقد قرّعَ اللهُ تعالى أولئك الذين يعتقدون بإلَهَيْنِ آثنين (كالفُرْس القدماء الذين آعتقدوا بإلَه للنور أو الخيرِ وبإلَهٍ للظّلام أوِ الشرّ): ﴿وقال اللهُ: لا تَتّخذوا إلَهَيْنِ آثنينِ. إنّما هو إلَهٌ واحدٌ﴾ (١٦ : ٥١ سورة النحل). وكذلك نَهَى اللهُ تعالى عن القول بثلاثةِ آلِهَةٍ: ﴿ولا تقولوا: ثلاثةٌ؛ آنْتَهوا، خيراً لكم. إنما اللهُ إلَهٌ واحدٌ﴾ (٤ :١٧١ سورة النساء). ثـمّ جَعَلَ الإسلامُ هذا القولَ بثلاثةِ آلِهَةٍ كُفْراً: ﴿لقد كفَرَ الذين قالوا: إنّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ. وما مِنْ إلَهٍ إلاّ آلَهٌ واحدٌ﴾ (٥ :٧٣ سـورة المائدة). واللهُ الواحدُ في الإسلام ليس إلَهاً للمسلمين وحدَهم، بل هو الله

الواحدُ لجميع الناس ولكلّ شيءٍ في الوجود: ﴿ولا تُجادلوا أهلَ الكتاب إلاّ بالتي هي أحسنُ ـ إلاّ الذين ظَلموا منهم ـ وقولوا: آمَنّا بالذي أُنزِلَ إلَيْنا وأُنْزِلَ إلَيْكم. وإلَهُنا وإلَهُكم واحدٌ. ونحنُ له مُسْلمون﴾ (٢٩: ٤٦).

الوحدانيّة في الصفات

وكما أن اللهَ، في الإسلام، واحدٌ بالعدد، فإنّه أيضاً واحِدٌ أحَدٌ بصِفاتِه: لا يجوزُ أن يُوصفَ بِصِفة من صفاتِ خَلْقه ولا يجوزُ أن يُوصَفَ أحدٌ من خَلْقِه بصفة من صِفاته. وفي القرآن الكريم (٤٢: ١١، سورة الشورى): ﴿ليس كَمِثْلِه شيءٌ﴾.

غيرَ أنّ البشرَ قد جعلوا، مُنذُ أقدمِ الأزمنة، يَصِفونَ الله تعالى بصفاتٍ يَعْرِفونها هم أو بصفاتٍ تقرّب إدراك الله ـ فيما يظُنّون ـ إلى عقولِ الناس. وهؤلاء الذين فعلوا ذلك كانوا مَعْذورين، فاللّغَةُ نفسُها قاصرةٌ عن أن تُؤدِّيَ إلى عقول الناس مَدْرَكَ الله تعالى، وقد قال الله تعالى عن نفسِه (كما رأينا قبلَ بضعةِ أسطُر: ﴿ليس كَمِثْله شيء﴾). ومَعَ ذلك فليس بالإمكان أنْ يَتَكلّمَ أحدٌ على اللهِ سُبحانه وتعالى إلاّ بالألفاظ الدائرةِ بينَ الناس، وان كانتْ هذه الألفاظُ قاصرةً عن ذلك.

وهنا نشأتْ عند المُفكّرين المسلمينَ (الـمُعتزلةِ منهم والأشعريّةِ[1]، أيِ

---

(١) المعتزلة جماعة يقولون بالاعتزال. والاعتزال حركة فكرية ترى تحكيم العقل في جميع الامور حتّى في تلك الأمور التي لم تجر العادة بتحكيم العقل فيها (كالنفس والنبوّة والبعث يوم القيامة الخ). وقد نشأت هذه الحركة في أواخر العصر الأموي، وتنسب إلى واصل بن عطاء (ت ١٣١ هـ = ٤٧٨ م). والأشعريّة حركة ترجع إلى أبي الحسن عليّ بن إسماعيل =

الذين يذهَبون في فَهْمِ العقائدِ الدينيّة فهماً عقليّاً أوِ الذين يجعلون طريقَ الفَهْمِ إلى عالمِ الغيبِ ما جاء في الوَحْي والأخبار المَنْقولة عن رسولِ الله الذي نَزَل عليه الوَحْيُ) مسألةٌ دقيقةٌ جدّاً: كيفَ نتناولُ الكلامَ على اللهِ تعالى؟ إنّ أئمّةَ المسلمين قد قالوا: نحنُ نَصِفُ اللهَ تعالى بما وَصَفَ اللهُ تعالى به نفسَه في القُرآن الكريمِ ثـمّ نَقِفُ عند ذلك من غيرِ أن نطلُبَ لتلك الصِّفاتِ مَعانِيَ من قواميسِ اللغة. هذا الموقفُ للأشاعرةِ مأخوذٌ من القرآن الكريم (٧ : ١٨٠ سورة الأعراف): ﴿ولله الأسماءُ الحُسنى فادْعوهُ بها، وذَرُوا الذين يُلْحِدون في أسْمائه؛ سَيُجْزَوْنَ ما كانوا يعملون﴾. هذه الأسماءُ الحُسنى[١] قِسمانِ: قسمٌ خاصٌّ باللهِ تعالى لا سبيلَ إلى تَسْمِيَةِ غيرِهِ بها، نحو: الأحد الواحدِ، الأوّل، الآخِرِ، الباقي، الخالق، المُحيي، الـمُميت، الباعث. ثـمّ هنالك قسمٌ آخَرُ منها يمكن أن يُطلق «لفظُها» على البشر، نحو: المَلِك، الكريم، الحليم، المُجيب، الصَّبور، الشَّكور، القادر، الغنيّ، الوارث. غير أنّ هذه الأسماءَ الحُسنى بلفظها ومعناها خاصّة بالله تعالى. فإذا نحن وصفنا إنساناً بها، فإنّنا نَعْني بها حينئذٍ غيرَ ما نَعْني بها إذا نحن سَمَّيْنا اللهَ بها. قال الإمام الغزّالي (ت ٥٠٥ هـ = ١١١١ م) في كتابه «المَقْصدِ الأسني في شرح معاني أسماء الله الحسنى»[٢]: «هذه الأسماءُ يمكن أن يتّصف العبدُ (الانسانَ) بشيءٍ منها،

= الأشعري (ت ٣٣٠ هـ = ٩٤٢ م). والعقل عند الاشعريّة قاصر عن أن يحيط بالمدارك الغيبيّة. ومع ذلك فهم يحاولون أن يدافعوا عن العقائد الدينية ببراهين عقلية استعاروها من الفلاسفة.

(١) اسماء الله الحسنى تسعة وتسعون اسما (غير لفظ «الله» الذي هو اسم جامع لحقائق الألوهيّة).

(٢) حقّقه وقدّم له الدكتور فضله شحاده، بيروت (دار المشرق) ١٩٧١ م.

كالرحيم والعليم والحليم والصَّبور والشَّكور وغيره. وإطلاق هذه الأسماء على الإنسان يكون على وجهٍ يُخالف تسميةَ اللهِ بها». وقد بيّن الغـزّالي في هـذا الكتاب الفرقَ بينَ المعنى المُراد من هذه الأسماء إذا أُطلقت على الله عزّ وجلّ وبينَها إذا أُطلقت على الإنسان.

من ذلك، مثلاً، المَلِكُ.

يقول الغزّالي (المقصد الأسنى، ص ٧٠): «المَلِكُ (في حقّ الله): هو الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كلّ موجودٍ، ويَحتاجُ اليه كلُّ موجود.... فهذا هو المَلِكُ المُطْلَقُ.... والعبد (الإنسان) لا يُتَصَوَّرُ أن يكونَ مَلِكاً مُطلقاً، فانّه لا يستغني عن كلّ شيء. إنّه أبداً فقيرٌ إلى الله تعالى، وإن آستغني عمّن سواه (عمّن سوى الله). وكذلك لا يُمْكِنُ أنْ يحتاجَ كلُّ موجود إلى الإنسان. وإذا آستغنى الإنسان عن عددٍ من الموجوداتِ، فإنّه لا يستطيعُ أنْ يستغنيَ عن جميعِ الموجودات» (الطعامِ، وحَرارةِ الشمس ومعونةِ الآخَرين، الخ).

في مثلِ هذه الأسماء: الأوّلِ والآخِرِ والخالق والغافر أوِ الغفّار أوِ الغفور، لا يجوز أنْ يُنْسَبَ شيءٌ منها إلى الإنسان لا في صيغةِ الآسم (والصِفة) ولا في صيغة الفعل، فلا يجوزُ أن نقولَ على إنسان إنّه خالقٌ أو إنّه خَلَقَ أمراً ما. وإذا آستعملَ إنسانٌ لفظَ «الخالق» أو لفظَ «خَلَقَ» ـ ولو كانَ في أمورٍ جانبيةٍ، كقول بَعْضِهم: خَلَقَ فلانٌ شكلاً جديداً من النبات أو خَلَقَ فِكرةً ـ فقولُه هذا ـ وان كان محمولاً على المجازِ ـ خارجٌ عن المَنْهَجِ الإسلاميّ.

غير أنّ في الآسم «غافر» وفي الفعل «يغفر» مسألةً تحتاجُ إلى إيجازِ القولِ فيها هنا. في القرآن الكريم (٧ : ١٥٥، سورة الأعراف): ﴿.... أنتَ وَلِيُّنا، فاغْفِرْ لنا وآرْحَمْنا، وأنتَ خيرُ الغافرين﴾. إنّ التعبيرَ هنا «خيرَ الغافرين» يُوهِمُ أنّ هنالك «غافراً» غيرَ الله. ولكنّنا إذا قرأنا هذه الآيةَ الكريمة من أوّلِها، أدْركْنا أن قومَ موسى لَـمّا لَحِقَهُمْ شيءٌ من العذاب دَعَوُا الله وقالوا، فيما قالوه: ﴿أنتَ خيرُ الغافرين﴾. فهذا وَهْمٌ منهم أنّ هنالك مَنْ يَغْفِرُ الذنوبَ غيرَ الله.

ثـمّ هنالك ثلاثُ آياتٍ في غيرِ صيغة «آسم الفاعل» هي:

- الذين يُنْفِقون أموالَهم في سبيلِ الله ثـمّ لا يُتْبِعون ما أنفَقوا مَنًّا ولا أذًى، لهم أجرُهم عندَ ربِّهم، ولا خوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنون * قولٌ معروفٌ و «مَغْفِرَةٌ» خيرٌ من صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أذًى. واللهُ غَنِيٌّ حليم (٢ : ٢٦٢ - ٢٦٣، سورة البقرة).

- ﴿قل للذين آمنوا يَغْفِروا للذين لا يَرْجون أيامَ الله، لِيَجْزِيَ قوماً بما كانوا يكسِبون﴾ (٤٥ : ١٤، سورة الجاثية).

- ﴿والذين يَجْتَنِبون كبائرَ الإثْمِ والفواحشَ، وإذا ما غَضِبوا هم يَغْفِرون﴾ (٤٢ : ٣٧، سورة الشورى).

ثـمّ هنالك عددٌ من أسماء الله الحُسنى تُلْفى في الاستعمال العامْ، نحو: سميعٍ، بصير، رحيم، حيّ، قادر، عالم، الخ.

---

(١) المَن: افتخار الانسان بما يصنع من الخير إلى الآخرين (وهو مكروه).

أوّلاً ـ إنّ هذه الأسماءَ الحُسنى في حقِّ اللهِ ليستْ حُسنى في حقّ البشر. إنّ الانسان يسمَعُ ما يَقَعُ في مَجالٍ محدودٍ ثـمّ هو يسمعُ أصواتاً محدودةً؛ أمّا اللهُ فيسمعُ كلَّ صوتٍ وكلّ نأمَةٍ[1] ويسمعُ كلّ ما يُقال جَهْراً وسِرّاً في كلِّ مكان.

ثانياً ـ إنّ الإنسانَ إذا سَمِعَ صوتاً أو كلاماً فقد يسمعُه على خِلافِ ما هو أو على خلافِ ما قُصِدَ منه. واللهُ سُبحانه وتعالى مُنَزَّهٌ عن كلِّ ذلك.

وما قيل هنا في « سميعٍ »، يُقال مثلُه في « بصيرٍ ورحيمٍ وقادرٍ وعالمٍ ».

لم تأتِ صيغةُ « رحيمٍ » منسوبةً في القرآن الكريم إلى البشر. ولكن جاءَ في القُرآن الكريم قولُه تعالى: ﴿محمّدٌ رسولُ اللهِ، والذين مَعَه أشِدّاءُ على الكُفّار رُحَماءُ بَيْنَهـم....﴾ (٤٨ : ٢٩، سـورة الفتـح). ورُحَماءُ جمعُ « رحيم ». والإنسان قد يكون رحيماً أو لا يكونُ رحيماً. ثـمّ إذا كان رحيماً، فإنّه يكون كذلك إلى حدٍّ معيّنٍ قاصرٍ وفي عددٍ من الأمور في نِطاقِ قدرته. وكذلك الإنسان يكونُ حَيّاً، ولكنْ يُدرِكُه الموتُ. واللهُ هو الحيُّ الذي لا يموتُ (راجع ٢٥ : ٥٨، سورة الفرقان): ﴿وتوكّلْ على الحيِّ الذي لا يموتُ، وسَبِّحْ بحَمْدِه. وكفى بهِ بذنوبِ عِباده خبيراً﴾.

واللهُ سبحانَه وتعالى قد سَمَّى نفسَه في القُرآن الكريم بصيغة الآسْمِ، فعَلَيْنا إذا نحن ذَكَـرْنـا أسماءَه الحُسنـى أنْ نَكْتَفِـيَ بـذكـرِ هـذه (وهـي تِسعـةٌ وتِسعون)[2].

---

(١) النأمة: الصوت الضعيف.

(٢) راجع، فوق، ص٩٣.

نظَرَ الإنسان في العصور الوثنيّة إلى الله على أنّه « ربّ عشيرة » وأنّه دائماً في حالَيْ غضبٍ أو رِضاً. فحَرَصَ الإنسانُ الوثنيّ على أنْ يتطَلّبَ رِضا إلَهِهِ أو يُحاوِلَ دفعَ غضبهِ بتقديمِ الأُضحيّات له من النِّتاج الزِّراعي أو من الأنعام (الحَيَوانات الأليفة كالغنَم والبقر والإبِل) أو مِنَ البشر (من الأطفال في الأكثر) أو من غيرِ ذلك من الذخائر (الأشياء النفيسة).

وآستمرّتْ هذه العادةُ عند اليهود : إنّ « إلَه إسرائيلَ » كان أيضاً يرضى ويغضَب، وكان يُحِبُّ أنْ يَترضّاه أتباعُه بالأُضحيات. وآختلفَ اليهودُ من المشركين (الوَثَنِيّين) الذين كانوا قَبْلَهم او في عَصْرِهم كالكَنْعانيّين (أوِ الفِينيقِيّين) في أنّ اليهودَ، في أيامِ موسى لم يكونوا يُقدّمون أُضحياتِهم من البشر.

وليس في الإنجيل (الأناجيل الأربعة القانونيّة التي بأيدْي الناس) ذِكْرٌ للذبائح. ولكنْ في « رسائلِ بولُسَ إلى العِبرانيّين » أن يَسوعَ المَسيحَ قَدّمَ نفسَه مرّةً واحدةً لِيكونَ أُضحيةً عن خَطايا البشر (راجع عبر ٩ : ١٢ و ١٠ : ١ وما بعدها)، كما أنّ مبدأ « القُربان » (وهو آسْمٌ آخَرُ للأُضحية) ما زال في النَّصرانية إلى اليوم. و « المذبح » في الكنيسة هو الموضع الذي يُقيم الكاهنُ عليه القُدّاسَ (الصَّلاة المسيحية) وتُذبَحُ الذبيحةُ غيرُ الدَّمَويّة.

* * *

وكان جانبٌ كبيرٌ من العرب قبلَ الإسلام على الشِّرْك أو على الوثنيّة؛ وكانتِ الأُضحيةُ عندهم معروفة ـ تعلّموها من جيرانهم ـ وكان أفضلُ

الذّبائح عندَهُمْ ما ذُبِحَ عند الكَعْبة (في مكّةَ) وكانوا يُلَطِّخون جُدرانَ الكعبة بدمِ الأُضحيّة. أمّا الجانبُ الآخَرُ منهم فلم يكن على الوثنيّة، ولكنْ على شيءٍ يُشْبِهُها من التَّقَرُّب إلى اللهِ بوسائلَ ماديّةٍ، ومنها «الأضاحي».

وجاء الإسلام فلم يَجِدْ في الأضاحي الدَّمَويّة قيمةً ذاتيّةً، ولكنْ وَجَدَ فيها قيمةً اجتماعيّةً اقتصاديةً - إذا هي وُضِعَتْ مَوْضِعَها - فجعَلَها صَدَقةً، وأمرَ بأنْ يُكْثِرَ الأغنياءُ من «الأضاحي» في مُناسباتٍ مُختلفةٍ أشهرُها عيدُ الأضحى - سواءٌ أكانَ المُسلمُ حاجّاً أو لم يكنْ. والأضحية في الحجّ «سُنّةٌ». وقد جعَلَ الإسلام الأُضحيةَ لِمَنْفعةِ الفُقَراء إلاّ قليلاً يَتَناولُه صاحبُها (مِزْعةً منها) وشيئاً آخَرَ أكثرَ منه قليلاً يُوزِّعهُ على نَفَرٍ من أهلهِ للبَرَكة. ونَسَخَ الإسلامُ الجانبَ الوثنيَّ من الأُضحية مرّةً واحدةً بما جاء في القُرآن الكريم (٢٢ : ٣٧، سورة الحجّ):

﴿لَنْ يَنالَ اللهَ لُحومُها ولا دِماؤُها، ولكنْ يَنالُهُ التَّقوى مِنْكُم. كذلكَ سَخَّرَها لكُمْ لِتُكَبِّروا اللهَ على ما هَداكم. وبَشِّرِ المُحْسنين»﴾.

كان الدينُ، حتّى مجيءِ الإسلام، مَدْركاً ماورائيّاً (غَيْبِيّاً) أو نَظَريّاً، كما كان قَيْداً على الإنسان وعلى السُّلوك الإنسانيّ. ويبدو أنّ عيسى عليه السلامُ قد أرادَ أن يجعَلَ للدين مَغزًى اجتماعيّاً عَبّرَ عنه بالطَّريقة الرَّمزيّة التي جاءتْ في الإنجيل (مر ٢ : ٢٧): ثمّ قالَ لهم: السَّبْتُ إنّما جُعِلَ لأجلِ الإنسان، لا الانسانُ لأجلِ السّبت». ولم يثبُتْ هذا المبدأ في أناسِ ذلك العصر، لأنّ الأناجيلَ الأربعةَ انطوَتْ على تعاليمَ في الإيمان وفي الدِّيانة ولم تَنْطَوِ على تشريعٍ. والتَّشريعُ هو الجانبُ الاجتماعيّ العَمَليّ من كلّ دينٍ.

أمّا الإسلامُ فجَعَلَ الدينَ أوجُهاً منها الإيمانُ والدولةُ (السِّياسة) والمُعاملات (أمورُ الحياة الواقعة في الجانبِ الآجتماعيّ كالبَيْع والشِّراء والتّقاضي والزَّواج وتربيةِ الأولادِ وغيرِ ذلك ممّا يحتاجُ إليه الإنسانُ في حياته اليومية) والمنهجُ الأخلاقيُّ (حينما يُقَصِّرُ القانونُ عن أنْ يَجِدَ حَلاً لِمُشكلة إنسانيةٍ فيقومُ «الخُلُقُ الكريمُ في الفَرْدِ» بحلٍّ فيه إحسانٌ مِنَ القَوِيِّ إلى «الضعيف»).

إنّ الإسلامَ لم يجعَلْ من المُسلمين عَبيداً، بل عِباداً ينظُرونَ في أمرِ الدين، مرّةً إلى «العِبادة» ومرّة إلى «المصلحة الآجتماعيّة». إنّ اللهَ في الإسلامِ لم يطلُبْ من جميعِ الناسِ في جميعِ الأحوالِ أن يُقَيِّدوا أنفُسَهم بلفظِ الفَرْض الدينيّ إذا كان في القِيام بهذا الفرض على الوَجْه المطلوبِ حَرَجٌ (تَضْييق) على الفرد أو على الجماعة. ففي القُرآن الكريم يَرِدُ هذا التعبيرُ «تكليفُ النفسِ وُسْعَها» خَمسَ مرّاتٍ، كما يَرِدُ بمعناه، وفي غيرِ هذه الألفاظ، مِراراً. والآيةُ الأخيرةُ من سورة البَقَرة (السورة الثانية في المُصْحَف) جاءتْ جامعةً لعددٍ من وُجوه هذا المَدْركِ الديني في الإسلام:

﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نفْساً إلاّ وُسْعَها[1]، لها ما كَسَبَتْ وعليها ما آكْتَسَبَتْ[2]. رَبَّنا، لا تؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أو أخطأنا؛ رَبَّنا، ولا تَحْمِلْ علينا

(١) وسعها: ما تسعه قدرتها، ما تستطيع احتماله.

(٢) كسب الانسان (الخير) بعون من الله، واكتسب (التاء هنا تدلّ على النفس) الإنسان الشر (من عند نفسه، بآستبداده في الرأي) - راجع أيضاً تاج العروس (الكويت ٤ - ١٤٤ - ١٤٥).

إصْراً [1] كما حَمَلْتَهُ على الذين من قِبْلِنا. ربَّنا، ولا تُحَمِّلْنا ما لا طاقةَ لنا به. واَعْفُ عنّا واَغْفِرْ لنا واَرْحَمْنا. أنتَ مَوْلانا، فاَنصُرْنا على القوم الكافرين﴾.

وهنالك آيةُ أكثرُ إيجازاً ـ ولكنّها ليستْ أضيقَ مَدّى ـ هي (٢٣: ٦٢، سورة المؤمنون): ﴿ولا نُكَلِّفُ نفساً إلاّ وُسْعَها. ولَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بالحقِّ. وهم لا يُظْلَمون﴾. راجع أيضاً ٦: ١٥٢، سورة الانعام و ٧: ٤٢، سورة الأعراف.

وأراد اللهُ تعالى أن يُعَلِّم عِبادَه. والآياتُ الكريمة التي تُشير إلى تعليم اللهِ تعالى عِبادَه، خاصّةً وعامّةً، كثيرةٌ جِدّاً في القرآن الكريم. من هذه الآيات قولُه تعالى (٢: ١٥٠ ـ ١٥١، سورة البقرة): ﴿... واَخْشَوْني، ولِأُتِمَّ نِعْمتي عليكم، ولعلّكم تَهْتدون * كما أرْسَلْنا فيكم رسولاً منكم يَتْلو عليكم آياتِنا ويُزَكّيكُم [2] ويُعلّمُكُمُ الكِتابَ والحِكمةَ [3]، ويُعلّمُكم ما لم تكونوا تَعْلمون﴾.

وسنرى في هذا الفصلِ أشياءَ كثيرةً مِمّا أرادَ اللهُ أنْ يعلِّمَها للبشر. ولكنْ يحسُنُ، قبلَ ذلك، أنْ نُشيرَ إلى أنّ الله قد خاطَبَ الناسَ باللُّغَةِ التي كانوا يَفْهَمونها في زَمَنِ خِطابِهِ إيّاهُم. وهذا ظاهرٌ واضحٌ في قولِهِ تعالى (١٤: ٤،

---

(١) الإصر: الأمر الثقيل الذي يصعب حله. والإصر أيضاً: الذنب الذي ليس في عقوبته تخفيف ولا فدية ممكنة.

(٢) يزكّيكم: يطهّركم (من الشرك). الكتاب: القرآن.

(٣) الحكمة: الأحكام (قواعد الحياة) العاقلة المفيدة.

سورة ابراهيم): ﴿وما أرسَلْنا من رسولٍ إلاّ بلِسان قَوْمِه لِيُبَيِّنَ لهم، فَيُضِلَّ الله مَن يشاء [1] ويهدي من يشاء. وهُوَ العزيز الحكيم﴾. وللألفاظ في كلّ لِسان من ألْسنةِ البشر مدركٌ لُغَوِيٌّ (هو الذي نَجدهُ عادةً في القواميس، وهو المعنى الحقيقي للَفْظ) ثـمّ مدركٌ اجتماعيٌّ (يَرْجعُ إلى تطوُّر معنى ذلك اللفظ في أثناء حياة الأمّةِ، وهو ما يُسَمّى المعنى المجازيَّ، كإطلاقنا أحياناً لفظَ الشمس أو لفظَ البدر على المَرأةِ الجميلة).

أرادَ الله تعالى أن يُعَلِّمَ البشر حقائقَ هذا العالم الذي يعيشون فيه. إنّ الله قد خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ وما بَيْنَهما وما فيهما؛ وقد خَلَقَهـا بالحقّ [2] ٣٩ : ٤٤، راجع ٣٠ : ٨).

وكذلك خَلَقَ الله السمواتِ والأرض في ستّةِ أيامٍ (١٠ : ٣، ٣٢ : ٤). ولكنّ العددَ «ستّةً» هنا ليس للحَصْر، بل للدّلالة على تطوُّر الخَلْق ـ وإلاّ، فإنّ الله قادرٌ على أن يخلُقَ الأشياءَ في لَحْظةٍ أو في جزء من لحظة ـ ولكنّ الله خاطَبَ الناسَ بما يفهمونه من اللّفظ الحقيقي، وإن كان اللفظُ المَجازيُّ يَغيبُ عنهم أحياناً. إنّ اليوم عِندَنا (وكذلك يفهَمُ جماعةٌ من الناس «الأيامَ السّتّةَ») هو دَوَرانُ أرْضِنا على مِحْورِها مرّةً واحدةً، وذلك عندنا أربعٌ وعِشرون ساعةً من مَدى الساعة الذي تواضَعْنا نحنُ عليه. ولا شكَّ في أنّ

---

(١) يضلّ الله من يشاء (من الذين يخالفون قوانين الحياة).....

(٢) بالحقّ (هنا): بالحكمة (بوضع الأمور في مواضعها الصحيحة) وبالصواب (بالجري على قوانين الوجود) وبتعليم الناس ما ينفعهم (بأن يدلّهم على شيء من علم الله وقدرته فيفهموا حينئذ حقائق الوجود فهماً كافياً ضرورياً لهم) ـ راجع تفسير القرطبي (٨ : ٣١٠، ١٠ : ٥، ٦٨.

اليومَ على الكـواكـبِ المختلفـة « المرّيـخ، المشتري، زُحَـلَ » وعلى النجـوم الأُخرى مُختلفٌ في الطّول والقِصَر. ولقد نبّهنا اللهُ تعالى إلى ذلك حينما أرادَ أن يُعَلِّمَنا أن « اليومَ على أرْضنـا » هو غيرُ اليوم الذي يَجْري فيه الحُسبانُ الفَلَكيُّ. قال الله تعالى (٢٢ : ٤٧، سورة الحجّ): ﴿وإنّ يوماً عند ربِّكَ كألْفِ سَنَةٍ مِمّا تعُدّون﴾. ثـمّ إنّ هذا العددَ « ألفاً » هو لَتَقْريبِ الحقائقِ من أفهامِ البشر، فلقد قالَ اللهُ تعالى في مكانٍ آخَرَ (٧٠ : ٤، سورة المعارج): ﴿تعرُجُ[1] الملائكةُ والرّوحُ إليه في يومٍ كان مِقْدارُه خمسينَ ألفَ سَنَةٍ﴾.

إنّ في هذه السّمٰواتِ وفي هـذه الأرضِ مـن العجـائـبِ في تَكْـوينِهـا وتطوُّرِها ما يَقْتضي دُهوراً طِوالاً من الزمن. واللهُ لم يخلُقِ السّمٰواتِ والأرضَ في الأيامِ السّتّة ـ من أيامِ أرْضِنا، كما فَهِمَ اليَهودُ فجاء على لِسانهم في التّوراةِ الموجودةِ بأيدي الناس: « لأنّ في ستّةِ أيامٍ صَنَعَ الربُّ السماءَ والأرضَ والبحر وكلَّ ما فيها. وآستراحَ في اليومِ السابعِ (خروج ٢٠ : ١١). إنّ مبدأ « الأستراحة » مُخالِفٌ للمدركِ العِلْميّ الطبيعيّ في الوُجود، ذلك لأنْ بُطلانَ السببِ يُؤدّي إلى بُطلانِ المُسبَّبِ. أمّا في الإسلام فإنّ اللهَ « خالقُ العالمِ » لا يزالُ مَعَ العالم (٣٥ : ٤١، سورة فاطر): ﴿إنّ اللهَ يُمْسِكُ السّمٰواتِ والأرضَ أن تَزولا. ولَئِنْ زالتا إنْ أمْسَكَهُما مِنْ أحَدٍ من بعده[2]. إنّه كان حَليماً غَفوراً﴾.

---

(١) تعرج: تصعد.

(٢) إنْ (بكسر الهمزة وسكون النون): ما (حرف نفي). ـ ما أمسكهما من أحد من بعده (إذا زال القانون الذي يجعل الأشياء في مواضعها، اختلّ نظام العالم وفسد وزال).

والله «بَديعُ» السّمواتِ والأرضِ ـ أيْ مُبْدِعُها أو مُوجِدُها على غيرِ مِثالٍ سابقٍ ومن غيرِ مادّةٍ سابقة، لأنّ اللهَ خالقُ كُلِّ شيءٍ؛ ففي سورة البقرة (٢ : ١١٧): ﴿بديعُ السّمٰواتِ والأرضِ. وإذا قضى أمراً، فإنّما يقولُ له كُنْ فيَكونَ﴾. وفي سورة الأنعام (٦ : ١٠١): ﴿بديعُ السّمٰواتِ والأرضِ؛ أنَّى يكونُ له ولدٌ، ولم تكُنْ له صاحبةٌ[1]. وخَلَقَ كُلَّ شيءٍ، وهُوَ بِكُلِّ شيءٍ عليم﴾.

غيرَ أنّ السّمٰواتِ والأرضَ لم تكُنْ يومَ وُجُودِها كما هي الآنَ: نجوماً وجبالاً وبحاراً وأشجاراً وبَشَراً، بل كانتْ كُلُّها «مادّةً سابِحَةً» أو دُخانا، ففي سورة السَّجْدة (أو «فُصّلَتْ»): ﴿ثُـمّ آسْتَوى[2] إلى السماءِ وَهِيَ دُخانٌ، فقال لها وللأرضِ: آئتِيـا طَوْعاً أو كَرْهاً. قالتا: أتَيْنا طائعين * فقَضاهُنَّ سَبْعَ سَمواتٍ في يومَيْنِ وأوْحى في كلّ سماءٍ أمْرَها. وزَيَّنّـا السّماءَ الدُّنيا بمَصابيحَ وحِفْظاً؛[3] ذلك تقديرُ العزيز العليم﴾ (٤١ : ١١ ـ ١٢). وهذه السماءُ التي هي فَوْقَنا من نُجومٍ وغُيومٍ قائمةٌ بالقوانينِ التي وضَعَها اللهُ فيها: فارتفعتِ السّماءُ ولَزِمَتْ مكانَها (بكلِّ ما فيها) من غيرِ أعْمِدَةٍ تستقرُّ

---

(١) صاحبة: زوج (زوجة). ـ حينما قال المشركون الأوّلون إن لله «ولداً»، غفلوا عن أن ذلك يقتضي (في المنطق وفي الواقع) أن يكون له زوجة وأن يكون له (من قبل) أب وأمّ، وان ينشىء أسرة وأن يكون محتاجاً الى طعام وشراب وأن ينام ويمرض ويشفى من مرضه، الخ (حينئذ تبطل الوحدانية، ويصبح الله عندهم فرداً من أفراد البشر).

(٢) ثـمّ استوى الى السماء (اتّجهت قدرته الى السماء ـ التي كانت دخانا = سديماً = مادّة غازيّة) لتتطوّر الى ما أصبحت عليه. وحفظاً (لتبقى قائمة بالقوانين التي وضعت فيها وحماية لها من كلّ اضطراب).

(٣) محفوظة بقانون ثابت لا يخلّ.

عليها. ثـمّ إنّ ذلك الدُّخانَ الأوّلَ تطوَّرُ فتبَدّى في صُوَرٍ مُختلفاتٍ: سارتِ الكواكبُ في مَجاريها بحُسْبانٍ دقيقٍ وتشكَّلَ من سَيْرِها اللّيْلُ والنّهار (على أرضِنا، وفي الكواكبِ الأُخـرى) وتشكّلـتِ الرواسي (الجبـالُ) والأنهار والمُروج والحدائق وما يَنْبتُ فيها مِنَ الأشجارِ والأثمار ـ على آختلافٍ فيما بَيْنَها في الأسباب والنّتائج بِحَسْبِ أماكِنِها وفُصولِها، وبِحَسْبِ مَوْقِعِها من بَسيطِ الأرض. ففي سورة الرّعد (١٣: ٢ ـ ٤):

﴿اللهُ آلّـذي رَفَـعَ السّمٰـواتِ بغيرِ عَمَـدٍ تَـرَوْنَهـا، ثـمّ آسْتَـوَى على العَرْش[١]؛ وسَخّرَ الشّمسَ[٢] والقمرَ كُلٌّ يجري لأجَلٍ مُسمًّى؛ يُدَبِّرُ الأمرَ يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ توقِنون[٣] * وهُوَ آلّذي مَدَّ الأرضَ وجعَلَ فيها رَواسِيَ وأنهاراً؛ ومِنْ كُلِّ الثَّمراتِ جعَلَ فيها زَوْجَيْنِ آثْنَيْنِ؛ يُغْشي[٤] اللّيْلَ النهارَ. إنّ في ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يتفكّرون * وفي الأرضِ قِطَـعٌ مُتجـاوِراتٌ وجنّـاتٌ مـن أعنـابٍ وزَرْعٍ ونَخيـلٍ صِنْـوانٌ وغيرُ صِنوانٍ[٥] ـ يُسقي بماء واحدٍ ـ ونُفَضِّلُ بعضَها على بعضٍ في الأُكُلِ. إنّ في ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلون﴾.

---

(١) استوى على العرش (رمز السلطة والقوّة): أجرى العالم على القوانين الضابطة له.

(٢) وسخّر (ذلّل) الشمس والقمر (جعلهما يسيران سيرا منتظماً فيه نفع للناس بما في جريهما في فلكيهما من دقّة الحسبان).

(٣) أيقن الرجل: صدّق واقتنع بما صدّقه، ووثق به.

(٤) يغشي: يغطي.

(٥) الصنو: الشبيه، المثيل، الأخ. صنوان (بكسر النون الثانية: مثنّى)، صنوان (بضمّ النون الثانية: جمع). أشجار صنوان (بضمّتين): مجتمعة أصولها في منبت واحد) وغير صنوان (بكسرتين): متفرّقة ـ كلّ شجرة منها في منبت خاصّ بها.

إنّ كلَّ هذا آلّذي يحدُثُ في العالم المادّيّ يحدُثُ بالقوانينِ التي وَضَعَها اللهُ فيها، أو بما يُسَمّى في أيامِنا بالقوانينِ الطّبيعيةِ لأنّه يَجْري في عالمِ الطَّبيعة ويَتَناول المَظاهرَ الطبيعيّةَ، كما نُسَمّي عدَداً من القوانينِ قوانينَ آجتماعيّةً أو قوانينَ إنسانيّةً لِأنّها تَتعلّقُ بالمُجتمعِ آلّذي يَعيشُ فيه الإنسانُ أو تَتَعلّق بالإنسان. وجميعُ هذه القوانينِ قوانينُ إلّهيّةٌ، حينما ننظُرُ إليها من حيثُ القُوّةِ التي فَرَضَتْها في عالمِ الطّبيعة وفي عالم الآجتماع الإنسانيّ. وربّما تساهَلْنا حيناً في التَّسمِيَة فقُلْنا هذه قوانينُ حُكوميّةٌ أو رَسميّةٌ أو مَدَنيّة أو جَزائيّةٌ جِنائيّةٌ أو دَوْليّة، وربّما قُلْنا هذه قوانينُ رُومانيّة أو إنكليزيّة أو فرنسيّة بِحَسْبِ الواضعِ الحاليّ لها أو بِحَسْبِ الغاية منها عند التّطبيق في المحاكم. وكلُّ هذه القوانينِ ـ برُغْمِ آختلافِ أسمائها ـ مُتَوارَثَةٌ أو مأخوذٌ بعضُها عن بعضٍ.

من أجلِ ذلك، إذا نحنُ سَمّيْنا القوانينَ الطبيعيّة (بمعناها العَصريّ) قوانينَ إلّهيّةً (بالمعنى الإسلاميّ) لم نفعَلْ أكثرَ من رَدِّ الأسماءِ الموضوعة إلى الآسْمِ الأصْليّ لها. ثـمّ إنّ لنا من هذه التّسمِيَةِ وجهاً آخرَ هو أنّ هذه القوانين الالّهيّةَ قوانينُ جازمةٌ لا تَتبدّل ولا تَتَحوّلُ عن فِعْلها وعنِ الغـايـة منها، بخِلافِ القوانينِ الوَضْعيةِ ـ ولو كانت تتعلّقُ بعالمِ الطبيعة ـ فإنّها تُعَدّلُ وتُبَدّلُ وتُلْغى أحياناً. والخطأ في ذلك ليسَ في القانونِ الطّبيعيّ آلّذي هو في أصل الوَضْع قانونٌ إلّهيّ، بل في فَهْمِ الإنسانِ الحاصلِ من مُلاحظة فِعْلِ هذا القانون. كان عُلماءُ الرِّياضيّاتِ في اليونان [1] من أمثالِ أُقليدِسَ

(١) أي الذين كتبوا باللغة اليونانيّة (إنّ بطليموس، مثلاً، كان مصرياً، وكان فرفوريوس =

صاحبِ الهَنْدسة (ت ٢٧٥ قبلَ الميلاد) وبَطْلَيْموسَ القَلوذي صاحبِ كتاب المِجَسْطي في الرّياضيّات والفلك (ت نحو ١٧٠ بعدَ الميلاد) يَرَوْنَ أنّ الإبصارَ يكونُ بخُروج نـورٍ من العين يُحيط بالأشياء فنُبْصِرُها نحنُ. وجاء في اليونانيّينَ أنفُسِهم علماءُ في الفيزياء (أو الفيزيقا) من أمثالِ ذيموقريطوس (٤٦٠ ـ ٣٧٠ ق م.) وأرِسْطو (ت ٣٢٢ ق. م.) ففَنّدوا هذا الرأيَ وقالوا: إنّ الرُّؤيَةَ أوِ الإبصارَ يكونَ بآنْعكاسِ شَبَحٍ عنِ الجِسم المُبْصَرِ إلى العينِ. وطال آختلافُ القُدماء وأهلُ العُصور الوُسْطى في ذلك حتّى جاءَ عُلماءُ الإسلامِ من أمثالِ ابنِ سينا (ت ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧ م) وابنِ الهَيْثم (ت ٤٣٠ هـ) وأثْبَتا بالبراهينِ الهندسيةِ أنّ الإبصار إنّما يكونُ بآنعكاس الأشباح عنِ الأجسام المَرْئيّةِ إلى العينِ البَشَريّة. وهُنالك قوانينُ طبيعيّة تبدّلَتْ في الكُتُب، لا لأنّ تلك القوانينَ نَفْسَها قد تَغَيّرتْ أو كانتْ خطأً فصُحِّحَتْ، بل لأنّ الإنسانَ قد خُدِعَ عن فِعْلِها الصحيحِ فأخْطأ فَهْمَها.

وليس فيِ القوانينِ الطبيعيةِ هذه آستبدادٌ (تعَملُ حيناً ويبطُلُ عَمَلُها حيناً آخَرَ)، وليس فيها خطأٌ (فلقد جَلَّ واضِعُها عنِ الخطأ). ولكنّها سُنّةٌ (طريقةٌ) ثابتةٌ ومِنهاجٌ مُتّسق. وقد جاءَ في سورة فاطِر (٣٥: ٤٢ ـ ٤٣): ﴿... فلـمّا جاءهُمْ نذيرٌ ما زادَهُمْ إلاّ نُفوراً * آستِكْباراً في الأرضِ ومَكْرَ السّـيءِ. ولا يُحِيـقُ الـمَكْـرُ[1] السيّءُ إلاّ بـأهلِـه. فهــل ينظُــرون إلاّ

= الذي اشتغل بفلسفة أرسطو صورياً ـ من مدينة «صور» على الشاطىء الشرقيّ من البحر الأبيض المتوسّط)..

(١) مكر: خداع، احتيال. «مكر السّيء» (المكر السّيء، أو مكر الرجل السّيء الشرّير). يحيق: يحيط (يرجع بالأذى على أهله).

سُنّتَ[1] الأوّلينَ؟ فَلَنْ تَجِدَ لسنَّتِ اللهِ تبديلاً، ولن تَجِدَ لِسُنْتِ الله تحويلاً﴾ (راجع ٣٣ : ٦٢، سورة الأحزاب؛ ٤٠ : ٨٥، سورة الجاثية؛ ٤٨ : ٢٣، سورة الفتح).

واللهُ سُبحانَه وتعالى قادرٌ على أن يُنْبِتَ النَّبْتَ ويُخْرِجَ ثَمَرَه بإرادتهِ وأمْرِهِ في كلّ مكانٍ شاءَ وفي كلّ فَصْلٍ شاءَ، ولكنّه لا يفعَلُ ذلك، لأنّ اللهَ هُوَ الذي وَضَعَ القانونَ في العالمِ. وآستمرارُ القانونِ على سَمْتِهِ وفي مِنهاجِهِ وحُسبانِهِ وزمانِهِ من إرادةِ الله، ولا يُمْكِنُ لإرادةِ الله أنْ تُناقِضَ إرادةَ الله أو تُخالِفَها. من أجل ذلك نَقْرأ في الكتاب العزيز (٣٩ : ٢١، سورة الزُّمَرِ): ﴿أَلَمْ تَرَ أنّ اللهَ أنزَلَ مِنَ السماء ماءً فَسَلَكَهُ يَنابيعَ في الأرض ثم يُخْرِجُ به زَرْعاً مُخْتَلِفاً ألوانُه؛ ثمّ يَهيجُ فتراه مُصْفَرّاً ثمّ يكونُ حُطاماً. إنّ في ذلك لذِكْرَى لِأُولي الالباب﴾. وفي الكتابِ العزيزِ آياتٌ كِثارٌ تقُصُّ قِصّةَ القوانينِ الطبيعيةِ في عالَمِ الطّبيعة، منها في سورة النُّور (٢٤ : ٤٣ - ٤٥): ﴿ألم تَرَ أنّ اللهَ يُزْجي[2] سَحاباً ثمّ يُؤلِّفُ بَيْنَه ثمّ يجعَلُه رُكاماً، فترى الوَدْقَ يخرُجُ من خِلالِه. ويُنَزِّلُ من السماء مِنْ جِبالٍ فيها من بَرَدٍ[3] فيُصيبُ به من يشاء ويَصْرِفُه عَمّنْ يشاءُ، يكادُ سَنا بَرْقِه يذهَبُ بالأبصار * يُقَلِّبُ

---

(١) كلمة «سنّت» رسمت هنا في هذه الآية (ثلاث مرّات) بالتاء المبسوطة. وتهجئتها بالتاء المقبوضة (المربوطة): «سنّة».

(٢) يزجي: يبعث، يرسل.

(٣) ركاما (بعضه فوق بعض): كتلا متراكبة. الودق: المطر. من جبال........ يصيب به (بأذى) من يشاء ويصرفه (يبعده) عمّن يشاء. يكاد سنا (لمعان) برقه (البرق الحادث في السحاب) يذهب بالأبصار (يفقد العيون قوّة نظرها لشدّته).

اللهُ اللّيْلَ والنهارَ، إنّ في ذلك لَعِبْرةً لِأُولي الأبصار * واللهُ خَلَقَ كُلَّ دابّةٍ[1] من ماءٍ، فمِنْهُمْ من يَمْشي على بَطْنِهِ ومنهم من يمشي على رِجْلَيْنِ ومنهم من يمشي على أرْبَعٍ. يخلُقُ اللهُ ما يشاء. إنّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ﴾(راجع أيضاً ٢٢ : ٦٣، ٣٥ : ٩).

وهذا الذي خلقَهُ اللهُ ثـمّ ذلك الذي أرادَه اللهُ أن يَجْرِيَ في العالَمِ كان مُقَدَّراً مُنْذَ الأزلِ بالقوانينِ التي وُضِعَتْ له. ففي الكتاب العزيز: ﴿وخلَقَ كُلَّ شيءٍ فقَدّرَه تقديراً﴾ (٢٥ : ٢، الفرقان)؛ ثـمّ ﴿قد جعَلَ اللهُ لِكُلِّ شيءٍ قَدْراً﴾ (٦٥ : ٢، الطلاق) ثـمّ ﴿وكُلُّ شيءٍ عِنْدَهُ بِمِقدارٍ﴾ (١٣ : ٨، الرعد). وفي سورة الحجر (١٥ : ٢١): ﴿وإنْ مِنْ شيءٍ إلاّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ، وما نُنَزِّلُهُ إلاّ بِقَدَرٍ معلومٍ﴾.

هذا عامّةً، أمّا خاصّةً، فقولُه تعالى، مَثَلاً (٦ : ٩٦، الانعام): ﴿فالِقُ الإصباحِ، وجَعَلَ اللّيْل سَكَناً والشّمسَ والقمرَ حُسْباناً؛ ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ﴾؛ ثـمّ قولُه تعالى: ﴿والشّمسُ تَجْري لِمُسْتَقَرٍّ لها[2]، ذلك تقديرُ العزيز العليم * والقمرَ قدّرْناه مَنازلَ حتّى عادَ كالعُرجونِ القديمِ * لا

---

(١) الدابّة: ما يدبّ على الأرض، يتحرّك بارادته؛ الحَيَوان (ما فيه حياة وحركة اراديّة، والإنسان داخل في هذا التعريف).

(٢) فالق الاصباح (نور الصباح): الذي يشقّ (يحدث، يفعل) نور النهار. سكنا: هدوءاً (وقت راحة الأبدان من تعب العمل في النهار). حسبانا (للحساب، لمعرفة الأوقات). والشمس تجري لمستقرّ لها (لمدى لا تتجاوزه): في فلك مخطوط لها. والقمر قدّرناه منازل (جعلناه ينتقل في السماء) في أماكن معيّنة (يختلف فيها مقدار ضوئه بحسب وجوده فيها ليلة بعد ليلة). العرجون: عنقود البلح. كالعرجون القديم (يابساً نحيلاً)

الشّمسُ يَنْبَغي لها أن تُدْرِك القمرَ، ولا اللّيْلُ سابقُ النّهارِ، وكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحون﴾ (٣٦ : ٣٨ ـ ٤٠ ، يَسَ).

وهذا الذي يَجْري في عالَمِ الطبيعةِ يجري مِثلُه في عالَمِ العُمرانِ (في الاجتماع الإنساني). إنّ لِلدُّوَلِ ولِلأُمَمِ أعماراً وأوْقاتاً مُعيّنةً، ففي الكتابِ العزيز (١٥ : ٤ ـ ٥ ، سورة الحجر): ﴿وما أهْلَكْنا من قَرْيةٍ إلاّ وَلَها كِتابٌ معلوم[١] * ما تَسْبِقُ من أُمّةٍ أجلَها وما يَسْتأخِرون﴾. كذلك كان سَيْرُ التاريخِ مُنْذُ كان البشرُ في هذه الأرضِ. هذا السَّيْرُ المُشاهَدُ في الاجتماعِ الإنسانيِّ قد نَبّه اللهُ تعالى عليه فقال (٣٥ : ٤٤ ـ ٤٥ ، سورة فاطر): ﴿أوَلَمْ يَسيروا في الأرْضِ فيَنْظُروا كيفَ كان عاقبةُ الذين من قَبْلِهِمْ، وكانوا أشَدَّ منهم قُوّةً؟ وما كان اللهُ لِيُعْجِزَه من شيءٍ في السّمواتِ ولا في الأرض؛ إنّه كان عليماً قديراً * ولَوْ يُؤاخِذُ اللهُ الناسَ بما كَسَبوا ما تَرَكَ على ظَهْرِها من دابّةٍ. ولكن يُؤَخِّرُهُمْ إلى أجَلٍ مُسَمًّى، فإذا جاءَ أجَلُهُم فإنّ اللهَ كانَ بعِبادِهِ بصيراً﴾ (راجع ٣٠ : ٩ ، ٤٠ : ١١ ، ٨٢ ، ٤٧ : ١٠). والدُّول التي تعيشُ وتَسْتولي على غَيْرِها هي الأُمَمُ الصالحةُ للحياة، ففي سورة الأعراف (٧ : ١٢٨): ﴿.... إنّ الأرض للهِ يُورِثُها من يشاءُ مِنْ عباده. والعاقبة للمُتّقين﴾. غيرَ أنّ الأرْضَ يَرِثُها الصالحون ـ إنّ ذلك حقٌّ لهم بالقانونِ الطّبيعي وبالقانون الاجتماعيّ، قال الله تعالى: ﴿ولَقَدْ كَتَبْنا في الزَّبورِ من بعدِ الذِّكْرِ أنّ الأرضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصالحون﴾ (٢١ : ١٠٥ ، سورة الأنبياء).

هنا يأتي الكلامُ على مَدْرَكِ المعجزاتِ.

---

(١) كتاب: أجل (عمر، مدّة تعيش الدولة فيها).

إذا كانَ كُلُّ شَيْءٍ في العالَمِ الطَّبيعيِّ وفي الأجتماعِ الإنسانيِّ يخضَعُ لِقوانينَ جازمةٍ ومَناهجَ مَخْطوطةٍ، فما مَعْنى الكلامِ على المُعجزات؟

المُعجزة عندَ الأُمَمِ التي كانتْ قبلَ الإسلامِ كانتْ تَعْني العملَ الخارِقَ لِقوانينِ الطبيعة. وفي التوراة أشياءُ كثيرةٌ من ذلك، مِنْ أشْهَرِها وُقوفُ الشّمسِ والقمرِ عنِ المَسير حتّى تستمرَّ مَعركةٌ يستطيع بنو اسرائيل فيها أنْ ينتقموا من أعدائهم. جاء في التوراة (يشوع ١٠ : ١٢ - ١٣): (حينئذٍ كَلَّم يشوعُ الرّبَّ يومَ أسْلَمَ الرّبُّ الأموريّينَ [١] أمامَ بني إسرائيل وقالَ أمامَ عيون إسرائيلَ: يا شمسُ: دومي على جَبْعونَ [٢]، ويا قمرُ، على وادي أيّلونَ. فدامتِ الشّمسُ ووقفَ القَمَرُ حتّى انْتَقَمَ الشَّعْب من أعدائِهِ).

لا شكَّ في أن القولَ بالمُعجزات أمرٌ وَثَنيٌّ يُخالفُ الوَحْدانيّة لأنّه يُشْرِكُ الانسانَ في أفعالٍ هي للهِ وحدَه أو يُبْطِلُ قوانينَ أقرّها اللهُ في هذا العالم. ثمّ إنّ القول بالمُعجزات مُخالفٌ للعقل وللعلم، فليس من المألوفِ في العلم ولا من المقبول في العقل أن تستطيعَ قُدرةُ إنسانٍ أو تَفرِضَ إرادةُ إنسانٍ عملاً من الأعمال التي خَصَّ اللهُ بها نفسَهُ وأصبحتْ قوانينَ تجري عليه أمورُ العالم.

من أجل ذلك لم يَقبَلِ الإسلامُ المُعجزاتِ الخارقةَ للطبيعة (وان كان نفرٌ من المتأخّرين قد نَسَبوا إلى نفرٍ من المسلمين مُعجزاتٍ وكراماتٍ تخرُقُ الطبيعة). وما دُمنا نحن هنا قد قَصَرنا الاستشهادَ (إلى الآنِ) على ما وَرَدَ

(١) الأموريون شعب أعرابي قديم.

(٢) جبعون وأيلون.......

في القُرآن الكريم)، فلا نَعْرِضُ لِروايات أولئك النَّفَر المتأخرين في الزمن. ولكنّ هذا لا يمنَعُ أنْ يكونَ هنالك مُعجزاتٌ اجتماعيةٌ. إنّ شِعْرَ أبي تَمّامٍ والمُتنبّي والمعرّيِّ وأحمدَ شوقي يَعْجِزُ عن مِثلِه النَّفَرُ الكثيرون. وإن انتصار خالدِ بنِ الوليدِ على الروم في مَعْرَكة اليرموكِ كان مُعجزةً عسكريّةً. إنّ الروم كانوا أكثرَ عدداً وأحسنَ عُـدّةً[1] وكـانـوا يُقـاتلـون في بلادٍ تحت سَيْطرتِهمْ يَعْرِفون مَداخلَها ومخارجَها، وكان قائدَ الروم في تلك المعركةِ المَلِكُ هِرَقْلُ الذي كان قد تَمرّسَ بالحُروب المختلفة مَعَ الأمم المُختلفة. ومَعَ ذلك فقد هَزَمَه خالدُ بنُ الوليد الذي لم يكُنْ يَعْرِفُ إلاّ المعاركَ المَحَلِّيّةَ في بلادِ العرب[2].

ومُحَمّدٌ رسولُ الله خاض معاركَ كثيرةً. وقدِ انْتَصَر في عددٍ كبيرٍ منها، وهُزِمَ جَيْشُه في معركةِ أُحُدٍ (في السَّنة الثالثة للهِجرة، ٦٢٥ م) وفي مَعْرَكة حُنينٍ (السَّنة الثامنة للهِجرة). ولقد كانتِ الهزيمة في كِلْتا المَعْرَكَتين لِأنّ المُجاهدين مَعَهُ قد خالفوا أمْرهُ في ترتيب المعركة. فلـمّا فَعَلوا ذلك جَرى عَلَيْهِمُ القانونُ العاقل الذي يجعَلُ لِكلٍّ أمرٍ قواعدَ ومِنهاجاً.

وجرى على يَدِ مُحمّدٍ رسول الله مُعجزاتٌ اجتماعيّةٌ (حقائقُ إنسانيّةٌ لم يكُنْ مَجيئُها أو مجيءُ مِثْلِها مُمْكِناً على يدِ غيره من البشر). لقدْ أيّد اللهُ مُحمداً بهذه المُعجزات. إنّ القُرآن الذي أُوحي إليهِ مُنْذ نَيّفٍ وأربعةَ عَشَرَ

---

(١) العدّة (هنا): السلاح وآلات الحرب.

(٢) بلاد العرب: شبه جزيرة العرب (في الحروب بين القبائل على مستوى ضيّق: بعدد قليل من المحارين والمدّة يسيرة: يوما أو يومين).

قرناً ما زال محفوظاً كَلِمَةً كلمةً، وحَرْفاً حرفاً، ممّا لا نَعْرِفه عن كتابِ آخرَ في التاريخ ـ من الكُتُب التي جاءت إلى الناس ومن كثيرٍ من الكُتُب التي وَضَعها الناسُ ـ وحينما نقول: «ما زال محفوظاً كَلِمَةً كلمةً وحرفاً حرفاً»، لا نَقْصِدُ بذلك لَفْظَه فقَطْ، بل نَقْصِدُ بذلك معناه وشرائِعَه أيضاً وما فيه من قوانينَ طبيعيّةٍ واجتماعيّةٍ.

ثمّ إنّ القُرآنَ الكريمَ قد حَفِظَ اللُّغةَ العربيّة حيّةً مَحْكيّةً مكتوبةً مقروءةً مُنْذُ أقدمِ العصور التي وصلَ إلينا شي منها. جاء الشاعرُ الجاهليُّ تأبّطَ شـرّاً إلى الحياة قَبْلَ خمسةَ عَشَرَ قرناً وقال عن نفسِه:

حمّالُ ألْـوِيـةٍ، شهّـادُ أنْـديَـةٍ، قوّالُ مُحْكَمَةٍ جوّابُ آفـاقِ؛[1]
لَتَقْرَعَنَّ عَلَـيَّ السِّـنَّ مـن نَـدَمٍ، إذا تذكَّرتَ يوماً بعضَ أخلاقـي.[2]

وقال عَنْترةُ العبسيُّ يُخاطبُ ابنةَ عمّهِ وحَبيبَته عَبْلَةَ:

ولقد ذَكَرتُـكِ والرِّمـاحُ نـواهـلٌ مِنّي، وبيضُ الهِند تقطُرُ من دَمي.[3]
فـوَدِدتُ تقبيـلَ السيـوفِ لأنّهـا لَمَعَتْ كبـارقِ ثَغْـرِكِ المُتَبسِّـم.

إنّ هذا ـ بقاءَ اللغةِ العربية حيّةً على هذا النَّمَط ـ مُعجزةٌ. إنّ التوراةَ لم تحفَظِ اللغةَ العِبريّةَ، ولا حَفِظَ الأنْجيلُ اللغةَ اليونانيّةَ واللغةَ الآرامية كما حَفِظَ

(١) حامل لواء: سيّد في قومه، قائد في المعارك. شاهد أندية (جمع ناد: مجلس القوم): من رؤساء القوم وأصحاب الرأي فيهم. قوّال (أقوال) محكمة: صحيحة، منطقية (حكيم، مفكّر). جوّاب آفاق: يطوف في البلدان المتباعدة (في خدمة قومه أو في طلب الحكمة والمعرفة).

(٢) قرع فلان سنّه: ندم.

(٣) نهل: شرب. بيض الهند: السيوف.

القُرآنُ لغةَ العَرَبِ. إنّ عِبريّة اليومِ ليستْ عِبريةَ العهدِ القديمِ، ولا اليونانيّةُ اليومَ هي يونانيّةُ الإلياذةِ[١] أو يونانيةُ أفلاطونَ[٢]. ثمّ نحن اليومَ نَعْرِفُ ثمانيةَ آلافِ صَحابيٍّ (من الذين عاصروا الرسولَ وعَرَفوه وكانوا مَعَه مُدّةً طويلةً أو قصيرةً) ونَعرِفُ تَراجِمَهم (تاريخَ حياتِهم) وشيئاً كثيراً من أحوالهم وأعمالهم ومن أشْعارهم أو خُطَبِهِم أو من أقوالهم، بينَما نحْنُ لا نَعْرِفُ بالتدقيق زَمَنَ وجُودِ موسى في التاريخِ ولا نعرفُ صِلَةَ التَّوراةِ المَوْجودةِ بأيدي الناسِ بهِ.

ومن المُعجزاتِ الاَجتماعية التي جَرَتْ على يدِ مُحمّدٍ رسولِ الله أن الدين الذي جاء بهِ من عِندِ الله قد تَمّتِ الدعوةُ إليه تاريخاً وتشريعاً في زَمنهِ هو.

وهنالك عددٌ من هذه المُعجزات الاَجتماعيّة التي خُصّ بها مُحمّدٌ رسولُ الله ليست هذه الصَّفَحاتُ مكاناً لِاَسْتِقْصائها. ولكنّ القوانينَ الطبيعيّةَ لم تُخْرَقْ لِمُحمّدٍ رسولِ الله، ذلك لأنّ تلك القوانينَ الطبيعيّةَ قوانينُ إلّهيةٌ. ولقد ظنّ نَفَرٌ من الذين عاصروا مُحمّداً رسولَ الله أنّه لن يموتَ أو لن يُقْتَلَ (لِقُرْبِ عَهْدِهم في ذلك الحين بالجاهلية أو لحبّهم لهذا النَّبيِّ الكريم) فَنَزَلَتِ الآيةُ التالية (٣ : ١٤٤، سورة آل عمران): ﴿وما مُحمّدٌ إلاّ رسولٌ قد خَلَتْ[٣] من قبله الرُّسُلُ؛ أفإنْ ماتَ أو قُتِلَ اَنْقَلَبْتُمْ على أعقابِكُمْ[٤]؟ ومَنْ

---

(١) الإلياذة ملحمة تروي حروب اليونان القبلية القديمة كان ينشدها مغنّ أعمى يدعى هوميروس (القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد). هي تنسب إلى هوميروس هذا، والغالب أنّها من نظم عدد من الشعراء.

(٢) فيلسوف يونانيّ (ت ٣٤٧ ق.م.) اشتهر بحسن المنطق وبأسلوب جميل.

(٣) خلا: مضى، مرّ في الزمن.

(٤) العقب (بفتح فكسر): مؤخّر القدم. انقلب: رجع. انقلب على عقبيه: ارتد إلى الضلال =

يَنْقَلِبْ على عَقِبَيْه فلَنَ يضُرَّ اللهَ شيئاً. وسيَجْزي اللهُ الشاكرين﴾.

* * *

والقوانينُ الآجتماعيّةُ تُشارك القوانينَ الطبيعيّةَ أحياناً في نتائجها. انّ تحريمَ الخَمْر وتحريمَ الصِّلاتِ غيرِ المشروعةِ بينَ الرَّجُل والمرأة وتحريمَ القتل من القوانينِ الآجتماعيّة التي قُصِدَ بوَضْعِها صلاحُ البِيئة الآجتماعية (صِحّةُ الحياة الإنسانية في هذه الدنيا)، ولكنّها تَتْرُكُ في جسمِ الفرد وفي جسم الأُمّة أيضاً آثاراً مُؤلِمةً أو مُؤذية أو مُبَدِّلةً لنظام الحياة الإنسانية في الفرد وفي الجماعة.

ولهذه القوانينِ الإنسانية ـ أو الشرائعِ ـ جانبانِ أحدُهما يتعلّق بواضعِ تلك القوانينِ، وثانيهما يتعلّقُ بالأشخاصِ والجَماعاتِ التي تُوضَعُ لَهُمْ تلك القوانينُ الآجتماعيّة أوِ الشرائعُ. وواضعُ القوانينِ الآجتماعيّة هو اللهُ أيضاً (وإن كان الإنسان قدِ آدّعى هذا الفضلَ لنفسِه في عصورِنا الحديثة). أمّا في الإسلام فإنّنا لا نَزَال نُسمّي واضعَ هذه الشرائعِ «الشارعَ» (أي اللهَ. وربّما أطْلَقْنا آسْمَ «الشارع» أيضاً على مُحمّدٍ رسولِ الله، لأنّنا عَرَفْنا تلك الشرائعَ من طريقهِ ولأنّه هو الذي عَلّمنا إيّاها. ومَعَ ذلك فإنّ الشارعَ على الحقيقةِ هو اللهُ. وحينما نُطْلِقُ على محمّدٍ رسولِ الله آسْمَ الشارعِ فإنّنا نُطْلِقُه عليه على المجاز).

وهذه القوانينُ الاجتماعيّة مكانُها الصحيحُ في الفصل التالي: «الإنسانُ في الإسلام». ولكنّ الكلامَ على واضِعها الحَقيقيّ يجب أنْ يأتِيَ في هذا الفصل.

= (الكفر) بعد أن كان على الهدى (الإسلام).

أقدَمُ ما يَعْرِفُ الإنسان من القوانين الاجتماعية «الوصايا العَشْرُ» التي تَرِدُ في التَّوراة والتي أُخِذَتْ من شريعةِ حمورابي، وكانت هذه بدَوْرِها مأخوذةً من شَرائعَ أعرابيــةٍ أو غيرِ أعرابيّة سَبَقَ واضِعوها عَصْرَ حمورابي. والقوانينُ الاجتماعية أو الشرائع إنّما هي أعْرافٌ استَحسَنَها البشرُ في حياتِهِمُ الاجتماعيةِ فجَعَلوا منها «شريعةً» (طريقاً أو منهجاً للحياة الصالحة السليمة الهادئة الهانئة). كان الإنسان، في عهدِ حَمورابي، لا يزالُ يعتقدُ أن هذه الشرائعَ إلّهية. من أجل ذلك نَرى في الآثار القديمةِ صورةً لحمورابي تُمَثِّلُه يَتناولُ تلك الشَّرائعَ من يدِ الإلّهِ شَمْس (فيما كانوا يزعُمون).

هذه الشرائعُ القديمةُ كانتْ باتّةً (مَبْنِيّةً على الأمرِ أوِ النَّهْيِ): «لا تقتُلْ ـ لا تَزْنِ ـ لا تَسْرِق....» (خروج ٢٠: ١٣، راجع تثنية ٥: ١٧).

في هذا النَّهْيِ الباتِّ شي من الحَرَجِ على الباحثِ العاقل. إذا نحن قَبِلْنا أن تكونَ هذه الوصايا (وبهذا اللَّفظ) من عندِ الله، ثـمّ رأينا أُناساً كثيرين لا يَنْتَهون بها، فمعنى ذلك، في المنطق والواقع، أن إرادةَ الإنسانِ غَلَبَتْ إرادةَ الله؛ أو رأينا (وهذا أشدُ وقعاً على النَّفْس المؤمنةِ) أن وصايا الله (أو أوامرَه ونواهِيَه) لا يُعْمَلُ بها، إمّا لأنّها غيرُ صالحةٍ للعملِ بها أو لأنّها لم تَفْهَمِ البِيئةَ الإنسانيّةَ فكَلّفَتِ البَشَرَ أموراً لا طاقةَ للبشر بها. والمَخْرَجُ العاقل

---

(١) أعرابيّة: قديمة ترجع إلى أيام الشعوب التي تجتمع في النسب مع العرب (ويقال لهم خطأ: ساميّون).

(٢) العرف (بالضمّ): العادة الجميلة المشهورة في القوم وتقوم مقام القانون في السلوك الاجتماعيّ وفي الجزاء (الثواب والعقاب).

من هذا المأزقِ (أوِ الخِيارِ ذي الشَّرَّيْنِ) أنْ نَقولَ إنّ هذه الشرائعَ التي هي «نصائحُ نافعةٌ» قد صاغها هذه الصِّياغةَ بَشَرٌ مِثْلُنا.

وفي الإنجيل (متّى ٥: ٢١ - ٢٦، راجع رسالة إلى أهل رومية - الى الرومانيّين ١٣: ٩ - ١٠) مُحاولةٌ لِتَسْهيل الوصايا العَشْر كُلِّها بنصيحةٍ واحدةٍ «بالمحبّة». إنّ هذا التسهيلَ فلسفةٌ جيلةٌ، ولكنّه ليسَ تشريعاً ولا أساساً لِتشريعٍ.

إنّ الانجيل لم يَرْضَ عن «صيغة» الوصايا العَشْرِ، فقد جاءَ فيه (متّى ٥: ٢١ - ٢٢): «سَمِعْتُمْ أنّه قيل للقدماءِ: لا تقتُلْ، ومَنْ قَتَلَ يكونُ مستوجبَ الحُكْم[1]. وأمّا أنا فأقولُ لكم: إنّ كلّ من يَغْضَبُ على أخيه يكونُ مستوجبَ الحُكم». وهذا أيضاً ليسَ تشريعاً.

أمّا الإسلامُ فجاء، في هذه الأماكن كُلِّها وفي غيرِها أيضاً بتَشْريع عَمَليّ يُمْكِنُ تطبيقُه في الحياة الاجتماعية القائمة على البشر. لقد جَعَلَ الإسلامُ للقتل تصنيفاً وللزِّنا أحوالاً وللسَّرِقةِ درجاتٍ ثـمّ جَعَلَ لكلّ صنفٍ من القتل ولكلّ حالٍ من الزِّنا ولكلّ دَرَجةٍ من السَّرِقة عِقاباً.

ثم في التوراة (خروج ٢١: ٢٤، راجع اللاويين ٢٤: ٢٠، التثنية ١٩: ٢١): «وإنْ حَصَلَتْ أذِيّةٌ، تُعْطِي نفساً بنفسٍ، وعَيْناً بعَينٍ، وسِناً بِسَنٍ، ويَداً بِيَدٍ، ورِجْلا برِجْل، وكَيّاً بكيٍّ، ورَضّاً برَضّ».

إن هذا المدركَ في القِصاص «انتقامٌ» - والقوانينُ تُوضع لِردّ الحقّ إلى

---

(١) مستوجب الحكم: يستحقّ أن يحكم عليه بالعقاب أو القتل أو التعذيب.

أصحابه أو لإصلاحِ الـمُجرمين ـ. وفي هذا القصاص: عيناً بعين وسِناً بسَن «ظُلم» شديدُ وآستحالةٌ في التَّنفيذ (وما فائدةُ قانونٍ يُوضَعُ ثـمّ لا يكونُ ثَمّةَ سبيلٌ إلى تنفيذِه؟). ولقد تلاعبَ شكسبيرُ في روايته «تاجرِ البُندقية» على هذا المَدْرك. آشترط المُرابي اليَهوديُّ على مَدينِهِ النَّصراني أنْ يأخذَ «رِطْلاً» من لحمه، إذا هو عَجَز عن أداء الدَّيْنِ في وَقْتهِ. وعَجَزَ المَدينُ عن وَفاء الدَّيْنِ في الوقت المُعيَّن، ووَقَفَ الفريقانِ أمامَ القاضي ـ وكان القاضي (أو شكسبيرُ الذي تَلَبّس شخصيّةَ القاضي) ذَكِيّاً ـ فقال القاضي للمُرابي اليَهوديِّ: أنتَ آشترطتَ «رِطْلاً» من لحم هذا المَدين. وأنا قد حَكَمْتُ لك بذلك على شرط: لا يجوزُ أن يَجْريَ من غريمِك دَمٌ (لأنّ الدَّمَ لم يكُنْ في شَرْطِكَ الأوّلِ) ـ وعليك أن تَقْتَطِعَ حقَّكَ من لحمِ غَريمِكَ مرّةً واحدة «رِطْلاً تامّاً»، لا أكثرَ من رِطْلٍ ولا اقلَّ من رِطْلٍ.

والإنجيلُ أيضاً لم يَرْضَ عن هذا القانون: عينٍ بعينٍ وسّنٍ بسّنٍ. ففي إنجيل متّى (٥ : ٣٨): «سَمِعْتُمْ أنّه قيل: عينٌ بعَينٍ وسِنٌّ بسِنٍّ. وأنا أقولُ لكم: لا تُقاوموا الشَّرّ. بل من لَطَمَكَ على خَدّكَ الأيمنِ فحَوِّلْ له الآخَرَ أيضاً....».

وفي القرآنِ الكريم جاء شيء من اللّوْمِ لليهود في هذا الشأن، ففي سورة المائدة يقولُ اللهُ تعالى (٥ : ٤٤ ـ ٤٥): ﴿.... فلا تَخْشَوُا النـاسَ، وآخْشَوْني. ولا تَشتروا بآياتي ثَمَناً قليلاً. ومَنْ لم يَحْكُمْ بما أنْزَلَ اللهُ فأُولئكَ هُمُ الكافرون * وكَتَبْنا عليهم[1] فيها[2] أنّ النَّفْسَ بالنَّفس والعَيْنَ بالعَيْنِ

(١) عليهم: على اليهود. (٢) فيها: في التوراة.

والأنفَ بالأنفِ والأُذُنَ بالأُذُنِ والسِّنَّ بالسِّنِّ، والجُروحَ قِصاصٌ. فَمَنْ تَصدَّق به[1] فَهُوَ كَفّارةٌ له. ومَنْ لم يحكُمْ بما أنزل الله فأولئك هُمُ الظالمون﴾.

في هذه الآيةِ الكريمةِ إشارة إلى ما كان عند اليهود ثـمّ نُصْحٌ لهم بأنْ يسلُكوا مَسْلَكَ الرَّحمة في العقاب. إنّ قَلْعَ عينِ الـمُذنبِ ـ في مُقابلِ قَلْعـهِ عينَ إنسانٍ آخَرَ ـ عمداً أو خطأً ـ تعذيب للمذنب وتشويه وإفساد في الاجتماع الانساني.

نشأة علم الكلام في الإسلام

إنّ «الدِّينَ» ـ في مكانتهِ من المُجتمع الإنسانيّ ـ إيمانٌ وآطمئنانٌ، فليس بمقدور كلّ إنسانٍ أن يتعرّضَ لمظاهرِ العالَمِ المُشاهدةِ ولَمداركهِ الغائبةِ عن حِسِّنا بالعقل والمَنْطِق. ولكنّ نفراً من الناس أرادوا أن يُدخلوا الآطمئنانَ على أنفُسِهِمْ من طريق عُقولهم ومَنْطِقهم. إنّ الذين دخلوا في الإسلام من المشركين الوَثنيّين كالفُرْسِ مثَلاً ومن اليهود ومن الآراميّين النّصارى خاصّة ومن النّصارى الذين كانوا على المذاهب البيزنطيّة والكاثوليكيّة من أولئك الذين تعوّدوا رُؤيةَ التماثيلِ والصُّوَرِ والرُّموز في أماكنِ عِبادتهم ثـمّ لم يَرَوْا مِثْلَها ولا قريباً منها في الإسلام، جعَلوا يسألون أسْئلةً تتعلّقُ بذلك. فمنهم من سأل ـ ومنذ أيامِ رسولِ الله ـ عنِ اللهِ تعالى: أهو من ذهبٍ أو من فِضّة أو من ياقوت (لأن هؤلاء السائلين لم يستطيعَوا أنْ يتخيّلوا اللهَ إلاّ جسماً).

---

(١) فمن تصدّق به: قَبِلَ أن يعاقب هذا العقاب طوعا. فهو كفّارة له: عفو عمّا قام بـه مـن الإضرار بغيره (ولا يعاقب عليه في الآخرة).

وأمّا الذين كانوا أرقى من هؤلاء في المدارك العقلية فقد أحبّوا أن يَعْرِفوا شيئاً من «ذات» الله ومن صِفاته، أهو مُتكلّمٌ مِثلَنا بلسانٍ وشَفَتَيْنِ أو بغيرِ لسان وشفتين. ونَهَضَ في المُسلمين جماعةٌ قالوا إنّ للهِ ذاتاً واحدةً قديمةً وإنّه ليس له صِفاتٌ (لأنّ الصِّفاتِ تُضافُ عادةً على الذّات الإنسانية. إنّ الإنسان يكونُ ضعيفاً ثـمّ يَقْوى، ويكونُ غافلاً ثـمّ يَرى شيئاً أو يسمَعُ صوتاً). من أجل ذلك قال هؤلاء المُفكّرون الجُدُدُ لا يجوز أن يُقالَ في الله إنّه قَويٌّ أو بصيرٌ أو سميع أو عالِمٌ، لأنّ هذه صفاتٌ يتّصف به الإنسانُ وأنه لا يجوز ـ في حَقّ الله ـ أن يُقالَ: هو سميعٌ، فَيَتَوَهّمُ أُناسٌ أنّ «السمع» قد طرأ عليه، وأنّه لم يكن قبلَ ذلك سامعاً أو سميعاً.

وبعدَ أنِ ٱتّسعَ هذا القولُ وطَغى أيضاً ـ وسُمِّيَ أصحابُه «مُعتزلةً»، وكان منهجَهُمْ أن يَعْرِفوا كلَّ شيءٍ بعُقولهم هم ـ نَهَض الأشعريّةُ الذين هُمْ في الاصل من أهلِ السُّنّة والجَماعة (من الكَثْرة في المسلمين) وأرادوا ألاّ يَسْتَمِرَّ هذا الجِدال الذي أوشكَ أنْ يخرُجَ عن سَمْتِهِ وقَصْدِهِ إلى ما يُشبهُ الكُفْرَ أو إلى الكُفر، ثـمّ رَجَعوا إلى القول بأنّ العقلَ الإنسانيَّ عاجزٌ عن إدراك المُغَيّباتِ، فيجب على المُسلم أن يقبَلَ حُكْمَ الوَحْيِ في ذلك وأن يَقِفَ عنِ التساؤل الذي لا يَصِلُ بالمُتسائل إلى حقائقِ المُغيّباتِ ولا يُدخِلُ على نفسِه ٱطمئناناً.

ثـمّ جاءَ ٱبنُ خَلْدونِ (ت ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ م) وقال[١]: إنّ علمَ

---

(١) مقدّمة ابن خلدون (بيروت ١٩٠٠ م)، ص ٤٥٨ ثـمّ ٤٦٧، (بيروت، دار الكتاب اللبناني)، ١٩٦١ م، ص ٨٢١ ـ ٨٢٢ ثـمّ ٣٨٧.

الكَلام هذا، وهو مُحاولةُ الدِّفاعِ عنِ العقائدِ الإيمانيّةِ بالأدِلّةِ العقلية، كان ضروريّاً حينما كان الإسلامُ في أعصُرِه الأولى، وكان المُشركون وأهلُ الكتاب يدخُلون في الإسلام ولا يزالُ في نُفوسِهم آراءٌ من عقائِدهمُ القديمة. أمّا الآنَ (في زَمَنِ ٱبنِ خَلْدونٍ) فقد تمَهّدَ الدِّين وبَطَلَتِ الحاجةُ إلى ذلك الجِدال، فلم يَبْقَ من حاجةٍ إلى علمِ الكلام.

لـمّا ظهر الإسلامُ في شِبهِ جزيرة العرب بالتوحيد الخالص ثـمّ ٱنتشرَ فيما قَرُبَ منها من الأقطار وما بَعُدَ، وفي أقلَّ من قرنٍ من الزمان، ٱعتَنَقَه جماعاتٌ كثيرةٌ هنا وجماعات قليلة هناك وجاءوا إلى دينِهِمُ الجديدِ بما كانوا قد تَعَوَّدوه في دينِهِمُ القديم. ومُعْظَمُ العقائدِ القديمة كانتَ وثنيّةً تُعَدِّدُ الآلهة. ثـمّ ٱنتقلتِ الفلسفةُ اليونانية إلى المسلمين ـ والفلسفةُ اليونانيةُ كانت أيضاً وثنيّةً.

كان الهنودَ مجوساً يَعَظِّمون النارَ ولا يؤمنون بالله على ما نُؤمن به نحنُ، كما كانوا يُنكرون الحياة الأُخرى (ويعتقدون أن الفردَ إمّا أن يكونَ في هذه الحياة الدنيا في تناسُخٍ [1] مُتَتَالٍ مُتَوالٍ ـ تَنْتَقِلُ روحهُ مـن جسـدٍ إلى جسـدٍ حتّى تَتَهذّبَ ـ وإمّا أنّ يكونَ صالحاً، أو أنْ يكونَ قد صَلَحَ بالتناسُخِ، فيدخُلَ حينئذٍ في «النِّرفانا أو العَدَم ويهمَدُ إلى الأبد). وكان الفرس (وهم أيضاً مجوسٌ في الأصل) يعتقدون بإلَهَيْنِ ٱثنين (إلَهٍ للنُّور أوِ الخير وإلَهٍ للظلام أوِ الشرّ). أمّا بقايا الآراميّين والكَلْدانيّين والمِصْريين والبربر والتُّـرْك

(١) استمرار النفس الواحدة في أجساد مختلفة متعاقبة في هذه الحياة الدنيا.

فكانوا وَثنيّين يُعَدِّدون الآلهةَ فيَجعَلون لكلّ مَظْهرٍ من مظاهرِ الطبيعة (للنهر وللغابة وللموت وللحُبّ وللبحر وللنجوم) إلّهاً خاصّاً به.

وكان اليهودُ مُوحّدين في الظاهـر، ولكنّهم كانوا يَنْسِبون إلى الله أعمالاً لا تليق بالله فأخْرَجَهُمْ ذلك من التوحيد الخالص[2]. أمّا النصارى فكانوا فِرقاً كثيرة: منهم مـن كـان مُـوَحِّـداً يعتقـد أن المَسيـحَ إنسـانٌ صـالـحٌ (ولقد حَرَصَتِ النصرانيةُ الرَّسميّةُ بعد أمدٍ على أن تَقضِيَ على من كان يقول ذلك)[3]. ثـمّ كان من النصارى إلى اليوم من يقول «بثلاثةِ أقانيمَ مستقلّةٍ ومجموعةٍ في ثالوثٍ واحد». ومجيءُ المسيح إلى الأرض وحياتُه المَرْوِيّةُ في الأناجيل القانونية (والتي قَبِلَتْها الكنيسةُ المسيحيّة دونَ غيرِها من الأناجيل الكثيرة التي كانت موجودةً في ذلك الحين) تُخالِفُ مدركَ الوَحْدانية في الإسلام.

وفي مطلعِ القرن الثاني للهِجرة (وأوائلِ القرن الثامن للميلاد) ٱسْتَقَرَّ ٱنتشارُ الإسلام وبدأ الداخلون الجُدُدُ في الإسلام يطلُبون الٱطمئنانَ من

---

(١) التوحيد الخالص الواضح، بلا رموز ولا تأويل (بحث عن المقصود الباطن). إنّ الله (في التوحيد الخالص) واحد في العدد ثـمّ هو مخالف لكلّ شيء آخر، وكل شيء آخر مختلف منه.

(٢) كانت تلك الفرق النصرانية تسمّي «هرطقات» :فـروعـاً منشقّـة: (مخالفة للـرأي الذي تفرضه السلطة الحاكمـة: الامبرطور البيزنطي في بيزانتيوم (القسطنطينية فيما بعد) والبابويّة في رومية. ولـمّا عظم الاضطهاد على أتباع هذه الفرق (وكانوا لا يقولون بألوهيّة المسيح) هاجروا (قبل الإسلام) الى غربي آسية وشرقيّ افريقية. ثـمّ لـمّا جاء الإسلام أسلموا. أمّا الذين بقوا منهم في بلاد الدولة البيزنطية أو في غربيّ أوروبّة وجنوبيّها فقد شهرت عليهم حروب صليبية وأبيدوا (كالالبجانسيّين في جنوبي فرنسة مثلا).

طريق المُوازنة بينَ الفَهْم القديمِ لله (في أديانِهِمُ القديمة) والمَدْرَكِ الجديدِ الذي وجدوه في الإسلام. وأحبَّ نَفَرٌ من المُفكِّرين المُسلمين أن يساعِدوا هؤلاء على ذلك فاستعاروا براهينَ من الفلسفة اليونانيّة التي كانت تَنْتَقِلُ عَبْرَ هؤلاء أيضاً (قبل عصر النقل أو الترجمة) لإقناعهم بأنّ التوحيدَ خيرٌ من الوثنية وأصحّ في الاعتقاد. وغَنِيٌّ عن البيانِ أن نقولَ إنّ النُّتَفَ التي كانت تَصِلُ من الفلسفةِ اليونانية إلى أولئك المُتَفَلْسِفين الأوائلِ في الإسلامِ كانتْ مُشَوَّهةً كثيراً أو قليلاً.

والعُقدة الإساسيّة في نَظَر النَّصرانيّ الذي دَخَل في الإسلام أن اعتقادَه القديمَ كان يقولُ بأنّ المسيحَ يَحْمِلُ عنه خَطاياه، وأن القِسّيسَ يُحلّه من تلك الخطايا نِيابةً عن المسيح. أمّا الآنَ فإنّ الإسلامَ يجعَلُ خَلاصَ الفردِ في الآخرةِ قائماً على عَمَلِه هو، وأنّه ليس في قُدرةِ بَشَرٍ أن يَغْفِرَ له خطيئةً أو يَحْمِلَ عنه خطيئةً.

من أجل ذلك نشأتِ في أيامِ الحَسَنِ البَصْرى (ت ١١٠ هـ = ٧٢٨ م) قضيّةُ الحُرّية في الافعال الإنسانية (الجَبْر والآختيار): هل يأتي الفردُ بأعمالِه (ما كان منها خيراً وما كان منها شرّاً) حرّاً في إتيانها مُريداً لها راضياً بها أم أنّ هذه الأعمالَ مفروضةٌ عليه وهو مُجْبَرٌ على إتيانِها طائعاً أو كارهاً؟ ثـمّ كيف تُغْفَرُ هذه الذُّنوبُ، وما تلك الذُّنوبُ التي يُمْكِنُ غُفرانُها؟ وهل يكفي الإيمانُ وحدَه للنَّجاة يومَ القيامة (كما كان الشأنُ في النَّصرانيّة) أمْ أنّه لا بُدَّ من العمل الصالح أيضاً (كما جاء في الإسلام)؟

ولم يستطعِ الحسنُ البَصْريُّ أن يَفْصِلَ في هذا الأمرِ (ولا كان بإمكانِ غيرِه أن يَفْصِلَ فيه).

وأحبَّ واصلُ بنُ عَطاءِ (ت ١٣١ هـ = ٧٤٩ م) أن يَفْصِلَ في ذلك الأمـر، فقال: إنّ الإنسانَ يأتي جميعَ أعمالِه خيرَها وشرَّها، وأنّه من أجلِ ذلك يجوزُ أن يُجْازى على أعمالِه: يُثابَ على ما هو خيرٌ منها ويُعاقبَ على ما هو شرٌّ منها. ولكنّ واصلَ بنَ عطاءِ لم يستطعْ أنْ يَصْرِفَ أمرَ الذُّنوبِ والجَزاءِ عَلَيْها بسُهولةٍ. كان الخوارجُ (وَهُمْ جماعةٌ أكثرهم من أهلِ العِراق نشأوا في الأصل نشأةً سياسيّةً ثـمّ خَلَطوا بآرائِهِمُ السياسيةِ أحكاماً دينية) يَتَشدَّدون في الحُكم فيَرَوْنَ أن مرتكبَ الكبيرة أوِ الذنبِ الكَبير (كالكُفر بالله وشُرب الخمر والزِّنا) كافرٌ يستحقُّ الخُلودَ في نارِ جَهَنَّمَ. أمّا المُرجئة (وأكثرُهم من أهلِ الشام، ومن أنصار بني أميّةَ في السياسة) فكانوا يَرَوْنَ أن مُرتكبَ الذنـوب (صغيرِهـا وكبيرِهـا) مـؤمـنٌ، ثـمّ هُـمْ يُـرجِئـون (يُؤجِّلون) الحُكْمَ عليه إلى يومِ القيامة، يَغْفِرُ له اللهُ إنْ شاءَ أو يُعَذِّبُه إنْ شاء.

ثـمّ إنّ واصلَ بنَ عطاءِ خَطّ بينَ الرأيينِ رأياً وَسَطاً فقال: إنّ مرتكبَ الكبيرةِ ليس كافراً تامَّ الكُفْرِ ولا هو مؤمنٌ كاملُ الإيمان، وذلك أنّ الإيمانَ مجموعُ صفاتٍ وأعمالٍ. فما دامَ الفردُ يعمَلُ بِعَدَدٍ من هذه الصِّفات، فإنّنا لا نستطيعُ أنْ نَنْزِعَ عنه صِفةَ الإيمان (وان كنا نقول بان إيمانَه غيرُ كامل). وكذلك لا نستطيعُ نحن أن نُبَرِّئَه من وَصْمة الكُفْر لأنّنا نرى فيه أعمالاً سَيِّئةً تميلُ به إلى مَرْتبة الكُفْر). ثـمّ أصدر واصل بن عطاءِ حُكمَه فقال: « إنّ مرتكبَ الكبيرة « فاسقٌ » (في مَنزلةٍ بينَ المنزلتين اللتين هما الإيمان الكاملُ والكُفْر الصريح).

ثـمّ كان للمعتزلة (الذين آعتزلوا قولَ الخوارجِ المتشدّدين وقولَ المُرجئة

المُتساهلين) رأيٌ في الله، هُوَ أن لله ذاتاً واحدةً (فهُوَ موجودٌ واحدٌ قديمٌ) وليس له صِفاتٌ، ذلك لأننا إذا نَسَبْنا ـ في رأيهم ـ صفاتٍ إلى الله (من مثل: رحيمٍ، غفور، غنيّ الخ) فإنّنا نَنْسِبُ إليه صِفاتٍ يتّصفُ بها البشرُ، واللهُ مُنَزَّهٌ عن هذهِ الصِّفات. ثـمّ قالوا أيضاً بقُدرة الفردِ على أعمالِه يأتي جميعَ أعمالِه بإرادته وقُدرته، لأنّ اللهَ عَدْلٌ (أي عادلٌ) لا يجوز أنْ يُجْبِرَ إنساناً على عملٍ سيّءٍ ثـمّ يُعاقِبَه على ذلك العملِ الذي أجبره هو عليه.

إلى جانب هذا الرأي في الله والقائمِ على «تحكيم العقل في أمورِ الغيب (وفي اللهِ خاصّةً) كان هنالك الرأيُ السُّنِّيُّ (المَرْوِيُّ عن رسولِ الله وعن أصحابه) والقائلُ بما نَطَقَ به القرآنُ الكريم في ذلك كلّه (راجع، فوق، ص ٣٩)، وذلك أنْ يعتقدَ المُسلم بما جاء في القرآن الكريم من أسماءِ الله أو صِفاته على ظاهِرها من غيرِ مُحاولةٍ للسؤال عن «كَيْفِيَّتِها»، ذلك لأنّ الأسئلةَ حينئذٍ تكثُرُ وتَتَشَعَّبُ وتخرُجُ بصاحِبِها عن قصدِه الصحيح من غيرِ أن يُفيدَه ذلك التساؤُلُ معرفةً بعالَمِ الغَيْب.

ولـمّا نُقِلَتِ الفلسفةُ اليونانية إلى اللغة العربية، في العصر العبّاسي، تعلّقَ بها نَفَرٌ من المُفكّرين المسلمين، منهم أبو يوسفَ يعقوبُ الكِنْديُّ (ت ٢٥٢ هـ = ٨٦٦ م) وأبو بكرٍ مُحمّدُ بنُ زكريّا الرازيُّ (ت نحو ٣٢٠ هـ = ٩٢٤ م) وأبو عليٍّ أحمدُ بنُ محمّدٍ المعروفُ بمِسْكويهِ (ت بُعيد ٣٣٠ هـ = ٩٤١ م) وابو نصرٍ مُحمّدُ بنُ محمّدٍ الفارابيُّ (ت ٣٣٩ هـ = ٩٥٠ م) وإخوانُ الصّفا[1] وأبو عليٍّ الحسينُ بنُ عبدِ الله بنِ سينـا (ت ٤٢٨ هـ =

(١) اخوان الصفا جماعة سرّيّة نشأت في مطلع القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) في البصرة (جنوبيّ العراق) وأرادوا أن يبنوا مجتمعاً مؤلّفاً من الاجناس المختلفة من البشر وأن =

١٠٣٧ م) الذين مالوا إلى المنطق اليونانيّ وأحبّوا أن يُحَكِّموا العقلَ في كُلِّ الأمورِ في عالم المُشاهدة (هذا العالمِ الذي نَعيشُ نحنُ فيه) وفي عالَمِ الغَيْب، فبَحَثوا في البُرهان على وجودِ الله وعلى علمِ الله وعلى صِلَةِ هذا العالم بالله. غيرَ أنّ آراءهم كانتْ مُجانِبَةً للرأيِ الإسلاميّ كثيراً أو قليلاً من حيثُ طريقةُ البحث على الأقلّ. لقد طلبوا أن يَعْرِفوا بالعقلِ ما هو وراءَ نِطاقِ العقل.

ونشأ في الإسلامِ حركةُ تَصَوُّفٍ ثـمّ آتّسعتْ ـ مَعَ الأسف ـ في المَشْرق وفي المَغْرب. وكان المتصوّفةُ (إذا نحنُ آسْتَثْنَيْنا الغَزّاليَّ الاّ قليلاً) يتكلّمون من أوْهامِهم في الله كلاماً لا يقبَلُهُ العُقلاء. ولا شكَّ عندنا في أن الفَرْدَ لا يخضَعُ لهذه الأحوالِ التي تسمّى صوفيةً إلاّ إذا كان هنالك آضطرابٌ في حياته من مَرَضٍ جِسمانيّ أو من مرض نفسيّ.

ولقد شَهِدَتْ هذه الحِقبَةُ أيضاً نَفَراً منهم أبو الحَسن عليُّ بنُ إسماعيلَ الأشعريُّ (ت ٣٣٠ هـ = ٩٤٢ م) وأبو منصورٍ الماتَريديّ (ت ٣٣٣ هـ = ٩٤٤ م) وأحمدُ الطحاويّ (ت ٣٤١ هـ = ٩٤٣ م) ثـمّ أبو العَلاءِ المَعَريُّ (ت ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م).

= يقيموه على مبادىء الفلسفة اليونانية (في الأكثر). وقد لفّقوا لأنفسهم مذهباً تخيروه مما ظنّوه أفضل ما في الفلسفات جيعها وفي الأديان أيضاً. وقد اختلف نفر من الباحثين فيما إذا كان لاخوان الصفا غاية سياسيّة وراء جماعتهم السرّيـة. والواضح أن «الجماعة» قد جعلوا حياتهم سرّية، لأنّ مسلكهم وآراءهم كانت مخالفة للإسلام، بينما الدولة القائمة (الخلافة العبّاسيّة) كانت خلافة اسلاميّة.

كان نجمَ هذه الحِقبة أبو الحسن الأشعريُّ، وقد كان في أوّلِ أمرِهِ من المعتزلة الذين يُفضّلون، في تعليل الأمور، مذهبَ العقل على مذهب الرِّواية الدينية. ثـمّ إنّه ترك الأعتزال فنشأ له مذهبٌ جديد. لم يكن للأشعري آراءٌ خاصّةٌ به، بل أخذَ بالآراء التي جاءت في الإسلام، غيرَ أنّه حاول الدِّفاعَ عن هذه الآراء بالبراهين التي آستعارَها من الفلسفة.

إنّ الله، عندَ الأشعريِّ، عالِمٌ بِعلْمٍ، حيٌّ بحياةٍ، مُريدٌ بإرادة، متكلّمٌ بكلام، بصيرٌ بَبَصرٍ، الخ. وعلمُ الله يتعلّقُ بجميعِ الاشياءِ الموجودةِ والمعدومةِ. والله قادرٌ على كلِّ شيءٍ، وهو خالقُ كلِّ شيءٍ وخالـقُ أعمالِ البشر أيضـاً (لأنّ العبد مُجْبَرٌ على أعماله، وإنْ كان الله قد خَلَقَ في العبادِ «كَسْباً» يفعلون به شيئاً من الأعمال التي يَخْلُقها اللهُ فيهم). واللهُ يفعل ما يريدُ: يطلُبَ التَّوْبَةَ من عِباده، ولكنْ يَقْبَلُ التوبةَ من عبدهِ إذا أراد. ثـمّ إنّ اللهَ يُدْخِلَ جميعَ العِباد الطائعينَ والعاصين إلى الجنّة، وقد يُدخِلُهم (إذا شاء) كُلَّهم إلى النار ثـمّ لا يكونُ ذلك ظُلْماً منه.

والمَعَرِّيُّ وطيدُ الإيمان بالله مطمئنٌّ إلى ذلك الإيمان. ثـمّ هو لا يُحاوِلُ أن يَعْرِفَ اللهَ من طريق علماء الكلام (بالجَدَل) بل بالآقتناع الوجدانيِّ القائمِ على أنّ وجودَ هذا العالمِ الماديِّ المُنظَّمِ يقتضي وجودَ صانعٍ حكيمٍ. يقولُ المعرّيُّ:

أثْبِـتُ لي خـالقـاً حكيماً، ولسـتُ مـن مَعْشَـرٍ نُفـاةِ.
* أقِـرَّ بـأنّ لي ربّـاً حكيماً ولا ألْقـى بـدائِعَـهُ بجَحْـدِ.

أمّا حُجّةُ الإسلام أبو حامدِ محمّدُ بنُ محمّدِ الغزّاليُّ فقد وَجّه جميعَ آهتمامه

إلى موضوع الالَهيّات، لأنّ الالَهيّاتِ هي التي تُوجب ايماناً وكُفْرا ثـمّ فَوْزاً أو خُسْراناً في الآخرة. ورأيُ الغزّاليّ في «الله» هـو رأي الأشعـريّـة: رأي أهلِ السُّنّة والجماعة (أي رأي الدين: رأي الإسلام). وكلُّ شيءٍ في الوجود المنظور وفي الوجود الغائبِ عن بَصَرنا راجعٌ في كلّ حالٍ من أحواله إلى الله. واللهُ موجودٌ، ولا عِلّةَ لوجودهِ، ووُجودُه علّةٌ لكلّ شيءٍ. ووجودُ الله معروفٌ عندنا من طريقِ الوَحْيِ. ثـمّ إنّ اللهَ واحدٌ، لأنّه لا يجوزُ أنْ يكونَ في العالمِ اثنانِ لا علّةَ لوجُودِهما (وهذا نظرٌ فلسفيّ).

والله ذاتٌ، وله صِفاتٌ كُلُّها قديمٌ. ولكنّ بعضَ هذه الصِّفاتِ غيرُ زائدٍ على ذاتهِ (كالوَحْدانيّة والقِـدَم)، وبعضُهـا زائـدٌ على الذاتِ (كـالقُـدرة والإرادة والسَّمْع والبصر).

واللهُ خالقُ العالَمِ من العَدَم: خَلَقَ مادّتَه وصُورتَه وخَلَقَ كُلَّ ما فيه. والزّمان من جُملة العالَمِ أيضاً. وهو قادرٌ لا يُعْجِزُه شيءٌ، وعالِمٌ بكلّ شيءٍ قبلَ أنْ يُوجَدَ الشيءُ وبعدَ أن يُوجدَ. وهو أيضاً مريدٌ يفعل ما يشاءُ، ولا يَجِبُ عليه أنْ يُراعِيَ مصلحةَ عبادِه، إذ هُم مُلكُهُ: إنّ شاء أنْعَمَ عليهم وغَفَر لهم، وإن شاء أتْعَسَهُمْ في الدنيا وعذّبَهم في الآخرة. ولا يُسألُ عمّا يفعَلُ.

ومن كبار المفكّرين في الإسلام تَقِيُّ الدين أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ عبدِ الحليمِ المعروفُ باسمِ ابنِ تَيْمِيَةَ (ت ٧٢٨ هـ = ١٣٢٩ م).

يرى ابنُ تَيْمِيَةَ أن على المُسلم أن يعمَلَ بالتَفْويض وبالتسليم. فعلى المؤمن أن يُفَوِّضَ جميعَ الأمورِ إلى الله ويعتقدَ أن اللهَ هو الـذي يُدَبِّر أمورَ خَلْقه كُلَّها، ثـمّ على المؤمن أن يسلّم جميعَ أمورهِ إلى الله بأن يقبَلَ كُلَّ ما يأتيه من

اللهِ. وهو يرى أن ما نَزَلَ من الوَحْيِ على رسولِ الله مقبولٌ على ظاهـره بلا تأويل. أمّا إذا كان ظاهرُ الوحي مخالفـاً للمفهوم من اللغة العربية والبلاغة العربية، فعلى المسلم أن يعتقدَ ما جاء في الوحي من غير أن يسأل عن كيفيّته. فاذا قرأنا في القرآن الكريم قولَ الله تعالى: ﴿الرحمنُ على العرش ٱستوى﴾، وَجَبَ علينا أن نؤمن بأنّ اللهَ يَسْتوي على العرشّ، ولكن لا يجوزُ لنا أن نسالَ عن صِفةِ ذلك العَرْشِ أو عن صِفة ذلك الاستواء.

وكلُّ مخلوقٍ محتاجٌ إلى اللهِ، واللهُ تعالى غَنِيٌّ عن كلّ مخلوقاتهِ (لا يحتاجُ إلى شيءٍ منها). واللهُ يُحْسِنُ إلى عباده رَحمةً منه وكَرَماً.

والله تعالى لا يُضافُ إليه شرٌّ. وإذا كان الشرُّ موجوداً في العالم فعلاً كالمَرَضِ والفَقْر فيجب أن نَعْرِفَ أن هذا الذي نَعُدُّه نحنُ شرّا ليس شرّاً أبداً، بل هو شرٌّ في حقّ من تألّمَ به، ذلك لأن الله خالقُ كلّ شيء، ولكنّه خَلَقَ كلَّ شيءٍ لِحِكمةٍ. وهذه الحِكمةُ التي خَلَقَ اللهُ بها كلَّ شيءٍ تجعَلُ كلَّ شيءٍ خيراً في الحال التي خُلِقَ فيها وفي الموضع الذي وُجِدَ فيه.

فإذا نحن ٱنْتَقَلْنا من المَشْرق إلى المغرب وَجَدنا في المغرب نفراً يذهبون مذهَبَ المعتزلة ثـمّ نفراً آخَرين يذهبون مذهبَ الأشعريّة. فمِنْ هؤلاء كُلّهم أبو محمّدٍ عليُّ بنُ أحمدَ بنِ حَزْمٍ الأندلُسيُّ (ت ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م).

يرى ٱبنُ حَزْمٍ أنّ اللهَ ليس في مكانٍ وليسَ في زمانٍ، إذ هو خالقُ الزّمان والمكان. ولا يَحِلُّ لأحدٍ أن يُسمّيَ اللهَ بغيرِ ما سَمّى اللهُ به نفسَه. إنّ لله تِسعةً وتِسعينَ ٱسْماً معروفةً في القُرآن والحديث. فإذا نحن قرأنا في القرآن الكـريم: «والسمـاءَ بَنَيْنـاهـا بـأَيْـدٍ (بقـوّة)» وإنّـا لَموسِعـون (٥١ : ٤٧،

الذاريات)، فلا يجوزُ لنا أن نُسَمِّي اللهَ «البَنّاءَ». واللهُ عالِمُ كلِّ شيءٍ لا يَخْفى عن علمهِ شيءٌ مهما يصْغُرْ أو يكْبُرْ. واللهُ كلّمَ موسى وكلّم مَنْ شاء من رُسُلِهِ. والقضاءُ والقَدَرُ حقٌّ: وليسَ يموتُ أحدٌ قبلَ آنتهاءِ أجلِه مقتولاً أو غيرَ مقتول. وجميعُ أعمالِ العِباد (من خيرٍ وشرٍّ) خَلَقَها اللهُ. وكلُّ أفعالِ الله (في عالَمِ الطبيعة وعالم البشر) عَدْلٌ وحِكمةٌ، وهو الذي وضع كلَّ مخلوقٍ في موضعه، وليس لمخلوقٍ أن يَعْتَرِضَ على ما رآه في الوُجود، فإنَّ الانسانَ لا يُدرِكُ الحِكمة من كلّ ما خَلَقَ الله. فإذا غابتْ حكمةُ ما يعُدُّه الإنسانُ شرّاً في الحياة، فلا يجوزُ لذلك الإنسانِ أن يَعُدَّ ذلك الشيءَ شَرّاً.

إنّ آبنَ حَزمٍ أشعريٌّ كابي الحسنِ الأشعري نفسِه وكأبي حامدٍ الغزّالي، وإن كان هو يأخذُ بظاهِرِ الكتاب (القرآن) والسُّنّة (أحاديثِ رسولِ الله) أكثر ممّا يأخذان هما بذلك.

وكان أبو بكرٍ محمّدُ بنُ عبدِ الملك بن طُفَيْلٍ القَيْسيُّ الأندلُسيّ (ت ٥٨١ هـ ١١٨٥ م) يأخُذ من مذهبِ الأشعريّة بِطَرَف ومِنَ الاعتزال أيضاً بطرف. إنّ اللهَ، عند ابنِ طُفيلٍ، واحدٌ قادرٌ عالمٌ بما صَنَعَ مختارٌ لما يصنَعُ ولما يشاء، ولكن لا يمكن أن يُحِسَّ به أحدٌ أو يتخيَّلَه أحَدٌ، ذلك لأنّ التخيّلَ ليس شيئاً سوى إحضارِ صُوَرِ المَحسوسات بعدَ أن تغيبَ عن حِسّنا (بعدَ أنْ كُنّا قد أحسَسْنا بها فِعْلاً). واللهُ ذو عِنايةٍ بالعالم كُلِّهِ. وفي النظر إلى صفات الله، يُخالِفُ ابنُ طفيلٍ آراءَ الأشعريّة. فإن جميعَ صِفاتِ اللهِ عنده راجعةٌ إلى ذات الله عَيْنِها، وليس شيء منها زائداً على ذلك. إنّ علم الله بذاتِهِ (بأنّه موجودٌ) هو (أي هذا العِلْمُ) ذاتُه (أي ذاتُ الله). واللهُ قد

خَلَقَ كلَّ شيءٍ لمنفعةٍ (وحِكمةٍ) مقصودةٍ منه. وهو يَعْرِفُ كلَّ شيء: لا يَعْزُب (يغيب، يخفى) عنه مِثقالُ ذَرّةٍ (نملة صغيرة) في السموات ولا في الأرض؛ ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلاّ في كتابٍ مُبين (راجع ٣٤ : ٣، سورة سبأ)، وقدِ أستشهدَ ابنُ طُفيلٍ بهذه الآيةِ الكريمة على نِطاقِ عِلْمِ الله.

غير أنّ ابنُ طُفيلٍ يَمْزِجُ، عند النظر إلى الله أيضاً، جانباً من التصوّف بجانبٍ من الفلسفة اليونانية حينما يقول: «إذْ هُوَ (الله) الموجودُ المَحْضُ الواجبُ الوُجودِ بذاتهِ المُعْطي لكلّ وجودٍ وُجودَه. فلا يُوجَدُ إلاّ هو. وهو الكمالُ، وهو الحُسْنُ والبهاءُ وهو القُدرة والعلم، وهُوَ هُوَ. وكلُّ كمالٍ وبهاءٍ فإنّما يصدُرُ عنه ويَفيضُ منه».

وأكبرُ فلاسفةِ العصور الوسطى في الشرق وفي الغرب ـ وفي الإسلام وفي النصرانية ـ هو أبو الوليدِ محمّدُ بنُ أحمدَ بنِ محمّدِ بنِ رشدٍ الحفيدُ (ت ٥٩٥ هـ = ١١٩٨ م) الفيلسوفُ، تَمْيِيزاً له من جَدّه الفقيهِ محمّدِ بنِ أحمدَ بنِ رُشدٍ. وابنُ رُشدٍ الفيلسوفُ أقربُ إلى المعتزلة وإلى الفلاسفةِ اليونان ـ وإلى أرسطو منهم على الأخصّ ـ منه إلى الأشعريّة.

إنّ اللهَ هو الصانعُ الخالقُ الأوّلُ صَنَعَ كلَّ شيءٍ لحِكمة (على مقتضى ترتيبٍ ونظامٍ وقانونٍ) بأنْ صَدَرَت عنه جميعُ المَوْجوداتِ المُتغايرة (المُختلفِ بعضُها من بعضٍ) صُدوراً أولاً (أزليّاً) ومرّةً واحدةً. وهذا الفاعلُ الأوّلُ واحدٌ، والوَحْدانيّة ذاتُه، إذ لا يمكن أن تكونَ الوحدانيةُ

---

(١) اذا كان الرقم «اثنان» يتألّف من الرقم «واحد» مكرّراً مرّتين، فالرقم «واحد» يجب أن يكون سابقاً على الرقم «اثنين». وكذلك اذا كان الماء مركّباً من عنصر الأوكسيجين

زائدةً على ذاتهِ: على ذاتهِ التي هي في الوقت نفسِه وُجودُه. واللهُ قديمٌ لأنَّ الواحدَ - بما هو واحدٌ - سابقٌ على كلِّ مُرَكَّبٍ. ثـمّ هو قديمٌ بذاتهِ، بالإضافةِ إلى العالَم الذي هو قديمٌ أيضاً، ولكنْ قديمٌ بالله (لأنّ الله هو الذي خلق العالم، ولكنْ خَلَقَهُ مُنذُ الأزل). وابنُ رُشْدٍ لا يرى اللهَ تعالى مُنْفَصِلاً من العالمِ الموجود[1]، فاللهُ - عند آبنِ رُشْدٍ، كما كان يرى نَفَرٌ من قدماءِ الفلاسفة أيضاً - هو الموجوداتُ كُلُّها والـمُنْعِمُ بها والخالقُ لها. غيرَ أنّ آبْـنُ رُشدٍ شَرَحِ ذلك من عندهِ فقال: للموجودِ وجُودانٍ: وجودٌ أشرفُ ووجودٌ أخسٌّ. والوجودُ الأشرفُ (اللهُ) هو عِلّةُ (سببُ) الوجودِ الأخسِّ (أي وجُودِ هذا العالَمِ المحسوس بجملته).

وآبْنُ رُشْدٍ يرى - مثل آبنِ طُفيلٍ من قبلُ - أن هذا البحثَ النَّظريَّ في جميعِ المُغَيّبات (علمِ ما بعدَ الطبيعة) - وفي اللهِ خاصّةً - هو فَرْضُ الفلاسفة. أمّا جُمهورُ الناسِ فلا يجوز لهم أن يتعرّضوا لإقامةِ البراهين على ذلك كُلّهِ، بل يكفي مِنهِمُ الإيمانُ بذلك.

ومَعَ ذلك فإنّ آبنَ رشدٍ يورد على وجودِ اللهِ دَليلَيْنِ: دليلَ العِنانية

= وعنصر الهيدروجين، فعنصرا الاوكسيجين والهيدروجين يجب أن يكونا سابقين على المركّب الذي هو الماء.

(١) يستشهد ابن رشد على ذلك بقول الله تعالى (٣٥: ٤١، سورة فاطر): ﴿إنّ الله يمسك السموات والارض أن تزولا. ولئن زالتا، ان أمسكهما من أحد من بعده...﴾ (راجع أيضاً ٢٢: ٦٥، سورة الحجّ). والمثال على ذلك أن الماء الموجود في اناء مرفوع على النار يكون حارّاً ما دامت النار تحته. فاذا نحن أبعدنا النار عن الماء (أو الماء عن النار) بطلت (انخفضت) الحرارة التي كانت في الماء.

ودليلَ لاَختراع. هو يقولُ (كتاب الكشف عن مناهج الأدلّة ٤٥ ـ ٤٧):

«الطريقُ التي نَبّهَ الكِتابُ العزيزُ (القرآنُ) عليها ودعا الكُلَّ من بابِها تَنْحَصِرُ في جِنْسين: دليلِ العِناية.... ودليلِ الاَختراع. إنّ دليلَ العِناية يقومُ على أنّ جميعَ الأشياء في عالَمِنا موافقةٌ لوجودِ الإنسان (كوجودِ الشمس والنّبات والأمطار والنار، وكوجودِ الأعضاء المُختلفة في جِسْمِ الإنسان) ممّا يدُلّ على أن مُوجِدَ هذا العالَمِ حكيمٌ مُريدٌ مُختارٌ. وأمّا دليلُ الاَختراعِ فيقومُ على أن جميعَ هذه الموجوداتِ مُخْتَرَعَةٌ (من العَدَم، مُحْدَثَةٌ بعد أنْ لم تكُنْ ـ لا بصورتها ولا بمادّتها). فلا بُدَّ، إذَنْ، من وجُودِ مُخْتَرِعٍ لها. ولكن بما أن هذه الأشياءَ من جِنْسِ يَعْجِزُ البَشَرُ عن مِثلِهِ (كالشمس والبحار والعواصف) فيجبُ أن يكونَ لها مُخْتَرِعٌ قادرٌ عليها. ذلك هُوَ الله».

ثـمّ يأتي الكوكبُ الوضّاء في تاريخ الفكر في الإسلام وليُّ الدين أبو زيدٍ عبدُ الرحمن بنُ محمّدِ بنِ خَلْدونٍ (ت ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ م). لم يكنِ اَبنُ خَلْدونٍ فيلسوفاً، ولكنّه عالِمٌ اجتماعيّ ـ وتلك مرتبة فوق مرتبة الفيلسوف ـ وهو مؤسّسُ علم التاريخ (فلسفة التاريخ: تعليل التاريخ بربطِ نتائجِ الحوادث بأسبابها) ومُوجِدُ علم الاجتماع[1].

ليس لاَبنِ خَلْدونٍ كتبٌ في الفلسفة ولا في علم الكلام (كما يجب أن

---

(١) هنالك علماء نظروا في سير التاريخ الانساني منذ أيام أرسطو (ت ٣٢٢ ق.م.) ولقد أشار ابن خلدون نفسه الى نفر من هؤلاء. أمّا علم العمران (الاجتماع الانساني) فهو علم جديد وضعه بأسسه وقواعده ابن خلدون.

تكونَ الكتبُ في هذين الفنّين من فنون المعرفة)، ولكنّنا نستطيعُ أنْ نَصِلَ إلى شيءٍ من آرائه في ذلك من خِلالِ تأريخِهِ للفلسفة وعلمِ الكلامِ في «مقدّمته» المشهورة والتي هي الجُزءُ الأوّلُ من كتابهِ في التاريخ: «كتاب العِبَر وديوانُ المُبتدأ والخبر في أيامِ العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصَرَهُمْ من ذوي السلطان الأكبر».

يحسُنُ أنْ نبدأ بقولنا: إنّ آبنَ خَلْدونٍ في مِنهاجِ بحثِهِ أقربُ إلى الآعتزالِ (في آستخدامِ العقل) عند النظر في الأمور الجارية في عالَمنا وعند آستعراض الآراءِ المختلفة التي جاء بها المسلمون والتي جاء بها غيرُهم، حتّى إنّه لَيُؤَرِّخُ المناصبَ الدينيةَ في اليهوديّة وفي النَّصرانية كما يرى أصحابُها[1] ثمّ يُورِدُ ما يراه هو في ذلك. أمّا في حياته الشخصيّة وفي الموضوعات الغيبيّة (التي تقع وراء الحسّ) فأنّه أشعريّ (يأخذ بما جاء في القرآن الكريم وبما رَوَى رجالُ الحديث من أحاديثِ رسول الله)، ذلك لأنّ مسائلَ علم الكلام (البحثَ في الله والنبوّةِ وفي القرآن ـ وهُوَ كلامُ اللهِ ـ وفي الآخرةِ واشباهِ ذلك) «إنّما هو عقائدُ مُتَلَقّاةٌ من الشريعة، كما نَقَلَها السَّلَفُ، من غيرِ رُجوعٍ فيها إلى العقل ـ ولا تعويلٍ عليه (على العقل) بمعنى أنّها لا تثبُت إلاّ به ـ فإنّ العقلَ معزولٌ عنِ الشرع.... وذلك أنّ مداركَ صاحب الشريعة[2] أوسعُ لاتّساع نطاقها (نطاقِ الشريعة) عن مداركِ الأنظار العقلية، فهي (أيِ الشريعةُ) فوقَها (فوق الأنظار العقلية) ومحيطةٌ بها لآستمدادها من

---

(١) يورد ابن خلدون في مقدّمته أن المسيح أرسل رسلا (راجع طبعة بيروت ١٩٠٠م، ص ٢٣٢).

(٢) صاحب الشريعة: الذي جاء بها من عند الله (الرسول)

الأنوار الإلّهية فلا تدخُلُ تحت قانون النظر الضعيف والمدارك الـمُحاط بها. فإذا هدانا الشارعُ الى مدركٍ فينبغي أن نُقدِّمَه على مداركنا ونَثِقَ به دونها ولا ننظُرَ في تصحيحه بمدركِ العقل، ولو عارضة (ولو أن العقل عارض الشرع)، بل نعتقدُ ما أمرنا به (الشرع) اعتقاداً وعِلْماً ونسكُتُ عمّا لم نفهَمْ من ذلك ونفوّضُه إلى الشارع ونَعْزِلُ العقل عنه.

وآبنُ خَلدونٍ لا يأخذ بالنظر العقليّ في الأمور الغَيْبية (موضوعاتِ ما وراء الطبيعة) وفي كثير من الأمور الطبيعية أيضاً، ذلك لأن الوجودَ الطبيعيَّ وحدَه أوسعُ نِطاقاً مّما يستطيع العقل إدراكَه، فما بالُك بالنِّطاقين معاً (نطاقِ عالمِ الغيب ونطاق الوجود الطبيعي)؟

ثـمّ يقول ابـن خلـدون (المقـدّمـة، بيروت ١٩٠٠ م، ص ٤٥٩؛ دار الكتاب اللبناني ١٩٦١ م، ص ٨٢٤ - ٨٢٥):

«فلذلك أمَرَنا (الشارعُ) بقطعِ النظـر عنهـا (عـن الفلسفـة الماورائيـة وبراهينها عندَ النظر في أمر من أمور الشريعة) وإلغائها جُملةً والتوجّهِ إلى مُسبّب الأسباب كلِّها وفاعِلِها ومُوجِدِها (إلى الله) لِتَرْسَخَ صِفةُ التوحيدِ في النفس على ما علّمنا الشارعُ الذي هو أعرَفُ بمصالحِ ديننا وطُرُقِ سعادتنا لآطّلاعِه على ما وراءَ الحسّ».

والتوحيدُ، عند آبنِ خَلْدونٍ، هُوَ أن نرُدَّ إلى الله وحدَه فعلَ كلّ شيء في عالم الحسّ وفي العالم الذي هو وراءَ الحسّ. إنّ كلَّ حادثٍ في عالَمنا له سببٌ، ثـمّ إنّ وراءَ كلِّ سببٍ سبباً آخرَ سابقاً عليه. ثـمّ لا تزال الأسبابُ وأسبابُ الأسبابِ ترقى (رجُوعاً في الزمن) وتكثُرُ وتتشعّب طُولاً وعرضاً.

ثـمّ إنّ كلَّ ما يقَعُ في النفس الإنسانية خاصّةً (من الإرادات والقُصود والغايات ومن التصوُّرات) مجهولٌ سَبَبُه «إذ لا يَطَّلِعُ أحدٌ على مبادىء الأمور النفسانية ولا على تـرتيبِهـا (على أسبـابها ـ وحُـدوثِ بعضِهـا عـن بعض)، إنّما هي أشياءُ يُلقيها اللهُ في الفكر يتبَعُ بعضُها بعضاً. والإنسان عاجزٌ عن معرفةِ مبادئِها وغاياتِها، وإنّما يُحيط في الغالب بالأسباب التي هي طبيعةٌ ظاهرة».

ويقول ابن خلدون أيضاً (ص ٤٦٠):

التوحيد هو الإقرار بالعجز «عن إدراكِ الأسبابِ وكَيْفيّـات تـأثيرِهـا وتفويضُ ذلك الي خالِقها الـمُحيط بها، إذ لا فاعلَ غيرُه، وكلُّها ترتقي إليه وتَرْجعُ إلى قُدرته. وعِلْمُنا بهِ إنّما هو من حيث صُدورُنا [1] عنه،.... ثـمّ إنّ الـمُعتَبَرَ في هذا التوحيدِ ليس هو الايمانَ فقطْ، (ذلك الإيمانَ) الذي هو تصديقٌ حُكْمِيٌّ، فإنّ ذلك من حديثِ النفس. وإنّما الكمال فيه حُصولُ صِفةٍ منه تتكَيَّفُ بها النَّفْس، كما أنّ المطلوبَ من الأعمال والعِباداتِ أيضاً حُصولُ مَلَكَةِ الطاعة والآنقيادِ وتفريغُ القلب من شواغلِ ما سوى الـمَعبود......».

ويقول آبنُ خَلْدونِ أيضاً (ص ٤٦٣):

«إنّ القُرآنَ وَرَدَ فيه وصفُ المعبود بالتّنْزيه الـمُطلق الظاهر الدَّلالةِ من غير تأويلٍ في آيٍ كثيرةٍ، وَهِيَ سُلُوبٌ كُلُّها وصريحةٌ في بابِها [1]، فَوَجَبَ

---

(١) صدورها؟ (صدور المخلوقات).

(٢) آي = آيات (جمع آية): جملة في القرآن الكريم. سلوب (جمع «سلب»): الكلام على الله =

الإيمانُ بها. ووَقَعَ في كلامِ الشارع[1] ـ صَلَواتُ اللهِ عليه ـ وكلامِ الصَّحابة والتابعينَ تفسيرُها على ظاهرِها. ثـمّ وَرَدَتْ في القرآن آيٌ أُخرى قليلةٌ تُوهِـمُ التَّشَبيهَ[2]، وقَضَوْا بأنّ هذه الآياتِ كُلَّها من كلامِ اللهِ فآمنوا بها، ولم يتعَرّضوا لِمَعناها ببَحْثٍ ولا تأويلٍ».

من هنا نرى أنّ ٱبنَ خَلْدونٍ وأبنَ رُشدٍ من قبلهِ قد نـظَرا إلى الدين من الجانبِ الاّجتماعيّ، ولا يجوزُ عندَهما أنْ ننظُرَ نحن في التعابير مجرّدةً من صِلَتِها بالناس الذين جاءتْ تلك التعابيرُ لِتَفْهِيمِهِمْ عدداً من المدارك الغَيْبيّة التي يصلُح بها حالُهم. أمّا الجِدالُ اللّفْظيُّ فإنّه لا يُؤدّي إلى فَهْمِ تلك التعابير، ثم هو يُقْلِقُ الاّطمئنانَ في الناس. ومن أجل هذا يَختِمُ ٱبنُ خَلْدونٍ فصلَ علمِ الكلام في «مقدّمته» بالمقطعِ التالي الذي ٱخْتَرْتُ أنْ آتِيَ به كُلِّهِ هنا (ص ٤٦٧):

«وعلى الجُملة، فينبَغي أنْ يُعْلَمَ أنّ هذا العلمَ ـ الذي هو علمُ الكلام ـ غيرُ

= تعالى بجمل تفيد أنّه مخالف للبشر: نحو: «ليس كمثله شيء» (٤٢: ١١، سورة الشورى) ـ ﴿لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الابصار﴾ (٦: ١٠٣، سورة الأنعام) ـ ﴿لا تأخذه سِنة (بكسر السين: نُعاس) ولا نوم﴾ (٢: ٢٥٥، سورة البقرة) ﴿الخ.

(١) الشارع (الذي جاء بالشريعة من عند الله): محمّد رسول الله.

(٢) التشبيه: الكلام على الله تعالى بألفاظ تشبه الألفاظ التي يجري الكلام فيها على البشر (لأنّ تفهيم البشر لا يمكن بغير هذه الألفاظ التي ألفوها في التعبير عن المعاني). من هذه الآيات التي توهم التشبيه: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ (٤٨: ١٠، سورة الفتح) ـ ﴿وجاء ربّك والملك (الملائكة) صفّا صفّا﴾ (٨٩: ٢٢، سورة الفجر) ـ ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ (٢٠: ٥، سورة طه).

ضَروريٌّ لهذا العهد [١] على طالب العلم، إذِ المُلْحِدَةُ والـمُبْتَدِعةُ قدِ ٱنقرَضوا. (ثـمّ إنّ) الأئِمّةَ من أهلِ السُّنّة (والجماعةِ قد) كَفَوْنا شأنَهم فيما كتبوا ودوّنوا. والأدلّةُ العَقْليةُ إنّما ٱحتاجوا إليها حينَ دافعوا ونَصَروا. وأمّا الآنَ فلم يَبْقَ منها إلاّ كلامٌ تَنَزّهَ الباري عن كثيرٍ من إيهاماتِه وإطلاقِه. ولقد سُئِلَ الجُنيد [٢] ـ رَحِمه اللهُ ـ عنْ قومٍ مرَّ بهِم (وهم) يُفِيضونَ فيه [٣]، فقال: ما هؤلاءِ؟ فقيلَ (له): قومٌ يُنَزِّهونَ اللهَ بالأدلّةِ عن صِفاتِ الحُدوثِ وسِماتِ [٤] النقص. فقال: نَفْيُ العَيْبِ حيثُ يَسْتَحيلُ العيبُ عيبٌ. لكنّ فائدتَه (فائدةَ علمِ الكلام) في آحادِ الناس وطَلَبةِ العلم فائدةٌ مَعْتَبَرَةٌ، إذْ لا يحسُنُ بحاملِ السُّنّة الجهلُ بالحُجَج النظريّة على عقائدِها. واللهُ وَلِيُّ المؤمنين».

---

(١) لهذا العهد: زمن ابن خلدون، القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد).

(٢) الجنيد بن محمّد البغدادي (ت ٢٩٧ هـ = ٩١٠ م) من أوائل المتصوّفة وكبارهم.

(٣) أفاض في الحديث: توسّع فيه (أكثر الكلام).

(٤) السمة (بالكسرة): العلامة.

الإنسان في الإسلام

انّ كَلِمةَ «حَيَوان» تأتي في اللغة العربية مصدراً بمعنى الحياة[1] ثمّ تأتي أيضاً اَسمَ جنسٍ[2] لكلّ ذي حياةٍ من النبات والبهيم (من الأنعام والدوابّ والوحوش) والإنسان. وإنّ «الحَيَوان»، إذا جاءت مصدراً، كانتِ الحياةَ التامّةَ الكاملةَ المُثلى؛ وعلى ذلك قولُه تعالى (٢٩ :٦٤، سورة العنكبوت): ﴿وما هذه الحياةُ الدُّنيا إلاّ لَعِبٌ ولَهْوٌ، وإنّ الدارَ الآخرةَ لَهِيَ الحَيَوانُ لو كانوا يعلمون﴾.

وفي الفلسفةِ اليونانيّة يُقال للاِنسانِ حَيَوانٌ ناطقٌ بمعنى عاقلٌ، ذلك لأنّ العقلَ أوِ التفكيرَ أخصُّ صفاتِ الإنسان، وأنّ الصِّلةَ بين الفِكر والنُّطق بمعنى الكلام، أو بمعنى المَنْطِق، عندهم هو الذي يُميّزُ الإنسانَ (في البشر) من كلّ ذي حياةٍ آخَرَ. أمّا الصِّلةُ الصحيحةُ بين النُّطق (الكلام) والفكر فموضعُ

(١) الحِيّ (بكسر الحاء) والحَيَوان (بفتح ففتح) والحَيُوةُ (بفتح الحاء وضمّ الياء وسكون الواو) نقيض الموت (القاموس المحيط ٤ :٣٢١ س).

(٢) اسم على شخص من أشخاص كلّ ذي حياة: سقراط حيوان (ناطق)، الفيل حيوان، النسر حيوان، شجرة التّفاح حيوان (بالمعنى الفلسفي).

خِلافٍ بين علماءِ النفس والفلاسفة. يرى الفيلسوفُ ابنُ طفيل (ت ٥٨١ هـ = ١١٨٥ م) أنّ الإنسانَ لا يحتاج إلى لُغةٍ (نُطْق، كلام) حتّى يستطيعَ التفكير فيما حولَه من أدنى دَرَكات الوَجود المادّيّ (ما يُحِسُّه من الأجسام المادّية بلَمْسه) إلى أسمى دَرَجاتِ الوَجود الروحي (إلى التفكير في الله). أمّا علماءُ النفس فيقولون إنّ الذي لا يتكلّمُ لا يُحْسِنُ التفكيرَ، وإن ما يفعَلُه الحَيَوانُ الأعجم (البهيم) مِمّا يعُدّونه هُمْ قريباً من التفكير إنّما يفعَلُه بما في طبيعتهِ من الغريزة.

غيرَ أن هذا الرأيَ من علماء النفس قد فنّدَهُ الآعتناءُ بالمرأة الأميركيّة هيلين كللر (١٨٨٠ - ١٩٦٨ م). لقد أصيبت هيلين كللر في الشهر الثامنَ عَشَرَ من عُمْرِها بالصَّمَم والخَرَس وبالعَمى أيضاً. وفي السابعةِ من عُمْرِها عُهِدَ بها إلى الآنسةِ آنْ مانسفيلد سوليفان (ت ١٩٣٦ م) - وَهِيَ مُختصةٌ بتعليمِ الصُّمِّ والبُكْم (الخرس) - فعَلّمَتْها وأثمرتْ جُهودُها فتعلّمتْ هيلين كللر كلَّ ما أُلْقِيَ عليها ثمّ آستطاعتْ أن تؤلّف عدداً من الكُتُب أيضاً.

* * *

أصل الوجود

إنّ الوجودَ كلَّه أصلُه من الماء والدُّخَانِ (الغاز) - من مادّةٍ غيرِ مُتَحَيِّزة (ليس لها شكلٌ مُعيّن) ولكنّها تملأ المكانَ وتأخُذُ شكلَه (إذا كان له شكلٌ). ولا شكَّ في أنّ الله قد أبدع هذه المادّةَ الأولى. ولمّا عَجَزَ أرسطو عن معرفةِ بدءِ الوُجود (معرفةِ سَبَبِهِ وآبتداعه) خَرَج من عَجْزه وحَيْرتهِ بأنِ

آفترض أنّ تلك المادّةَ الأولى كانتْ موجودةً. وآفتراضُ أرسطو هذا لم يكن حَلاًّ لتلك الـمُشكلة، ولكنّه كان تأجيلاً للبحث فيها.

في القرآن الكريم (١١ :٧، سورة هود): ﴿وكان عرشُه[١] على الماء﴾. وفيه أيضاً (٤١ :١١، سورة حـمَ السجدة أو فصّلت): ﴿ثـمّ آستوى[٢] إلى السماء ـ وَهِيَ دُخَانٌ ـ فقال لها وللأرضِ آئْتِيا طَوْعاً أو كَرْهاً. قالَتا: أتَيْنا طائعين﴾.

أصل الحياة

أصلُ الحياةِ أو مبدأُ كلِّ كائنٍ حيٍّ كان من الماء: من الماءِ نفسِه أو مِمّا يكونُ في الماء أو مِمّا يتّصلُ بالماء مِنَ الطين الذي يَحْدُثُ بآمتزاجِ التراب بالرُّطوبة التي هِيَ خاصّةُ الماءِ. ففي القرآن الكريم (٢١ :٣٠، سورة الانبياء): ﴿أوَلَـمْ يَرَ الذين كَفروا أنّ السّمواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً ففَتَقْناهُما[٣]؛ وجَعَلْنا من الماء كُلَّ شيءٍ حيٍّ. أفَلاَ يُؤمنون؟﴾. إنّ قولَه تعالى ﴿وجَعَلْنا من الماء كلَّ شيءٍ حيّ﴾ (لا «... كلَّ شيءٍ حَيّاً) دليلٌ على أنّ الأشياء نفسَها من الماء آبتداعاً (لا أنّها كانتْ موجودةً مَيْتةً أو جامدةً ثمّ نشأتْ فيها

(١) عرشه (عرش الله، كناية عن ملكه وحكمه على مجموع الوجود) على الماء (قبل أن يأخذ الوجود شكله الخاص به).

(٢) استوى إلى السماء: تعلّقت ارادته بوجود السماء (مختلفة من وجود الأرض): بتنوّع الخلق.

(٣) رتقا: سدّا (بمعنى مسدودة: لا فاصل بينها وبين غيرها). ففتقناهما: شققناهما، فصلناهما. و (هنا) فتق السماء «أنّها كانت لا تمطر فأصبحت تمطر»، وفتق الأرض أنها كانت لا تنبت فأصبحت تنبت. (أي: تشكّلت السماء والأرض بعد أن لم تكونا موجودتين بشكليهما هذين).

الحياة بفِعْلِ الماء). وفيه أيضاً تأكيدٌ للآيةِ السابقة وتفصيلٌ (٢٤ :٤٥، سورة النور): ﴿والله خَلَقَ كُلَّ دابَةٍ من ماء؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يمشي على بَطْنه، ومنهم من يمشي على رِجْلَيْنِ، ومنهم من يمشي على أرْبَعٍ﴾.

انّ البشرَ ـ بدء الإنسان ـ كان من الماء. ففي القرآن الكريم (٢٥ :٥٤، سورة الفرقان): ﴿وهُوَ الذي خَلَقَ من الماء بَشَراً فجَعَلَه نَسَباً وصِهْراً﴾؛ ثمّ زاد في التفصيل: ﴿ذلك عالِمُ الغَيْبِ والشَّهادةِ[1] العزيزُ الرحيمُ * الّذي أحْسَنَ كُلَّ شيءٍ خَلَقَه، وبَدأَ خَلْقَ الإنسانِ من طين (٣٢ :٦ ـ ٧، سورة السجدة). ثمّ جاء تفصيلُ ذلك الطين في قولِه تعالى (١٥ :٢٦، سورة الحِجْر): ﴿ولقد خَلَقْنا الإنسانَ من صَلْصالٍ من حَمَإٍ مسنونٍ﴾(راجع ٢٨، ٣٣) ثمّ يتبدّل الحَمَأُ (الطين الأسودُ) المسنونُ (المُتغيّر) فيُصْبِحُ فخّاراً قاسياً (٥٥ :١٤، سورة الرحمن): ﴿خَلَقَ الإنسانَ من صَلْصالٍ كالفَخّار﴾ من طينٍ يابسٍ يُسْمَعُ له صوتٌ إذا نُقِرَ، كما يُسْمَعُ للإناء من الفَخّار صوتٌ إذا أنتَ نَقَرْتَه بإصْبَعِك.

الجنين وتطوّره في الرحم

نشأ في اليونان نَفَرٌ من الأطبّاء البارعين الذين تركوا لنا تُراثاً طِبّياً غَنِياً في عِلْمَيِ التَّشريح والتّطبيب، ولكنْ لم يَصِلْ إلينا منهم شي يتعلّقُ بتطوُّر الجَنين في رَحِمِ أُمّهِ. لقد عَرَفَ أرسطو تطوُّرَ الفَرْخِ في البَيْضة لما وَضَعَ عدداً من بيض الدّجاج تحت دَجاجةٍ راخِمٍ (تحضُنُ بَيْضاً) ثمّ جعل في كلّ

(١) الذي يعلم ما يظهر للناس وما يغيب عنهم.

يوم يَكْسِرُ بيضةً ويرى الطَّوْرَ الذي وَصَلَ إليه الفَرخ المتخلّقُ فيها. ولم يكن بإمكان أرسطو أن يُجَرِّبَ ذلك في نساءِ البشر.

غيرَ أنّنا نَجِدُ في القرْآن الكريم جانباً كبيراً من تطوُّر الجنين الإنساني في رَحِمِ أُمّهِ، ذلك التطوُّرِ الذي يُوافِقُه ما جاء في العلم الحديث ومن مُشاهدات الأطبّاء في دراسة الحَمْل والوِلادة. لقد مرّتْ بنا آيةٌ قبلَ بِضْعَةِ أسطر، ولا بأسَ من إعادة الآستشهاد بها ها هنا مَعَ آيةٍ تاليةٍ لها. في القرآن الكريم (٣٢:٦ ـ ٩، سورة السجدة):

ذلك عالِمُ الغيبِ والشهادة العزيزُ الرحيم *
الذي أحسَنَ كُلَّ شيءٍ خَلْقَه، وبدأ خَلْقَ الإنسانِ من طين *
ثمّ جعَلَ نَسْلَه من سُلالةٍ من ماء مَهين[1] *
ثـمّ سوّاهُ ونَفَخَ فيه من رُوحِه؛
وجَعَلَ لَكُمُ السّمعَ والأبصَارَ والأفئِدَةَ.
قليلاً ما تشكُرون *

هذه الآياتُ الكريماتُ تَرْبِطُ بينَ الخَلْقِ الأوّل (للبشر) والخلق التالي (لأفرادِ البشر). وهذا الخَلْقُ التالي يمرُّ في الأطوار المتواليةِ التالية:

في بدءِ تكوُّنِ الجَنينِ في الرّحِمِ نرى قولَ الله تعالى (٨٦:٦ ـ ٨، سورة الطارق):

---

(١) السلالة: الشيء المنتزع أو المستخرج من شيء آخر؛ الماء الصافي، المنيّ (ماء الانسان). المهين: الضعيف.

فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِـمَّ خُلِقَ *
خُلِقَ من ماءٍ دافق *
يَخْرُجُ من بينِ الصُّلْبِ والتَّرائب [١] *

إنّ تطوُّرَ الجنينِ في الرَّحِمِ (في بطن أُمّهِ) لا يُتاحُ لأحَدٍ ـ في العادة ـ أن يشهَدَهُ. ولقد جاءتِ الإشارةُ إليه في الآيةِ التالية (٣٩: ٦، سورة الزمر):

خَلَقَكُمْ من نَفْسٍ واحدةٍ،
ثـمّ جعَلَ منها زَوْجَها.
وأنزَلَ لَكُمْ من الأنعامِ ثَمانِيَةَ أزْواجٍ.
يَخْلُقُكُمْ في بُطونِ أُمّهاتِكُمْ خَلْقاً من بعد خَلْقٍ
في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ... [٢]

ثـمّ يأتي تفصيلُ ذلك النَّجم في هذه الآيةِ الكريمة: ﴿يَخْلُقُكُمْ في بطونِ أمّهاتكم خَلْقاً من بعد خَلْقٍ في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ﴾ فنَقرَأُ في القرآن الكريم (٢٣: ١٢ ـ ١٤، سورة المؤمنون):

ولقد خَلَقْنا الإنسان من سُلالةٍ من طين *
ثـمّ جعَلْناه نُطْفَةً في قَرار مَكين [٣] *

---

(١) من ماء دافق (يندفع من الرجل والمرأة الى رَحِم ـ بفتح فكسر ـ المرأة). الصلب: عظام في ظهر الرجل. الترائب: عظام في أعلى صدر المرأة.

(٢) في ظلمات ثلاث (ظلمة الرحم وظلمة البطن وظلمة المشيمة: الطبقة البرّانيـة للغشاء ـ أو الكيس ـ الذي يكون فيه الجنين في الرحم).

(٣) قرار مكين (اشارة الى الرحم): مكان ثابت (وتكون المشيمة مملوءة بالماء ممّا يدفع عن الجنين الاحتكاك القاسي بأعضاء بدن المرأة).

ثـمّ خَلَقْنا النُّطفةَ عَلَقةً[1] *
فخَلَقْنا العَلَقةَ مُضْغَةً[2]،
فخَلَقْنا المُضْغةَ عِظاماً،
فكَسَوْنا العِظَامَ لَحْماً،
ثـمّ أنشأناهُ خَلْقاً آخَرَ.
فتبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالقين *

هذه تفاصيلُ لم تكنْ موجودةً في كُتُبِ الطِّبّ القديمةِ ولا في كتب الطِّبّ التي كانت في العصور الوسطى. ولكنّنا نَجِدُها هنا على التفصيل الذي مرّ بك آنِفاً.

الرجل والمرأة

انّ كَلِمةَ «إنسانٍ» تُطلَقُ على الرَّجُل وعلى المرأة، على السَّواء. ولقد وَرَدَتْ لفظةُ «إنسانة»[3] في بعض اللُّغاتِ (بعض لَهَجات العرب أو ما تأخّر منها) خاصّةً بالأُنثى من الناس.

وفي التوراة (راجع الإصحاح الثالث من سِفْر التكوين) أنّ الله غَضِبَ على آدَمَ وحوّاءَ لأنّهما أكلا من الشجرة (لما اقترب بعضهما من بعض). من

---

(١) النطفة: الماء الصافي (ماء الرجل وماء المرأة اذا اجتمعا في الرحم). العلقة: دم جامد (متماسك).

(٢) المضغة (قطعة صغيرة من لحم لم يتشكل بعد تشكّلا ظاهرا).

(٣) راجع «القاموس المحيط» (٢: ١٩٨).

أجل ذلك تذكُر التوراة الموجودة بأيدي الناس أن الله حكم على المرأة (على كلّ امرأة بعد حوّاء) أنْ تقضيَ حياتَها في عذاب وفي عداوة وتعب، وان تكون خاضعة للرجل. وكذلك حكمَ على الرجل بذلك النصّ نفسهِ من التوراة أيضاً (وعلى كلّ رجل بعد آدَمَ) أنْ يقضِيَ حياته في هذه لدنيا يقاسي العذاب والتَّعَب والعَداواتِ. وكذلك جُعِلَتِ الأرضُ كلُّها من أجل ذلك ملعونةً.

ليس من المُسْتغرب أن يُذنِبَ آدمُ أو أن تذنبَ حوّاءُ. إنَّ كلَّ إنسانٍ مُعَرَّضٌ للخطأ ولارتكابِ الذُّنوب، بِعِصيانِ أوامرِ الله أو بمُخالفة القوانينِ الموضوعة. ولكنَّ المُستغربَ ـ من حيثُ المنطقُ والعُرف ـ أن يُؤاخَذَ فردٌ من الناس بذنب فَعَلَهُ غيرُه. ولو أنّ هذا الفردَ المُؤاخذَ بذنبِ غيرِه كان مُعاصراً لذلك الفردِ الآخرِ المُذْنبِ أصلاً، لكان في هذا الحُكْم شي من المنطق؛ ولَقُلنا نحن في ذلك: لقد كان بإمكان أحدِهما أنْ يَرُدَّ الآخرَ عنِ ٱرتكابِ ذلك الذنبِ أو أنْ يُحاولَ أن يمحُوَ بعضَ آثارِ ذلك الذنب. ومن أجلِ ذلك كان بالإمكان أنْ نَعُدّ أحدَهما مسؤولاً عن الذنب الذي ٱرتكبه الفردُ الآخر. أمّا أن نجعَلَ فرداً من الناس مسؤولاً عن ذنبٍ ارتكبه فردٌ آخرٌ قبلَ ألوفِ السِّنينَ وعَشَراتِ أُلوفِها، فهذا هُوَ الأمرُ المُستَغْرَب هنا.

وقبلتِ النَّصرانية هذا الحُكْمَ[1] فـأوجَبَـتْ على كـلِّ مـولـودٍ فيهـا أن «يُعَمَّدَ» (أن يُغْمَسَ في الماءِ بِنِيّةِ غَسْلِهِ من «الخطيئة الأولى» التي كانتْ على آدَمَ وحوّاءَ) ولكي يُصْبِحَ بذلك الغَمْسِ في الماء نَصرانيّاً بعدَ أنْ لم يكُنْ

(١) الحكم بأن الإنسان يولد نجساً خاطئاً.

(وإنْ كانَ قد وُلِدَ من أبوَيْنِ نَصرانيّينِ).

رأينا أنّ الطفل يُولَدُ ـ في العقائد السابقة على ظهور الإسلام ـ ناقصاً نَجِساً مُذنباً يَحمِلُ تَبِعَةَ الخطيئةِ التي قالت تلك العقائد أن «آدمَ وحوّاءَ» آرتكباها. نحن لا نُنكِرُ أن آدمَ عَصى ربَّه[1]، ولكنّ الإسلامَ لم يَجْعَلْ أحداً من نسلِ آدَمَ مسؤولاً عن خطيئةِ الإنسانِ الأوّل. ففي الإسلام لا يَحْمِلُ الإنسانُ إلاّ تَبِعَةَ عَمَلِهِ هو.

والإنسانُ ـ بما هو إنسانٌ ـ وكُلُّ فَرْدٍ من أفرادِ النوع الانساني ـ يأتي إلى هذه الدنيا في أحسنِ تقويمٍ، في أحسنِ الصُّوَر التي للمخلوقات (ويكفي أن يكونَ فيه العقلُ). وإذا كان الإنسان قد جاء إلى هذه الدنيا، في صورتِهِ الطبيعيّةِ «في أحسنِ تقويمٍ»، فإنّه ـ من الناحية الرّوحيّة النّفسية المَعْنويّة ـ قد جاء مُكَرَّماً أيضاً. قال اللهُ تعالى (١٧ :٧٠، سورة الاسراء): ﴿ولَقَدْ كرّمْنا بني آدمَ، وحَمَلْناهم في البرِّ والبحر. ورَزَقْناهم مِنَ الطَّيِّبات؛ وفَضَّلْناهم على كثيرٍ مِمَّنْ خَلقْنا تفضيلاً﴾.

وكُلُّ فردٍ من أفرادِ الإنسان ـ من أفرادِ النَّوع الإنسانيّ ـ يَحْمِلُ تَبِعَةَ ما يعمَلُه هو نفسُه .ولا يُسألُ عمّا يفعَلُه غيرُه: مَنْ أحسَنَ فَلِنَفْسهِ ومَنْ أساء فَعَلَيْها. ثمّ إنّ الإنسانَ أوِ الفردَ الإنسانيَّ لا يجوزُ له أن يطمَعَ في أن يحصُلَ إلاّ على ما يَسْعَى اليه هو بنفسِه. ففي نِطاق التَّبِعة الإنسانية يَجِبُ أن نُفَكِّرَ

---

(١) في القرآن الكريم في سورة طه (٢٠ :١٢١): ﴿وعصى آدم ربه فغوى (ضل) * ثم اجتباه (قرّبه) ربه فتاب عليه وهدى (راجع الآيات السابقة على هاتين الآيتين واللاحقة لهاتين الآيتين).

في معاني الآيات التالية. وسأوردُ عدداً منها كَيْلا يذهَبَ الظَنُّ إلى أن هذه التَّبِعةَ الإنسانيةَ أُشيرَ إليها في القرآنِ الكريمِ إشارةً عارضةً:

- وكُلَّ إنسانٍ ألْزَمْناهُ طائِرَهُ في عُنُقِهِ[1].
ونُخرِجُ له يومَ القِيامة كِتاباً يَلْقاه منشوراً *
اقْرأْ كِتابَكَ، كفى بِنَفْسِكَ اليومَ عليك حَسيباً[2] *
مَنِ اهتدى فإنّما يهتدي لِنَفْسِهِ؛
ومَنْ ضَلَّ فإنّما يَضِلُّ عَلَيْها.
ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى[3].
وما كُنّا مُعَذِّبِينَ حتّى نبعَثَ رسولا[4] * (١٧: ١٣ - ١٥، سورة الاسراء).

- ... أن لا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخرى[5] *
وأنْ لَيْسَ للإنسان إلاّ ما سعى *

---

(١) وجعلنا عمل كلّ إنسان ظاهراً لصاحبه كأنّه معلّق في عنقه يراه دائماً.

(٢) حسيبا: رقيبا ومحاسبا (ما دام عملك، خيرا أو شرّاً، ظاهرا أمام عينيك، فأنت تستطيع أن تحكم على نفسك بأنّك من أهل الجنّة أو من أهل النار).

(٣) ولا تزر (تحمل) وازرة (نفس آثمة، مذنبة) وزر (ذنب) أخرى (نفس مذنبة أخرى بالإضافة الى ذنبها هي): كلّ انسان مسؤول عن عمل نفسه (ولا يسأل عن عمل إنسان آخر إلاّ إذا كان ذلك الإنسان الآخر خاضعاً بطريقة ما للإنسان الأوّل).

(٤) ولا نعاقب إنساناً أذنب إلاّ إذا كنّا قد بيّنا له من قبل (على لسان رسول من عندنا) ما الخير وما الشرّ.

(٥) .... «لا تزر وازرة وزر أخرى» قاعدة مستقرّة. وكما أن الإنسان لا يعاقب بذنب أحد آخر، فإنّه أيضاً لا يثاب بعمل عمله أحد آخر.

وأنّ سَعْيَه سوف يُرى *
ثُـمّ يُجزاهُ الجزاءَ الأوفى[1] * (٥٣: ٣٨ ـ ٤١، سورة النجم).

ـ والذين آمنوا واتّبَعَتْهُم ذُرِّيَّتُهُمْ بإيمانٍ،
ألْحَقْنا بهم ذُرِّيَّتَهُمْ.
وما ألَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ من شيءٍ[2].
كُلُّ آمْرِئٍ بما كَسَبَ رَهينٌ[3] * (٥٢: ٢١، سورة الطور).

ـ يا أيُّها الناسُ، آتّقوا رَبَّكُمْ؛
وآخْشَوْا يوماً لا يَجْزي والدٌ عن وَلَدِهِ[4]،
ولا مولودٌ هو جازٍ عن والِدِهِ شيئاً[5]...* (٣١: ٣٣، سورة لقمان).

* * *

---

(١) من أجل ذلك سينظر يوم القيامة في عمل كل إنسان بمفرده ثم يجازى عليه (بالثواب أو بالعقاب) جزاء وافياً (كاملا).

(٢) والذين آمنوا ثم رزقوا أولاداً نشأوا على الإيمان أيضاً، ولكن ماتوا وهم صغار دون البلوغ، قبل أن يجب عليهم العمل بما في الشريعة، فهؤلاء الأولاد يثابون يوم القيامة بثواب آبائهم المؤمنين من غير أن ننقص شيئاً من ثواب آبائهم ولا أن نخفض درجتهم عن درجة آبائهم. وما ألتناهم: ما نقصنا شيئاً من عملهم.

(٣) كلّ أنسان رهين (مؤاخذ) بما كسب (بما عمل من خير أو شرّ).

(٤) واخشوا (خافوا) يوما (يوم القيامة، حينا) لا يجزي (لا يغني) والد عن ولده (لا يستطيع والد أن ينفع ولده بشيء: بدفع العقاب عنه أو بأن يشفع له بشيء من الثواب).

(٥) وكذلك لا يستطيع ولد أن ينفع أحد أبويه بشيء، مع أن برّ الأبوين أمر من الله تعالى لكلّ انسان).

ذلك هو الإنسانُ حينما ننظُرُ إليه «فَرْداً»، وحينما ننظر إليه عند بدء الوجود الإنساني. ولكنّ «هذا» الإنسانَ لم يبقَ طويلاً على تلك الفِطرة التي وُلِدَ عليها في أوّل «الوجودِ الإنساني»، بل نَشأَتْ له صِلاتٌ طبيعيّةٌ بمن كانوا قبلَه في سلسلة نسبة وبمن كانوا مَعَه في مُجتمعه ثمّ بما كان يَزيّنُ له عقلُه بين الحينِ والحين من الأحوال النفسية الشخصيّة.

وقبل أن آتِيَ إلى شرح ذلك والى الاستشهاد عليه من القرآن الكريم أريدُ أن أَضْرِبَ على ما أريدُ مثلاً واضحاً:

إنّنا إذا درسنا اليومَ أحوالَ ألفِ شجرةٍ من شجر التفّاح أو ألفِ شخصٍ من أشخاص الخيلِ (من الفصيلة الواحدة: العربية أو النورمانديّة، مثلاً)، لم نَجِدْ بين الشجرة والأخرى من شجر التفّاح أو بين الحِصان والحصان إلاّ فُروقا يسيرةً لا تكاد تُلْمَحُ: إنّ صِفاتِ أجسامها وحركةَ أجهزتِها وأنواعَ طعامها ومداواةَ أمراضها تجري على وتيرةٍ لا تكاد تَخِلّ. ولكن إذا نحن أتَيْنا إلى عشرةِ أشخاصٍ من أشخاص البشر في مِنطقة واحدة، وفي أُسرة واحدة أيضاً، وَجَدْنا بَيْنَهم من الفروق في الأجسام والأجهزة والأمراض والعادات في الطعام والشراب والنوم وحبِّ الحياة ما لا ينحَصِر في بابٍ واحدٍ ولا في أبوابٍ متقاربة. فما سببُ ذلك؟

إنّ للحيَوانِ حياةً طبيعيّةً واحدةً، وليس له حياةٌ نفسيّةٌ أوِ اجتماعيةٌ (إلاّ في نِطاق حياته الطبيعيّة)، ذلك لأنَّ الحيوانَ لم يُوهَبْ تلك الخاصّة التي تُسمّى «العقلَ» والتي يمكن أن تجعَلَه أحياناً يُهمِل في سلوكهِ تلك القوانينَ الطبيعية المحيطة به. إنّ في الحيوان غريزةً مُستقرّةً هي التي تُنَظِّمُ وقتَ طعامهِ

وشَرابهِ ورُقاده واستيقاظِهِ، وَهِيَ التي تُملي عليه حالاتِ صِحّته ومرضه وراحته وتَعبه وجِدّه ولَهْوه ومُعاشرة أُنْثاه والعنايةَ بأجرائه[1]. أمّا الإنسان فقد أتلَفَ هذه الغريزةَ الفِطْريّة فتَنَقّلَ في الطعام والشراب واللّهْو والشّهَوات بِحَسْبِ «خيَاله الإنساني» لا بِحَسْبِ حاجاته الطبيعيّة. وكثيراً ما يلجأ هذا الإنسانُ إلى وسائلَ ووسائطَ وغاياتٍ ليستْ من ضَروراتِ الحياة الإنسانية ـ ولا من ضَروراتِ الحياةِ أصْلاً، كالإدمان (على المُخدِّرات الخَفيفة والثقيلة)، مثلاً، وهذا الإدمان مُخالفٌ لطبيعة الحياةِ، إذ هو «إقامةُ الدواءِ مكانَ الغِذاء».[2]

ومن الأدلّةِ على ما سَبَقَ أنّ الشعوبَ الفِطريةَ أوِ البِدائية أقربُ إلى الحياة الطبيعية من الشعوب المُتحضّرة. وكُلّما اتّسعتِ الحضارةُ واستبحَرَ العُمرانُ وزادَ انغماسُ الناسِ في التّرَفِ اختلفتْ أحوالُ الناس الطبيعيةُ والنفسيّةُ والاجتماعية وزادتْ تنافُراً وبُعْداً عن المجرى الطبيعيّ في الحياة. وإنّ هذه الأحوالَ لم تُوصَفْ في القرآنِ الكريم وَصْفاً عارضاً، ولا قُرِّعَ الإنسانُ بها فقط، ولكنّها جاءتْ في القرآن الكريم لِتكونَ أمثلةً تُبنى عليها قواعدُ يُقْصَدُ بها الإصلاحُ.

---

(١) الأجراء (بسكون الجيم) والجراء (بكسر الجيم) جمع جرو (بفتح الجيم أو بكسرها أو بضمّها: ولد الحيوان (كالكلب وغيره).

(٢) في كثير من الاحيان يستطيع الفرد المدمن أن يستغني عن شيء من طعامعه ولا يستطيع الاستغناء عمّا ألفه من المخدّرات. ولقد اتّفق كثيراً أن نفرا من المدمنين (في أواخر حياتهم، قبل أن يدخلوا في الغيبوبة التي تؤدّي بهم إلى الموت) هجروا الطعام جلة أو عجزوا عن هضمه) واقتصروا على شرب القهوة وتدخين التبغ.

من أجلِ ذلك يجبُ أن ننظُرُ في الأحوالِ المحيطةِ بالإنسانِ قبلَ أن ننظُرَ في سُلوك الإنسان نفسِه: إنَ الانسانَ جُزءٌ من البِيئةِ التي يعيش فيها، وسلوكُه يختلفُ بآختلافِ الأحوالِ التي تُحيطُ به. إنّ وجودَ أفرادٍ يعيشون معاً - وهم من أعمارٍ مختلفة ومراتبَ اجتماعيّةٍ مختلفةٍ ومنازعَ نفسيّةٍ مختلفةٍ - تنشأُ لهم حاجاتٌ جَسَديّة مختلفةٌ وغاياتٌ في الحياة مختلفةٌ. وهذا كُلُّه واضحٌ في القرآن الكريمِ من حيثُ أنّ هذا كلَّه داخلٌ في البناء الآجتماعيّ للحياة الانسانية.

غيرَ أن التمييزَ بينَ الجانبِ الآجتماعيِّ من حياةِ الإنسانِ الفَرْدِ والجانبِ الآجتماعي نفسِه في حياةِ الطوائفِ من البشر عسيرٌ (لأنّ عناصِرَه وأشكالَه تتداخلُ). ومَعَ ذلك فنحن سنَمُرُّ هنا بهذا الجانبِ مرّاً خفيفاً قبلَ أن ننتَقِلَ إلى الفصل التالي المتعلّق بالمجتمع.

إنّ الحياةَ الاجتماعيّة في الإسلامِ قائمةٌ على أنّ الإنسانَ الفردَ مسؤولٌ عن كلّ ما يعمَلُ، ثـمّ إنّه سيَلْقى على ما يعمَلُهُ من خيرٍ خيراً وعلى ما يعمَلُه من شرٍّ شرّاً. وليسَ هنالك عمَلٌ للإنسانِ لا يُحاسَبُ الانسان عليه (في الدُّنْيا أو في الآخرة، أو فيهما كِلْتَيْهما).

في القرآن الكريم (٧٥: ٣٦، سورة القيامة)

«أيحسَبُ الإنسانُ أن يُترَكَ سُدًى[1]؟

ليس هذا السؤالُ سؤالاً آستفهاميّاً يسألُه الذي يريد أن يَعْرِفَ شيئاً كان

(١) سدى: هملا، مهملا (لا يكلّف بأمر من أمور الشرع أو لا يسأل عمّا يعمل).

يجهَلُه، بل هو (في عِلم البلاغة) «آستفهامٌ إنكاريٌّ» (جوابُه فيه): «إنَّ الإنسانَ لَن يُترَكَ سُدًى». إنّ كلَّ ما يفعَلُه الإنسانُ (مَهْما يصغُرْ) «يُسَجَّلُ» عليه ثمّ يُحاسَبُ به. قال الله تعالى (٥٠ : ١٨، سورة ق):

﴿ولقد خَلَقنا الإنسانَ ونعلَمُ ما تُوسْوِسُ به نفسُه[١]. ونحن أقربُ إليه من حبلِ الوَريد[٢] * إذ يَتَلَقّى المُتَلَقِّيانِ عنِ اليمينِ وعنِ الشِّمالِ قَعيدٌ[٣] * ما يَلْفِظُ من قَوْلٍ إلاّ لَدَيْهِ رقيبٌ عتيدٌ[٤] *﴾.

هذه الرَّقابةُ والمُحاسبةُ ضَروريَّتانِ، لأنّ الأحوالَ التي طرأتْ على الإنسانِ في أثناءِ حياتِهِ الطويلة، على هذه الأرضِ، قد بدّلتْ فِطرتَه الصافيةَ وأخْضَعَتْه لعواملَ جعلتْ تُبدِّلُ سُلوكَه بينَ الحينِ والحينِ صعوداً وهبوطاً أو خيراً وشرّاً. تلك حالٌ وُصِفَتْ في القرآن الكريم، في أولى السُّوَرِ التي نَزَلَتْ من القرآن الكريم (٩٦ : ٦ ـ ٧، سورة العَلَق):

﴿كَلاَّ، إنّ الإنسانَ لَيَطْغَى أنْ رَآهُ آسْتَغْنى﴾.

إنّ الطُّغيان هو الإسرافُ في السُّلوك السَّيِّءِ من الظُّلم والتَجَبُّر ومُجاوزةِ الحَدِّ فيما يجوزُ للإنسانِ فِعْلُه. ويكون ذلك حينما يشعُرُ الفردُ من الناس أنّه مُسْتَغْنٍ عن الذين حولَه. ومَعَ أن هذه الآيةَ قد نَزَلَتْ في أبي جَهْلٍ[٦] وفيما

(١) ما توسوس نفسه (ما تحدّثه به نفسه من الأماني وبنات الخيال)

(٢) في عنق الانسان الانسان (والحيوان أيضاً) وريدان (عرقان، مجريان للدم، واحد في كلّ جانب).

(٣) يقعد على كلّ كتف من كتفي الانسان ملك (بفتح ففتح: واحد الملائكة) يتلقّيان أعماله ويدونانها (ما كان منها خيراً وما كان منها شرّاً).

(٤) رقيب: مراقب، حافظ (لأعمال الانسان). عتيد: حاضر دائماً لا يغفل.

(٥) أبو جهل هو أبو الحكم عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشيّ من سادات قريش في =

يتعلَّقُ بالغِنى الماديِّ (وهو المالُ)، فإنّها تصدُقُ أيضاً على كلّ وجهٍ من وجوهِ الآستغناء (من القُوّة البدنيّة والمكانة الآجتماعيّة وكَثْرة الأتْباع وما الى ذلك). ومرَدُّ ذلك كُلِّه (في كلِّ حالٍ) إلى أنّ الفَرْدَ يُلهِيهِ هذا الآستغناءُ في حاضره عَمّا آتّفق له في ماضيه وعمّا يمكن أنْ يتّفِقَ له في المستقبل. وعلى ذلك قولُه تعالى (٣٦ : ٧٧، سورة يّسّ؛ راجع ١٦ : ٤، سورة النحل):

﴿أوَ لَمْ يَرَ الإنسانُ أنّا خَلَقْناه من نُطْفةٍ فإذا هو خَصيمٌ مُبين[١] * وضَرَبَ لَنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَه، قال: مَنْ يُحيِي العِظامَ وَهِيَ رَميم؟[٢] * قُلْ: يُحْيِيها الذي أنشأها أوّلَ مَرّةٍ، وهُوَ بكُلِّ خَلْقٍ عليم * : الّذي جَعَلَ لَكُمْ من الشَّجرِ الأخضر ناراً، فإذا أنْتُمْ منه تُوقِدون﴾ *

هذا النِّسيانُ في الإنسانِ للماضي، إلى جانب الغَفْلة فيه عمّا يُمْكن أن يَؤولَ (يَحور، يدورَ، يَرْجِعَ) إليه أمرُه، يدفَعُه في جميع أبوابِ الآستعلاءِ والآستبداد ويُدلّيه في الغُرورِ[٣] فيتوَهّمُ أنّه قادرٌ على أن يفعَلَ كُلَّ شَيْءٍ وأنّه بِمَنْجاةٍ من الأذى في كلِّ وجهٍ من وجوهِ الحياة. غير أن هذه الغَفلةَ عنِ

الجاهليّة كان شديد العداوة لمحمّد رسول الله وللمسلمين أنفق أموالا كثيرة في معركة بدر (سنة ٢ هـ = ٦٢٤ م) وقتل فيها. ولذلك نقل «لقبه» من «أبي الحكم» إلى «أبي جها

(١) نطفة: منّي (ماء الرجل والمرأة). الخصيم: شديد الخصومة. المبين: الظاهر، الواضح، المعلن (للخصومة).

(٢) .ميم: بالية، مفتّتة بمرور الزمن.

(٣) ـلّى فلان فلانا: أنزله (كما يدلّي الحبل في بئر)، خفضه عن رتبة الانسانية. الغرور: الخداع، الجهل (وأن يرى الانسان لنفسه فوق ما لها من القدرة).

المستقبل في سُلوك الإنسان تُلقيهِ في كَبَدٍ (تَعَبٍ وشِدّة). ونحن نَجِد تفصيلَ ذلك في الآياتِ التالية (٩٠: ٤ ـ ١١، سورة البلد):

﴿لقد خَلَقْنا الإنسانَ في كَبَدٍ * أَيَحْسَبُ أنْ لن يَقْدِرَ عليه أحَدٌ؟ * يقولُ: أهْلَكْتُ مالاً لُبَداً * أيَحْسَبُ أنْ لم يَرَه أحدٌ[١]؟ * ألَمْ نجعَلْ له عَيْنَيْنِ * ولِساناً وشَفَتَيْنِ * وهَدَيْناه النَّجْدَيْنِ[٢]؟* فلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ[٣]؟*.

في أثناء هذه الحِقبة من الغَفْلة يكونُ الفرد من البشر كَفُوراً أو كَفّاراً (شديدَ النُّكرانِ لِنِعْمة اللهِ عليه). ثـمّ يُدْرِكُ أنّه في سُلوكه على غيرِ الصَّواب، فَيَعِزُّ عليه أن يُقِرَّ بذلك على نَفْسِه، فيأخُذُ في الجِدال لِتَسْويغِ ذلك السُّلوكِ الخاطىء، مَعَ أنّ الحقّ واضحٌ أمامَ عَيْنَيْهِ، ومَعَ أن الله تعالى قد بَيَّنَ للناسِ طريقَ الصَّواب بالمَثَلِ المَضْروب وبالأحداثِ الواقعة. وذلك قولُه تعالى (١٨: ٥٤، سورة الكهف):

﴿ولقد صَرَّفْنا في هذا القرآن للناسِ من كلِّ مَثَلٍ. وكانَ الإنسانُ أكثرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾.

غيرَ أنّ الإنسان يُصِرُّ على عِنادِه. ثـمّ إذا هو سَكَتَ عن كُفْرانِ نِعمةِ

---

(١) أهلكت مالا لبداً: أنفقت مالا كثيراً (باسراف).

(٢) النجدان: سبيل الخير وسبيل الشرّ. هديناه النجدين (بيّنّا للانسان طريق الخير وطريق الشرّ).

(٣) فلا اقتحم العقبة؟ فهلاّ (أما كان الأفضل له) اقتحم (تجاوز، ترك) العقبة (المسلك الوعر: طريق الشر).

خالقِهِ عليه بِلِسانه، فإنَّ أعمالَه تَدُلُّ على ذلك دَلالةً واضحةً (١٠٠ : ٦ - ٨).

﴿إنّ الإنسانَ لِرَبّهِ لَكَنودٌ[١] * وإنّه على ذلك لَشهيدٌ[٢] * وإنّه لِحُبِّ الخَيْرِ لَشديدٌ *[٣]﴾.

ولكنْ سَرْعانَ ما يَقَعُ الإنسانُ في ضيقٍ ويُدركُ عَجْزَه عنِ التخلّص من ضيقه إلاّ بِعَوْنٍ خارجيّ، فيلجأُ حينَئِذٍ إلى الله. ثـمّ إذا كَشَفَ الله عنه ذلك السوءَ، نَسِيَ ما كان فيه وعادَ إلى إسرافه الأوّل (١٠ : ١٢، سورة يونس):

﴿وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبه أو قاعداً أو قائماً[٤]. فلـمّا كَشَفْنا عنه ضُرَّه مَرَّ كأنْ لم يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّه. كذلك زُيِّنَ للمُسرفين ما كانوا يعْمَلون﴾ * (راجع أيضاً ٣٩ : ٨، ٤٩، سورة الرمز).

ثـمّ تكثُرُ الآياتُ التي تذكُرُ أن الإنسانَ يُحِبُّ الخيرَ لنفسه. ولكن إذا أنْعَمَ اللهُ عليه بخيرٍ، وفَرِحَ بذلك الخيرِ، لم يَذْكُرْ أنّ اللهَ تعالى هو الذي أنعمَ عليه بذلك الخير، بل نَسَبَ حُصولَ ذلك الخيرِ إلى مَقْدِرتهِ هو وإلى سَعْيِ نفسِهِ (راجع ١١ : ٩، سورة هود؛ ١٧ : ١١، ٦٧، ٨٣، سورة الاسراء؛ ٤١ : ٤٩ - ٥١، سورة السجدة أو فصّلت؛ ٤٢ : ٤٨، سورة الشورى).

---

(١) الكنود: الجاحد للنعمة والمنكر للفضل.

(٢) وانّه على ذلك لشهيد (انّ الانسان يدلّ بأعماله على كفران نعمة الله عليه).

(٣) لحبّ الخير (المال) شديد (يحبّ أن يجمع المال من كلّ وجه وبكل وسيلة من غير أن ينفقه بعد ذلك في وجوهه).

(٤) لجنبه أو قاعداً أو قائماً (في كلّ حال من أحواله، دائماً).

ولكن رُبّما ذَكَرَ الإنسانُ نِعْمَةَ الله عليه أمامَ الناسِ من بابِ الفخر بأنّ الله خَصّه بخيرٍ دونَ سائرِ الناس. وكذلك ربّما شكا الإنسان أمامَ الناسِ أيضاً من السوء الذي يَنْزِلُ به آستدراراً لرحمةِ الناس (٨٩ : ١٥ ـ ١٦، سورة الفجر):

﴿فأمّا الإنسان إذا ما آبْتلاهُ رَبُّه فأكْرَمَهُ ونَعّمه، فيقولُ: ربّي أكْرَمَن[١] * وأما إذا ما آبتلاه فَقَدَرَ عليه رِزْقَه، فيقولُ: رَبّي أهانَنِ﴾[٢] *.

* * *

غيرَ أنّنا لا يجوزُ لنا أن نلومَ الفردَ من الناس على ما يُبدي من ذلك كُلّهِ، ذلك لأنّ الفردَ من الناس حينما وَجَدَ نفسَه عِرْضَةً لِقَسْوةِ القوانين الطبيعية حولَه ثـمّ وَجَدَ نفسَه أيضاً (وفي مُعْظَمِ الأحوال) عاجزاً عَنِ الثّبات في وجهِ تلك الأحوالِ الـمُختلِفة التي لم يستطعِ السَّيطرةَ عليها، سَلَكَ هذا المَسْلَكَ الـمُتَرَدِّدَ الـمُتناقِضَ مَعَ مَيْلِـهِ إلى تَغْطِيـةِ شيء مـن عَجْـزِه بشيء من الدَّعْوى يظهَرُ بها مُتَماسِكاً أمام أنْدادِهِ. من أجل ذلك آستحقّ هذا الإنسانُ الرحمةَ مِنَ الله فقالَ الله فيه:

ـ ﴿يُريدُ اللهُ أنْ يُخَفِّفَ عنكم، وخُلِقَ الإنسان ضعيفاً﴾ (٤ : ٢٨، سورة النساء). ـ ثم ٧٠ : ١٩ ـ ٢٣:

---

(١) أكرمن = أكرمني. ابتلى الله الانسان: اختبره. قدر عليه رزقه: جعل رزقه قليلا. أهانن= أهانني.

(٢) القرآن الكريم ٧٠ : ١٩ ـ ٢١، سورة المعارج. الهلوع: الشديد الجزع (الخوف مع الاضطراب).

ـ إنّ الإنسانَ خُلِقَ هَلوعاً * إذا مَسَّهُ الشرُّ جَزوعاً [١] * وإذا مَسَّهُ الخيرُ مَنوعاً [٢] * إلاّ المُصَلّينَ * الذين هم على صَلاتِهِمْ دائمون *

دعوة الانسان الى التفكير

رأينا من قبلُ (ص ٨٥ ـ ٨٦) أنّ الإنسانَ قد وُهِبَ العقلَ. ولكنّ هـذا العقلَ في الانسان ليس حِليةً كالحُلى التي تلبَسُها النساءُ في آذانِهِنَّ وأعناقِهِنَّ أو كتلك التي يَحْمِلُها نفرٌ من الرجال على صدورِهم وفي أصابعِ أيديهم. إنّ هذا العقلَ في الانسان قوّةٌ يجب على الإنسانِ أن يستفيدَ منها وأن يُفيدَ بها أبناءَ جنسِهِ أيضاً. من أجل ذلك دُعِيَ الإنسانُ إلى التفكير بهذا العقل الذي كان هِبَةً خاصّةً له. وكذلك كان الانسانُ يُذَكَّرُ ـ مرّةً بعدَ مرّةٍ ـ بهذه الهِبَةِ العظيمة التي هي العقل، على الاّ يَغْتَرَّ بعقلِه فيظُنَّ أنّه قادرٌ على أن يُخالفَ بهِ قوانينَ الوجودِ الطبيعيّ أو يعبَثَ بأحكامِ الوجود الاجتماعيّ. ولا شكَّ عندنا في أنّ العملَ الأوّلَ للتفكير في الإنسان إنّما هو محاولةُ فَهْمِ هذه الأحكامِ الاجتماعيّة وفهم تلك القوانينِ الطبيعيّة. وإلاّ فكيف يستطيعُ أحدٌ أن يعمَلَ عملاً صالحاً بالقوانين والأحكام إذا كان لا يفهَمُها؟

والعقلُ قوّةٌ عامّةٌ تنظُرُ في الوجود نَظَراً شاملاً جامعاً، وقريبٌ من ذلك الفِقهُ. أمّا الفِكرُ (أو التفكير) فإنّه قُدرَةٌ عَمَلُها النظرُ في مُفْرداتِ الموجودات وفي الأحداث المتفرّقة.

---

(١) الهلوع والجزوع (في الحاشية السابقة: على الصفحة السابقة).

(٢) المنوع: الذي يبخل بما يملك.

فالعقلَ ينظُرُ نظَراً عاماً تَكْفيه من موضوعهِ الإشارةُ (٢٣: ٧٨ - ٨٠، سورة المؤمنون):

- وهُوَ الذي أنشأ لَكُمُ السَّمْعَ والأبصارَ والأفْئِدَةَ،
قليلاً ما تشكُرون *
وهُوَ الذي ذَرَأَكُمْ في الأرض،[1]
وإليه تُحشَرون *
وهُوَ الذي يُحيي ويُميت،
ولَهُ آختلافُ اللَّيْلِ والنّهارِ[2]؛
أفَلا تَعْقِلون؟*

والعقلُ أيضاً قُوّةٌ تُساعدُ على «الآستقراء» (على جَمْعِ المعارفِ المُختلفة من أشياءَ مُتفرّقةٍ لإصدارِ حُكْمٍ عَمَلِيٍّ نافعٍ أو لآسْتِخلاصِ عِبْرةٍ (٣: ١١٨، سورة آل عمران):

- يا أيُّها الذين آمَنُوا،
لا تَتَّخِذوا بِطانةً مِنْ دُونِكم لا يألونَكُمْ خَبالاً[3]:
وَدّوا ما عَنِتُّمْ[4].

(١) الأفئدة جمع فؤاد (القلب): أي العقل وقواه المختلفة من التفكير والحكم في الأمور وتمييز الخير من الشرّ. وهو الذي ذرأكم: خلقكم ثمّ جعلكم تتكاثرون (ويكون لكم ذرّية).

(٢) وله (لله القدرة والحكم) على جعل الزمن ليلا ونهاراً يختلفان طولا وقصراً (بحسب المناطق والفصول) وطبيعة (من نور وظلام بحسب حاجتكم الى العمل أو الى الراحة).

(٣) بطانة: أصدقاء، رفاق (يطلعهم الإنسان على دخيلة نفسه وعلى أسراره). لا يألونكم: لا يقصّرون (لا يتورّعون عن) نصب الشر لكم. الخبال: الفساد.

(٤) ودّوا (هم يودّون: يريدون) كلّ ما يعنتكم (يجعل لك شقاء في الحياة).

قد بَدَتِ البَغْضاءُ من أفواهِهِمْ،
وما تُخفِي صُدورُهم أكْبَرُ.
قد بَيّنّا لَكُمُ الآياتِ إنْ كنتُم تَعْقِلون * .

وهنالك آية أكثرُ إيجازاً وأوسعُ نِطاقاً، هي (٥٧: ١٧، سورة الحديد):

اَعْلموا أنّ اللهَ يُحيي الأرضَ بعدَ مَوْتِها؛
قد بَيّنّا لَكُمُ الآياتِ لَعَلّكُم تَعْقِلون *

وكذلك هنالك آيةٌ أكثرُ تفصيلاً من حيثُ النِّطاقُ ومن حيثُ الأمثِلةُ المضروبةُ من عالَمِ الطّبيعة ومِنَ المُجتمع الإنسانيّ، ولا بأسَ في إيرادِ الآيةِ بكامِلِها لِما فيها مِنَ التفاصيل المُفيدة (٢٤: ٦١، سورة النور):

ليس على الأعمى حَرَجٌ ولا على الأعرج حَرَجٌ ولا على المريض حَرَجٌ[1]،
ولا على أنفُسِكم أن تأكُلوا من بِيُوتِكُمْ
أو بيوتِ آبائكم أو بيوتِ أُمّهاتكم،
أو بيوتِ إخوانكم أو بُيوتِ أخَواتكم،
أو بيوت أعْمامِكم أو بيوت عَمّاتِكم،
أو بيوتِ أخوالِكم أو بُيوت خالاتِكم،
أو ما مَلَكْتُم مَفاتِحَه أو صديقِكم[2]؛

---

(١) الحرج: الضيق، الإثم (بالكسر)، الذنب.

(٢) ما ملكتم مفاتحه (ما لم يكن لكم، ولكن كنتم أنتم تقومون على حراسته وخزنه لغيركم ـ كما يجوز للعامل على الزكاة أن يأكل منها بالمعروف: اذا كان أحد مكلّفا بحراسة أرزاق =

ليس عليكم جُناحٌ أن تأكُلوا جميعاً أو أشْتاتاً.
فإذا دَخَلْتُمْ بيُوتاً فسَلّموا على أنْفُسِكُمْ[1]
تَحيّةً من عندِ الله مُباركةً طيّبةً.
كذلك يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلّكُمْ تَعْقِلون *

ومِنَ العَقْلِ للأمورِ (فَهْمِ الأمورِ فَهْماً عامّاً) الفِقْهُ. وتَسْتَغْلِقُ الأمورُ على الإنسان إذا كان لا يَعْرِفُ لُغَةَ قومٍ آخرينَ أو إذا كان يُلاحِظُ أموراً جامدةً لا لُغَةَ بَشَريّةً لها (١٧ :٤٤ ، سورة الاسراء ؛ ١٨ :٩٣ ، سورة الكهف)، ذلك لأنّ الأمورَ الجاريةَ في عالَم الطبيعة وعالَمِ الاجتماع لا يُدْرِكُها إلاّ «الفَقيهُ» (العالِمُ) ثمّ لا فائدةَ من كَشْفِها أو عَرْضِها إلاّ على الفقيه العالِمِ (راجع ٦ :٦٥، ٩٨ ، سورة الانعام).

ولا يَكْفي أن يكونَ للمخلوق صورةٌ بَشَريّةٌ وأعضاءٌ بشريّةٌ حتّى يَفْهِمَ الأمورَ أو يرى الأشياءَ أو يسمَعَ الأصواتَ. رُبّما كان للمخلوق «على الصورة البشريّة» كلُّ هذه الأعضاء ثمّ لم يَنْتَفِعْ بها لأنّها هي مُعَطّلةٌ أو لأنّه هو لا يُريد أن تعمَلَ هذه الأعضاءُ عَمَلَها الطّبيعيّ. ففي القرآن الكريم (٧ :١٧٩ ، سورة الأعراف):

= لآخرين، ولا عمل له آخر، فيجوز له أن يأكل من تلك الأرزاق). ويجوز أن يأكل الانسان (اذا اتّفق أن كان جائعاً ومرّ ببيت صديق بينه وبينه مودّة) أن يأكل من بيت ذلك الصديق (ولو لم يكن ذلك الصديق موجودا ساعتئذ في البيت).

(١) فإذا كان في تلك البيوت أهلها فألقوا السلام على أهلها. وإن لم يكن أهلها فيها، فقولوا: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

ولقد ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كثيراً من الجِنِّ والإِنْس[1]،
لَهُمْ قلوبٌ لا يفقَهون بها[2]،
ولهم أعيُنٌ لا يُبْصِرون بها،
ولهم آذانٌ لا يسمَعون بها.
إنْ هُمْ إلاّ كالأنعام[3]؛
بل هُمْ أضَلّ أولئكَ هُمُ الغَافلون*.

إنّ أمثال هؤلاء أسوأ في الحياةِ حَظّاً من الأنعام (البهائم)، ذلك لأنّ البهائمَ مَعذورةٌ إذا لم تُدْرِكِ الأمورَ (وهي لا تَمْلِكُ أسبابَ الإدراك لهذه الأمور). أمّا الإنسانُ الذي رُزِقَ كُلَّ هذه الأسباب أوِ الأعضاءِ التي تُمَكّنُ صاحبَها في العادة من إدراكِ الأمورِ، فانّه لا عُذْرَ له في أن يسلُكَ في أعماله مسلَكِ الحَيوان الأعجم.

ورُبّما كان للفرد من بني الإنسان أعضاء سليمةٌ، ولكنْ قد لَحِقَها - لِسَبَبٍ من الأسباب - نَقْصٌ أو طرأ عليها طارىء من مرضٍ أو من أذًى، فبَطَلَ الإدراكُ في نَفْسِ هذا الفرد. والتعبيرُ القُرآنيّ عن هذه الحال في الإنسان قولُه تعالى (٩: ٨٧، سورة التوبة أو براءة): ﴿... وطُبِعَ على قُلوبِهِم[4] فهُمْ لا يفقَهون﴾ (راجع ٦٣: ٣ وغيرها).

---

(١) ذرأ: خلق ثمّ زاد الذين خلقهم عدداً وجعل لهم نسلا وذرّيّة لجهنم (أي مصرّون على ضلالهم).

(٢) لهم قلوب (عقول) لا يفقهون (يفهمون) بها.

(٣) للأنعام الحيوانات الأليفة النافعة: كالخيل والبقر والدجاج.

(٤) طبع على قلوبهم: ختم عليها بالكفر (بالعناد) الذي يمنع صاحبه من رؤية حقائق الأمور.

وفي عدد من الأحوال يرفُضُ الفردُ من بني الانسان أن يفهَمَ الأمورَ على وَجْهِها الصحيح أو على وجهها المطلوب. ولَعَلّ هذا الفردَ قد فَهِمَ ما رأى، ولكنّه يُصِرّ على عِناده في أن هذا الذي يراه لا يَدُلّ على ما يَظْهَرُ منه (٦: ٢٥، سورة الانعام):

ومِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إلَيْكَ؛
وجَعَلْنا على قُلوبهم أكِنَّةً أن يفقَهوهُ[١]؛
وفي آذانِهِمْ وَقْراً[٢].
وإنْ يَرَوْا كُلّ آيةٍ لا يُؤمنوا بِها[٣]،
حتّى إذا جاءوكَ يُجادِلونك يَقولُ الذين كَفَروا:

إنْ هذا إلاّ أساطيرُ الأوّلين[٤] * (راجع ١٧ :٤٦، الاسراء و ١٨ :٥٧، الكهف ثـمّ ١١ :٩١، سورة هود، ٤ :٧٨، النساء).

ثـمّ هنالك كَلِمتانِ تَردانِ في القرآن الكريم ولَهُما بالعقل صِلَةٌ: التّدبُّرُ والتَفَكُّر. أمّا التدبُّرُ فهو ترديد النَّظر في الأمورِ حتّى يَعْرِفَ المُتدبّرُ مَرامِيَ تلكَ الأمورِ وما تدُلُّ عليه تلك الأمورُ. والإشارة الى ذلك ترد في آيات منها (٤٧ :٢٤، سورة محمّد): ﴿أفلا يتدبّرون القرآنَ، أم على قلوبٍ أقفالُها؟﴾ ثـمّ (٤ :٨٢، سورة النساء): ﴿أفلا يتدبّرون القرآن؟ ولو كان من عند غير الله لَوجدوا فيه آختلافاً كثيراً﴾.

(١) الأكنة جمع كن: غطاء، ستر.
(٢) الوقر: الصَمَم (ذهاب السمع).
(٣) الآية: الدليل، المعجزة.
(٤) أساطير: قصص (أخبار عن القدماء مخالفة للعقل وللواقع).

والفِقهُ أوِ التَفقُّهُ في الدين وفي اللّغة وفي التاريخ وفي الآقتصاد وفي الأدب وغيرِ ذلك يحتاجُ الى طَلَبٍ للعِلم بكلّ ذلك. وفي القرآن الكريم حثٌّ للإنسان على أن يَتفَقّهَ فيما يَنْفَعُه. ومعَ أن الآيةَ التي سيأتي الآستِشْهادُ بها هنا تذكُرُ الدِّينَ بلَفْظهِ، فإنّها هنا مَثَلٌ لِسائرِ الأمور المُنْطَوِية في العلم. إنّنا نقرأُ في القرآن الكريم (٩ :١٢٢، التوبة): ﴿وما كان المُؤمنونَ لِيَنْفِروا كافّةً. فلولا نفَرَ من كلّ فِرقَةٍ منهم طائفةٌ؛ لِيَتَفقّهوا في الدين، ولِيُنْذِروا قومَهم إذا رَجَعوا إلَيْهم، لَعَلّهُمْ يَحْذَرون﴾[١] *

وأمّا التَفكّرُ أوِ التفكيرُ فهو إعْمالُ الرأيِ، أي آستخدامُ العقلِ لِفَهْم ما يرى الإنسان بعَيْنهِ الطبيعيّة فَهْماً معنوياً. وهنا تأتي الآيتانِ التاليتانِ من سورة آلِ عِمرانَ (٣ :١٩٠ - ١٩١).

انّ في خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وآختلافِ اللّيْلِ والنّهارِ
لآياتٍ لأُولى الألْباب *
الّذين يذكُرون اللهَ قِياماً وقُعوداً وعلى جُنوبِهِمْ[٢]:

---

(١) وما كان المؤمنون لينفروا كافّة (ليخرجوا إلى الجهاد جميعُهم)، فيكفي أن يخرج للجهاد جماعة من كلّ قبيلة. ثمّ يبقى الآخرون في البلد يتعلّمون أمور الدين وأمور الدنيا، فإذا رجع أولئك الذين كانوا قد ذهبوا الى الجهاد استطاعوا أن يتعلّموا من هؤلاء الذين كانوا قد بقوا وتعلّموا. ويجب أن يحذر المسلمون من مخالفة أمر الله: لا يجوز لهم ان يبالغوا في القيام بالعبادة على وجه من الإغراق (على الإنسان أن يصلّي الأوقات المكتوبة. ومن الخير أن يزيد عليها قليلا. ولكن لا يجوز أن يقصر حياته على الصلاة ثم يترك السعي والعمل فيما ينفعه وينفع اخوانه).

(٢) على الإنسان أن يذكر الله دائماً (في الأحوال التي يستطيعها). فإذا عجز مثلا عن ذكر الله (الصلاة) قائماً، صلّى قاعداً. وإذا عجز عن القعود صلّى مضطجعاً على أحد جنبيه (المهمّ

ويتفكّرون في خلق السموات والأرض.
رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً.
سُبْحانَك فَقِنا عذابَ النار[1] *
ومثل ذلك أولوا الألباب.

وأولوا الألباب هُمُ الذين وُهِبوا عَقْلاً يَسْتَحِقّون به أن يُخاطَبوا في أمورِ العِلم وأمورِ الحياة ثم يَرْبِطوا ما يبدو لأعْيُنِهم بما غابَ عن أعْيُنِهم مِمّا يحتاجون إليه في سُلُوكِهِمُ النافعِ لهم في هذه الحياة الدُّنيا وفي الحياة الأُخرى أيضاً. وفي القرآن الكريم آياتٌ كِثارٌ تَتَوَجّهُ بالخِطاب إلى «أُولي الألبابِ» (أو أصحابِ العُقول الناضجة).

= أن يكون ذكر الله حاضراً في قلب المؤمن في كلّ وقت وفي كلّ مكان وفي كلّ حال من أحواله).

(١) قنا (من «وقي») عذاب النار: احفظنا من الأعمال التي نعاقب عليها بدخول جهنّم.



العُمران[1] أو الاجتماع الإنساني في الإسلام

للحياة الإنسانية جانبانِ أساسيّانِ : حياةُ الإنسان بَيْنَه وبينَ نفسِه ثمّ حياتهُ بينَ سائرِ البشر من أبناء قَوْمِهِ ومن غير أبناءِ قومِهِ، في أرضِهِ التي نشأ فيها وفي كُلّ أرضٍ يَتّفِقُ له أن ينتَقِلَ إليها.

يَرِدُ في التوراة لفظُ أُمّة ولفظُ أُمَمٍ ولفظ شعبٍ ولفظ شُعوبٍ من غيرِ تفريق واضحٍ بينَ هذه الألفاظِ كُلّها. وإنّ عدداً كبيراً من ألفاظِ «أمّة» وألفاظِ «أُمَمٍ» جُعِلَ في الطبعات الـمُصْلَحَةِ «شعباً» أو «شُعوباً» (أمّا في الإنجيل فَنُقِلَتْ لَفظةُ «شُعوبٍ» إلى لفظة «جُموعٍ»).

أمّا كَلِمةُ «أُمّةٍ»، كما تَرِدُ في التوراة فيُمكِنُ أن تَعْنِيَ أحَدَ أربعةِ أشياءَ :

- جميعَ السُّكّان في بلادٍ ما.

---

(١) العمران هو الاجتماع الانساني، وهو ـ كما نظر إليه ابن خلدون نوعان بدوي وحضري. ومع أنّ الثاني يتطوّر من الأول، فإنّ النوعين ما زالا موجودين معا. ولم يكن نفر من علماء أوروبّا على حقّ حينما قالوا : إنّ أدوار الاجتماع الانساني تتعاقب: يرتفع السابق ليحلّ محلّه اللاحق، كما قال هيغل الألماني (ت ١٨٣١ م) وأوغست كونت الفرنسي (ت ١٨٥٧ م)، مثلاً.

ـ بلاداً أو مُلْكاً (بالضم: مَمْلكةً).

ـ بَلَدِيّين (مُوْلودينَ في بلادٍ مُعيّنة).

ـ الوَثنِيّينَ أو غيرِ اليَهودِ.

وأمّا كَلِمةُ أُسْرةٍ فلا تَرِدُ في العَهْدِ القديم (التوراة) ولا في العهد الجديد (الانجيل).

والذي نستطيعُ أن نقولَه إن هذه الألفاظَ ـ بالإضافة إلى أنّها غيرُ واضحةِ المعاني ـ لا تدُلُّ بِنَفْسِها على مدركٍ سياسيٍّ، كما نَعْرِفُ في علم السياسة قديماً وحديثاً. من أجل ذلك نستطيعُ أن نقولَ أيضاً إننا لا نَجِدَ فيهما شيئاً يدُلُّ على فِكرة العُمران البَشَريّ أو مَدْركِ الاَجتماعِ الإنساني. وإذا كنّا نَقَعُ في التوراة على عددٍ من الوصايا الباتّة الجازمة فيما يتعلّقُ بأوجُهٍ من وجُوهِ القانون الجَزائي وقانون الزَّواج والطَّلاق (والتي لا يمكن أن تُسَمَّى «قوانينَ اَجتماعيّةً» في عُرْفِنا الحاضر)، فإنّ الإنجيل لم يَعْرِضْ قَطُّ لأمرٍ من أمور التَّنْظيمِ في هذه الحياة الدُّنيا.

وفي القرآن الكريم يأتي لَفظُ «أمّة» على معانٍ

ـ الجماعةُ الكبيرةُ من الناس أو من الحَيَوان: «وما مِنْ دابّةٍ في الأرض ولا طائرٍ يَطيرُ بجَناحَيْهِ إلاّ «أُمَمٌ» أمثالُكم[1]» (٦ : ٣٨، سورة الانعام).

(١) إنّ أحوال الحيوان (الدوابّ والطيور) تشبه في خلقها ورزقها وأحوالها جماعات الناس (يؤلّف كلَّ نوع من الحيوان جماعة يتشابه أفرادها، فيما بينهم ـ في الصفات والأحوال كما تتشابه جماعات البشر).

ـ جماعةٌ صغيرةٌ من قومٍ: ﴿ومِنْ قَوْمِ موسى أُمّةٌ يَهْدون بالحقّ وبه يَعْدِلون[1]﴾ (٧: ١٥٩، سورة الأعراف)؛ ﴿ولَـمّا وَرَدَ[2] ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عليه أُمّةً من الناس يَسْقون﴾ (٢٨: ٢٣، سورة القصص)؛ ﴿ولْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمّةٌ يَدْعون إلى الخير ويأمُرون بالمعروف ويَنْهَوْنَ عن الـمُنكر. وأولئك هُمُ الـمُفلحون﴾ (٣: ١٠٤، سورة آل عمران).

ـ إمامٌ قُدوَةٌ (يَقْتَدي الناسُ به لِصَلاحه ولِصَواب مَنهَجِهِ في الحيـاة): ﴿إنّ إبراهيمَ كان أُمّةً قانِتاً لله حَنيفاً[3]، ولم يَكُ من الـمُشركين﴾ (١٦: ١٢٠، سورة النحل).

ـ مُدّةٌ من الزمن: ﴿وَلِئِنْ أخّـرْنـا عَنْهُـمُ العَـذابَ إلى أُمّـةٍ معـدودةٍ لَيَقولُنَّ: ما يَحْبِسُه؟ ألا يَوْمَ يأتيهم ليسَ مصروفاً عنهُمْ. وحاقَ[4] بِهِمْ ما كانوا به يَسْتَهْزِئون﴾ (١١: ٨، سـورة هـود)؛ ﴿وقـالَ الّذي نَجـا مِنْهُما وادّكَرَ بعدَ أُمّةٍ[5]: أنا أُنَبِّئُكُمْ بتأويلِهِ، فأرسِلونِ﴾ (١٢: ٤٥، سورة يوسف).

إلى هُنا لا نَجِدُ في معاني «أُمّةٍ» مَدْرَكاً اجتماعياً. ثـمّ يَرِدُ لَفْظُ «أُمّةٍ»

---

(١) يعدلون (يحكمون بالحق كما علّمهم الله).

(٢) ورد: جاء، جاء الى موضع الماء ليشرب أو يستقي (يملأ وعاء معه).

(٣) كان أمّة (اماما يجمع صفات الخير) قانتا: مطيعاً، عابداً لله. حنيفاً: مائلاً إلى الدين الخالص (وان لم يكن يتبع مذهباً معيّناً) وإلى السلوك العاقل الكريم في الحياة العملية.

(٤) حاق بهم: أحاط بهم (نزل بهم) ما كانوا به يستهزئون: نزل بهم العذاب الذي كانوا ينكرون وجوده.

(٥) ادّكر: تذكّر. أمّة: مدّة من الزمن.

في القرآن الكريم مُتَعَلِّقاً بالمدرك الآجتماعيّ على دَرَجات مُتتالية:

- الأمة: جماعةٌ مُتَمَيِّزَةٌ من الجماعات الأُخرى: ﴿ويوم نبعَثُ في كُلِّ أمّةٍ شهيداً عليهم من أنفُسِهم، وجِئْنا بك شهيداً على هؤلاء....﴾ (١٦: ٨٩، سورة النحل).

- مجموعٌ من الناس على مَنْهجٍ واحدٍ في الحياة، على ملّةٍ ذاتِ نِظْرةٍ مُعيّنةٍ في الحياة: ﴿بل قالوا: إنّا وَجَدْنا آباءنا على أُمّةٍ، وإنّا على آثارِهم مُهْتدون﴾ (٤٣: ٢٢، راجع ٢٣، سورة الزخرف).

- مجموعٌ من الناس على مَنْهَجٍ دينيٍّ واحدٍ، على شَكْلٍ من أشكال العِبادة: ﴿وَلِكُلِّ أُمّةٍ جعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُروا آسْمَ اللهِ على ما رَزَقَهُمْ من بَهيمة الأنعام. فإلٰهُكُمْ إلٰهٌ واحدٌ، فَلَهُ أسْلِموا. وبَشِّرِ الـمُخْبِتين﴾[1] (٢٢: ٣٤)؛ والإسلامُ خيرُ هذه المناهجِ. وهنا يبدا المدركُ الآجتماعي يَتَّضِحُ، ذلك لأنَّ الإسلامَ هُوَ آخِرُ الأديان في الزّمن، فهُوَ لذلك أتمُّ الأديان، ما دام الدّينُ يأتي لِنَفْعِ الناسِ في حياتِهِمُ الدُّنيا وفي حياتهم الأُخرى. وما دام الإنسان نفسُه يتطَوَّرُ (يَرْقى من طَوْرٍ إلى طور أعلى منه بعاملِ الزمن وبعواملَ أُخرى: منها الآحتكاكُ بجماعاتٍ بشريّة وبنُشوء حاجاتٍ جديدةٍ وبآتساعِ أُفُقِ الإنسان في المعرفة وغيرِ ذلك)، فلا بُدّ مِنْ أن يكونَ الدّينُ في كُلِّ شكلٍ لاحقٍ أتَمَّ (أجمعَ وأكثرَ آستجابةً لِحَلِّ مشاكلِ الإنسان) مِنهُ في كلّ شكلٍ سابق. من أجل ذلك جاء في القرآن الكريم (٢٢: ٦٧، سورة الحجّ):

---

(١) المخبت: المطيع، المتواضع.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسكاً هُمْ ناسِكوهُ،[1]
فلا يُنازِعُنَّكَ في الأمر.[2]
وٱدْعُ إلى رَبِّكَ. إنّكَ لَعَلى هُدًى مُستقيمٍ﴾.

المسلمون أمّة واحدة

إنّ الإسلامَ نِظامٌ ٱجتماعيٌّ كاملٌ (ينظُرُ في حاجات الإنسان في الدنيا وفي الآخرة ومن جميعِ وُجوهِ الحياة). من أجل هذا صَلَحَ الإسلامُ أنْ يكونَ أساساً يقوم عليه مدرَكُ «الأمّة» في الحياة الاجتماعيّة: ﴿رَبَّنا، وٱجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لكَ، ومِنْ ذُرِّيَّتِنا أمّةً مسلمةً لك؛ وأرِنا مَناسِكَنا....﴾ (٢: ١٢٨، سورة البقرة). ولَقدِ ٱسْتَجِيبَتْ هذه الدعوةُ الـمُخلصة، فجاء في القرآن الكريم (٢١: ٩٢، سورة الانبياء؛ ٢٣: ٥٢، المؤمنون):

﴿إنّ هذه أُمّتُكُمْ أُمّةً واحدةً. وأنَا ربُّكُمْ فٱعْبِدون﴾.

والمسلمون ليسوا أمّةً في أنفُسِهم فقَطْ، بل هم أمّةٌ وَسَطٌ بينَ الأمم. وهُنا يَتْسِعُ المدركُ الاجتماعي من النِّطاقِ المحلّيِّ الخاصّ إلى النِّطاق الإنسانيّ العامّ. ففي القرآن الكريم (٢: ١٤٣، سورة البقرة):

﴿وكذلِكَ جَعَلْناكم أُمّةً وَسَطاً،

---

(١) المنسك: الشريعة (الطريقة العملية في العبادة وفي السلوك). ناسكوه (عاملون بالشريعة التي هم عليها ـ والتي تختلف من الطريقة التي يسير عليها آخرون).

(٢) فلا ينازعنّك في الأمر (أي لا تنازعهم أنت في ذلك). وذلك الأمر الذي كان فيه ذلك النزاع هو «الذبيحة»، فقد كان أولئك يقولون: ما قتل الله أحقّ أن تأكلوه ممّا قتلتم أنتم......

لِتكونوا شُهداءَ علي الناس ويكونَ الرسولُ عليهم شهيداً...[٣]﴾

والأمّةُ الوَسَطُ هنا هي الأمّةُ الخَيِّرةُ العَدْلُ التي تكون في مِنهاجها مقياساً للسَّلوك الصحيح وحَكَماً بينَ الأُمَمِ أيضاً، فإنّ الأُمَمَ لا تَعيشُ مُتَحَيِّزَةً في هذه الدُّنيا مُنْفَصِلاً بَعْضُها عن بعضٍ. ولكنَّ كلَّ أُمّةٍ في هذه الحياة تكونُ رقيبةٍ على ما حولَها من الأُمَم.

ثـمّ جاء تفسيرُ «الأُمّةِ الوَسَط» ـ في القرآن الكريم ـ وتفصيلُ خصائِصِها تفصيلاً كافياً للدّلالة على مَكانَتِها (٣: ١١٠، سورة آل عمران):

كُنْتُمْ خيرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ للناس:
تأمُرون بالمَعْروفِ وتَنْهَوْنَ عنِ الـمُنكَر،
وتُؤمِنون بالله.
ولو آمَنَ أهلُ الكتابِ لَكانَ خيراً لهم.
مِنْهُمُ الـمُؤمنونَ، وأكثَرُهُمُ الفاسقون﴾.

إنّ المدركَ الآجتماعيَّ الخَيِّرَ واضحٌ هنا وضوحاً كاملاً. ليس في الإسلام حِقْدٌ على الذين يُخالفونه. إنّ الإسلامَ أتَمُّ الأديانِ من ناحيةِ العَقيدة (لأنّ التوحيدَ في الإسلام تامٌّ صريحٌ) ومن ناحيةِ الـمُعاملات التي يحتاجُ إليها الناسُ في كلِّ يومٍ من أيام حياتِهم. ومِنَ الأفضلِ للفَرْدِ وللـمَجموع أن

---

(١) الوسط من الناس: الخيّر العادل. لتكونوا شهداء (يوم القيامة) على الناس (بأن الرسل جاءوا وبلّغوا الناس ما يجب عليهم أن يفعلوا. فمنهم من عمل بما بلّغه الرسول، ومنهم من لم يعمل فاستحقّ العقاب).

يكون على الإسلامِ. ولكنّ هذا لا يمنَعُ من الإقرار لجانبٍ من أهل الكتاب بأن يكونوا مؤمنين ـ على الحقّ ـ بينما الكَثْرةُ منهم ليستْ كذلك. إنّ هذه المُعاملةَ الكريمةَ الخاليةَ من الحِقْدِ والمُمْتَلِئَةَ بالاحترام للآخرين ليست موجودةً في الأديانِ الأخرى تِجاه الإسلامِ وأهلِ الإسلام.

ولا ريبَ في أن الناس كلَّهم كانوا في مبدأ الوجود الإنساني «أمّةً واحدةً» ـ وإنِ آختلفتْ مساكِنُهم من سطحِ هذه الأرض واختلفت أجسامُهم وألوانُهم وعاداتُهم بآختلاف منازِلِهم في العالم.

نحن اليومَ لا نَحْفِلُ بتاريخ الأسكيمو ولا بتاريخ الهُنود الحُمْرِ لأنّ الأسكيمو والهُنودَ الحُمْرَ شَعبانِ لا يزالانِ يعيشان على الفِطرة في غيرِ حضارة أو في حضارةٍ ليست من صُنْعِهم. وكذلك نحن لا نَحْفِلُ اليوم بتاريخِ شُعوبٍ على درجاتٍ من الرقيّ الحضاري كأهل التِّبَتِ، مثلاً، أو كأهل جمهوريّات أواسطِ أميركة أو كسكّان قارةِ أوستراليا لآنقطاع صِلةِ هؤلاء بالأمم التي تُمْلي تاريخ العالم. ولكن إذا كتب مؤرّخٌ من أهل التِّبَت أو من أهل نيكاراغوا أو من أهل نيوزيلندة تاريخ بلاده، فلا مَعدًى له عن أن يمرّ بتاريخ الإسلام في العصور الوسطى وبتاريخ إنكلترة وفرنسة والرُّوسيّة والولايات المتحدة في العصور الحديثة.

* * *

في القرآن الكريم أنّ الناسَ كانوا أمّةً واحدةً، بمعنى أنّ أحوالَهم ـ في الدين خاصّةً ـ والدينُ كما يرى الإسلامُ مَجْلى الحياة الآجتماعيّة كلِّها ـ كانتْ

واحدةٌ أو كان بعضُها قريباً من بعض[1]. ففي القرآن الكريم (١٠ : ١٩، سورة يونس): ﴿وما كان الناسُ إلاّ أمّةً واحدةً، فآخْتلَفوا....﴾ ثمّ إنّهم ما زالوا (إلى اليوم) مختلفين (راجع ١١ : ١١٨، سورة هود). ولا شكّ في أنّ هذا الاختلافَ هو الذي يجعل بعض الأمم أقوى من بعضِها الآخَرِ وأحقَّ بقيادةِ موكِبِ الحضارة. وفي الآية التالية تعليلٌ واضحٌ وافٍ لقيمة هذا الاختلاف بين الأمم في التاريخ وفي مَيْدان الحضارة الذي ما كان التاريخ كلُّه إلاّ لوَصْف ذلك التطوّر في ميدان الحضارة:

- وأنزَلْنا إليك الكتابَ بالحقّ
مُصَدِّقاً لِـمَا بينَ يَدَيْهِ من الكتابِ ومُهَيْمِناً عليه.[2]
فآحْكُمَ بَيْنَهم بما أَنْزَلَ اللهُ،
ولا تَتَبعْ أهواءهم عَمّا جاءك من الحقّ.
لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً ومِنْهاجاً[3].

---

(١) ذلك لأن الدين في الأصل كان واحداً، فكان الناس الذين اتبعوا الدين في صفائه الأوّل كأنّهم أمّة واحدة. ولكن لـمّا جعل كلّ جماعة يختلفون في فهم الدين اختلافاً معيّناً (بحسب أحوالهم واستعدادهم الشخصي) اختلفت أفعالهم ومناهج حياتهم فأصبحوا كأنهم أمم كثيرة.

(٢) الكتاب (هنا): القرآن. بالحق: بالأحكام الصحيحة. مصدّقاً (موافقاً في الحكم) لما بين يديه (للكتب التي كانت قد أوحيت الى غير محمّد ﷺ من الرسل - ولكن في نصوصها الأصليّة، لا في نصوصها الحالية الموجودة بأيدي الناس، بعد أن بدلّ فيها رؤساء الأمم السابقة). ومهيمنا عليه: شاهداً (على صحة الكتب المنزلة في النصوص الأولى - فاذا جادلك أهل الكتاب (من التوراة أو الانجيل) في أمر، فاحكم في ذلك الأمر بما في القرآن، لأنّ ما يخالف القرآن من كتبهم في ذلك الأمر فهو مبدّل في كتبهم.

(٣) - اعمل (يا محمّد) بما نزل عليك في القرآن (ففيه الحقّ)، ولا تلق بالاً إلى أهوائهم

ولو شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحدةً؛
ولكنْ لِيَبْلُوَكُمْ في ما آتاكُمْ.[1]
فآستَبِقوا الخَيْراتِ.
إلَـى الله مَرْجِعُكُمْ جميعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بما كُنتُم فيه تَخْتَلفون﴾ (٥ : ٤٨، سورة المائدة).

إنّ الله سُبحانَه وتَعالى أنْعَمَ على الناس بِنِعَمٍ كثيرةٍ (وجَعَلَها لهم على مُسْتَوًى واحدٍ) لِيَبْلُوَهُمْ (لِيَخْتَبِرَهُمْ) في حُسنِ آستخدامِها. فَمَنْ سَبَقَ في الخيراتِ (أسرع إليها بالعمل في سَبيلها وبالإجادة في عَمَله فيها كان أحقَّ بثَمَراتِ الحياة نفسها من غيره، وذلك بالقانون الإلٓهيّ الذي يَقْضي بأنْ يَرِثَ الأرضَ (بما فيها من الخيرات وبما يكون على أهلها من الحُكْمِ) أولئكَ الصالحون من عبادِ الله (راجع ٢١ : ١٠٥، سورة الانبياء).

والأممُ في التاريخ تتعاقَبُ باستمرار (كما سنرى بعدَ قليلٍ)، سواءٌ أكانتْ تلك الأممُ صالحةً أو غير صالحةٍ، ذلك لأنّ لكلِ أمّةٍ عُمُراً (كما سيأتي بعد قليل). وقد خاطبَ اللهُ تعالى رسولَه الكريمَ فقال له: كذلك أرْسَلْناكَ في أُمّةٍ قد خَلَتْ من قبلِها أُمَمٌ (١٣ : ٣٠، سورة الرعد)؛ راجع ٢ : ١٣٤، ١٤١، ١٦، ٦٣، ٣٥، ٤٢، ٤١، ٢٥، ٤٦ : ١٨).

= (أوهامهم الشخصيّة ومصالحهم الذاتية). الشرعة: الشريعة (مجموع الأحكام التي يجب أن يسير عليها جماعة من الناس). المنهاج: الطريقة التي يسلكها الناس في تطبيق الشرائع.

(١) ليختبركم في ما آتاكم (من الشريعة الواحدة التي يختلف تطبيقها بحسب الزمن وبحسب أحوال كلّ جماعة من الناس). وجعل الله طرق تطبيق الشرائع مختلفاً بحسب الأحوال والحاجات كيلا يكون لأحد حجّة بأن الشريعة قاسية عليه لا توافق زمنه وأحواله هو.

والكلامُ على اعمارِ الأُمَمِ واضحٌ في القرآن الكريم، ولا بُدَّ في انقراضِ الأُمَمِ من أسبابٍ تجتمعُ في «ظُلْمِ الناسِ أنفُسَهُمْ» بأن يُخالفوا قانونَ الحياة. وهذا واضحٌ في الآيات التالية (٢٣ : ٤٠ ـ ٤٤، سورة المؤمنون):

﴿قالَ: عَمّا قليلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمين[١] *
فأخَذَتْهُمُ الصَّيْحةُ بالحقِّ فجعَلناهم غُثاءً؛[٢]
فَبُعْداً للقَوْمِ الظالمين *
ثـمَّ أنْشأنا مِنْ بَعْدِهم قُروناً[٣] آخَرينَ *
ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أجَلَها وما يَستأخِرون *
ثـمَّ أرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا[٤]،
كُلَّما جاءَ أُمَّةً رسولُها كذّبوه،
فأتْبَعْنا بَعْضَهم بَعْضاً وجَعَلْناهُم أحاديثَ[٥].
فَبُعْداً لِقَومٍ لا يُؤمِنونَ *﴾

---

(١) نادمون (على ما كان منهم من قبل من الكفر).

(٢) فأخذتهم الصيحة (الصوت العالي: انفجار بركان أو نحو ذلك) فهلكوا. بالحق: (بالعقاب العادل على أعمالهم السيّئة).

(٣) قرون جمع قرن: أمّة، جيل من الناس.

(٤) تترى: متوالون (في الزمن) كيلا يبقى الناس بلا هداية.

(٥) فأتبعنا بعضهم ببعض (أهلكنا كلّ أمّة بعد كلّ أمّة سبقتها ـ لأنّ أعمالهم كانت متشابهة في السوء). جعلناهم أحاديث (قصصا فيها عبرة دالّة على نهاية الذين يسلكون طريق الكفر والشرّ).

ثمّ هنالك الآيةُ التي هي قانونٌ مُوجَزٌ واضح (٧ : ٣٤ ، سورة الأعراف):

ولِكُلِ أمّةٍ أجَلٌ.

فإذا جاء أجَلُهُمْ

لا يَستأخِرونَ ساعةً ولا يَستَقْدِمون *﴾ (راجع أيضاً ١٠ : ٤٩ ، يونس؛ ١٥ : ٥ ، الحجر).

وأوّل أحوال الحضارة التحضُّرُ أوِ الآستقرار للعيش في مكان ثابت. ولقد أراد الله لآدمَ (ونسلهِ) أن يكونوا مُستقرّين في الأرض (٢ : ٣٦ ، البقرة؛ ٧ : ١٩ ، الأعراف). ولكنّ الأرض ظلّ فيها بَدْوٌ (غير مستقرّين). فمكّة كانت حاضرة (٢ : ١٩٦)، وكذلك المدينةُ كانت حاضرةً[1] وكان حولَها أعرابٌ (بَدْوٌ رُحَلٌ)، ففي القرآن الكريم: ﴿ما كان لأهلِ المدينة ومَنْ حَوْلَهم من الأعراب...﴾ (٩ : ١٢٠ ، راجع ١٠١ ، التوبة). ولا شكّ في ان التحضُّرَ لا يُلْغي الحياة البَدْوية، فالحضارةُ والبداوةُ موجودتان دائماً معاً جنباً إلى جنبٍ، وفي الجماعة الواحدة أيضاً. قالَ اللهُ تعالى: ﴿واللهُ جَعَلَ لكم من بُيوتِكم سَكَناً، وجعل لكم من جُلودِ الأنعام بُيوتاً تَسْتَخِفّونَها يومَ ظَعْنِكم[2] ويومَ إقامتكم....﴾ (١٦ : ٨٠ ، النحل).

ومَعَ الحضارة والآستقرار تنشأُ المُدُنُ وتَتّسِعُ، وربّما آتّصل العُمران فآجتمع عدد من القُرى الصغيرةِ في قريةٍ (مدينةٍ) كبيرةٍ تُدعى حينئذ أُمَّ

---

(١) الحاضرة: المدينة الكبيرة (وتكون عادة مركزاً للدولة: عاصمة).

(٢) الظعن: الرحلة.

القُرى » (راجع ٦ : ٩٢ ، الانعام)، كما تُدعى « المدينةَ » أيضاً (راجع ١٢ : ٣٠ ، يوسف؛ ٢٨ : ٢٠ ، القصص؛ ٣٦ : ٢٠ ، يس) وتُجْمَعُ على « مدَائِنَ » (راجع ٧ : ١١١ ، الاعراف؛ ٢٦ : ٣٣ ، ٥٣ ، الشعراء). ولقد عاشتْ كَلِمَةُ « قرية » وكَلِمةُ « مدينة » جنباً إلى جنبٍ لَتَدُلاّ على البلدة الكبيرة (٣٤ : ١٨ ، سبأ):

﴿وجَعَلْنا بَيْنَهم وبينَ القُرى التي بارَكْنا فيها قُرًى ظاهرةً؛ وقَدَّرْنا[١] فيها السَّيْرَ، سِيروا فيها لَيالِيَ وأيّاماً آمنين﴾.

وحينما تبدَأ الحضارةُ بالنُّزول في أرضٍ مُعَيَّنَةٍ للاَستقرارِ فيها بالسُّكنى الدائمة يأخُذُ الناس في البناء الثابت بالحِجارة ويُعالون في البناء، ويتأنّقون فيه بالتنويع[٢] والزُّخرُف (التزيين) فيتّخذون العُروش (المجالسَ العالية) على أشكالٍ مختلفة (راجع ٢٧ : ٤١ ، النحل)، ويتّخذون القُصور والبيوت المنحوتة في الصخر:

﴿واذكروا إذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بعدِ عادٍ[٣]،
وبَوَّأكُمْ في الأرض تَتّخذون من سُهولها قُصوراً وتَنْحِتون الجبالَ بُيوتاً....[٤]﴾ (٧ : ٧٤ ، راجع ١٥ : ٨٢ ، الحجر).

---

(١) القرى: المدن. والكلام هنا على مدن اليمن. باركنا فيها (بالخصب: الماء والزرع والثمر). قرى ظاهرة (متواصلة، متتابعة بين اليمن والشام: سورية). وقدّرنا فيها السير: جعلنا بين كلّ مدينة والتي تليها مسافة معيّنة معتدلة يستطيع المسافر أن يصل من كلّ واحدة الى كلّ واحدة تليها في زمن كاف (يقطعه في نهار مثلا).

(٢) التأنّق: الجمال الذي يعجب العين (وان لم يكن فيه قيمة ذاتية). التنويع هنا أشكال البناء.

(٣) عاد جدّ قديم للعرب. وقومه قد بادوا (انقرضوا: ذابوا في غيرهم).

(٤) قصور (في البادية) لقضاء الصيف. بيوت (في الحضر) لقضاء فصل الشتاء.

وفي الحضارة يُغالي[1] الناس في تَعْلية الأبْنِيَةِ لتكونَ صُروحا (عالية، مثل نواطحِ السَّحاب اليومَ):

وقالَ فِرْعَوْنُ: يا هامانُ، آبْنِ لي صَرْحاً لَعلّي أبْلُغُ الأسبابَ[2] أسبابَ السماواتِ فأطَّلِعَ إلى إلَهِ موسى.... (٤٠: ٣٦ - ٣٧، غافر).

وفي الحضارةِ يُزَخْرِفُ الناسُ بُيوتَهم بالفِضّة والذهب، ويجعلون لها معَارجَ (أقساماً تعلو على أقسام) وسُرُراً (مقاعدَ يَتّكِئون عليها)، ثم أنواعاً من الزينة لا تكون عادةً إلاّ في بُيوتِ الأغنياءِ والعُظماء، فَيُقَلِّدُهم في ذلك عوَامُّ الناسِ أيضاً إذا وجدوا المالَ:

﴿ولَوْلا أن يكونَ الناسُ أُمَّةً واحدةً[3]،
لَجَعَلْنا لِمَنْ يكفُر بالرحمن لِبُيوتِهم سُقُفاً من فِضّة ومعارجَ عليها يَظْهرون[4]، ولِبيوتهم أبواباً وسُرُراً[5] عليها يَتّكئون وزُخْرُفاً. وإنْ كُلُّ

---

(١) غالى الرجل في الأمر: زاد فيه على القدر المعقول أو الضروريّ.

(٢) فرعون: ملك مصر. هامان: وزير فرعون. الأسباب: الطرق. أسباب السموات: المسالك التي يمكن أن يصل الانسان منها إلى السماء وما فيها.

(٣) - كان جميع الناس (قبل الوحي) كفّاراً.

(٤) فلو كان كل الناس مؤمنين ثمّ كفر واحد منهم لأعطيناه جميع نعيم الدنيا (إذ أن جميع النعيم في هذه الدنيا لا قيمة له بالإضافة إلى ما ينتظر المؤمن في الآخرة من النعيم). المعرج: المكان المرتفع الذي يشرف منه الانسان على ما حوله. يظهرون: يصعدون الى ظهر (بيوتهم بالمعارج أو السلالم).

(٥) السرر جمع سرير (يتكّىء عليه القاعد). - لجعلنا أبواب بيوت هذا الكافر وسرره من فضّة.

ذلك لَـمّا مَتاعُ الحياة[1] الدنيا....﴾ (٤٣: ٣٣ ـ ٣٥، الزخرف).

وهذه الأبنيةُ العالية الأنيقة الـمُزَخْرفةُ لا تكونُ للحاجة إليها فقط، بل تكونُ أيضاً للتفاخر وللإدلال على الناس وللهُزُؤ بالفُقراء:

أتَبْنونَ بكلّ رِيعٍ آيةً تَعْبَثون[2] * ـ وتتخذون مصانعَ لعَلّكم تخلُدون * وإذا بَطَشْتُمْ بطشتم جبّارين؟ * (٢٦: ١٢٨ ـ ١٣٠، الشعراء).

وحينما يتّسعُ البنـاء في الحواضرِ يحتـاجُ النـاسُ إلى مـزارعَ وجَنـائـنَ وحدائقَ[3]، منها ما تكونُ الحاجة إليه لتقديمِ أسبابِ الحياة للناس (من الأطعمة) ومنها ما يكون للتفرُّج والتَّرَف. ولا تكون هذه إلاّ في الأماكن الخِصْبة بِطبيعتها أو بِنَقْل أسبابِ الخِصْب إليها:

﴿لقد كان لِسَبَإٍ في مَسْكَنِهم آيةٌ[4]: جَنّتانِ عن يمينٍ وشِمالٍ، كُلُوا من رِزْقِ ربّكم وآشكُروا له. بلدةٌ طيّبةٌ وربٌّ غَفور * فأعْرَضوا فأرسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ[5] وبَدّلْناهم بجنّتَيْهِم جنّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وأثْلٍ[6] وشيء

---

(١) الزخرف: الزينة. متاع الحياة الدنيا: أشياء يستخدمها الإنسان في سبيل راحته وسروره (ثـمّ تزول).

(٢) الريع (بالكسر): المكان المرتفع (على تلّة أو جبل). آية: علامة ظاهرة، دليل للمارّة. تعبثون: تسخرون (وأنتم فيه) من الذين يمرّون بكم ولا يكون لهم مثل هذه البيوت.

(٣) الجنينة: الأرض التي يكثر فيها الماء والنبات (والأزهار خاصّة). الحديقة: الأرض التي يحدق (يحيط) بها جدار (وتكون عادة للأشجار المثمرة).

(٤) سبأ: قوم من اليمن. آية: علامة (نعمة من نعم الله، تدلّ على قدرة الله).

(٥) سيل العرم جمع عرمة (بفتح فكسر: سدّ صغير تحجز المياه وراءه). سيل العرم (السيل المتجمّع من المياه التي جرت بعد انفجار السدود في اليمن).

(٦) أكل (بضمّ فضمّ): ما تنبته الأرض أو تحمله الأشجار ممّا يأكله الناس. الخمط: نبت له

من سِدْرٍ [1] قليل *﴾ (٣٤ : ١٥ ـ ١٦، سبأ).

والأراضي الخِصبةُ تتفاضلُ ولو كانتْ متجاوِرَة (١٣ : ٣ ـ ٤، الرعد):

﴿وهُوَ الذي مَدَّ الأرضَ وجعلَ فيها رَواسِيَ [2] وأنهاراً، ومِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جعلَ فيها زَوْجَيْنِ آثْنَيْنِ [3]، يُغشي الليلَ النَّهارَ [4]. إنَّ في ذلك لآياتٍ لِقومٍ يتفكَّرون * وفي الأرضَ قِطَعٌ مُتجاوِراتٌ وجنّاتٌ من أعنابٍ وزرعٌ ونَخيلٌ صِنوانٌ وغيرُ صِنوانٍ [5] يُسقى بماء واحدٍ. ونُفَضِّلُ بعضَها على بعضٍ في الأُكُل [6]. إنّ في ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلون *﴾

ولا شكّ في أنّ كُلَّ هذا لِمنفعةِ الإنسان الذي يبذُلُ الجُهْد أيضاً في مُساعدة الأرض الخِصبةِ على أنْ يخرُجَ منها ما يحتاجُ إليه الإنسان (٣٦ : ٣٣ ـ ٣٥، يس):

﴿وآيةٌ لَهَمْ [7] الأرضُ المَيتَةُ أحيَيْناها وأخرَجْنا مِنْها حَبّاً فَمِنْهُ

= طعم مرّ. الأثل: شجر له خشب جيّد.

(١) السدر: شجر النبق (شجرة كبيرة لها ثمر يشبه الزعرور ولكن أقلّ حلاوة).

(٢) الرواسي: جبال ترسو بها الأرض فلا تضطرب.

(٣) في كلّ نبات زوجان (ذكر وأنثى).

(٤) يغشي (الله) الليل النهار (الليل والنهار مفعولان بهما): يغطّي الليل على النهار (يحجب نور النهار حتّى يسكن الناس ويرتاحوا).

(٥) صنوان جمع صنو (بالكسر): النخل حينما يجتمع عدد منها في أصل واحد. غير صنوان: حينما تنبت كلّ نخلة مفردة (منفصلة عن أختها).

(٦) في الأكل (في الثمر): بعض ثمر شجرة معيّنة يكون أحياناً خيراً من ثمر شجرة من جنسها.

(٧) آية: علامة: دليل، برهان (على قدرة الله وحكمته).

يأكُلون * وجعَلْنا فيها جَنّاتٍ من نخيل واعنابٍ وفجَّرْنا فيها مِنَ العُيون * ليأكُلوا من ثَمَرِهِ وما عَمِلَتْهُ أيْدِيهم. أفلا يشكُرون﴾؟ *

ولا تُقْتَصِرُ حياةُ الإنسانِ في هذه الأرض على الزراعة، بل هو محتاجٌ إلى الحَيَوانِ وإلى أسبابٍ أُخرى من أسبابِ الحضارة والحياة معاً (٢٣ : ١٨ - ٢٢، المؤمنون):

﴿وأنزلنا من السماء ماءً بِقَدَرٍ فأسْكَنّاه في الأرض. وإنّا على ذَهابٍ به لَقادرون * فأنشأنا لكم به جنّاتٍ من نَخيلٍ وأعنابٍ لكم فيها فواكهُ كثيرةٌ ومنها تأكُلون * وشجرةً تخرُجُ من طور سَيْنـاءَ تنبُـت بـالـدُّهْـن وصِبـغٍ للآكِلين[١]. * وإنّ لكم في الأنعام لَعِبرةً، نُسْقيكُم مِمّا في بُطونها ولكم فيها منافعُ كثيرةٌ ومنها تأكُلون * وعليها وعلى الفُلك[٢] تُحملون *﴾

والأنعامُ (من الحَيَّوانات الأليفة) عُنصُرٌ مُهِمٌّ في الحضارة الإنسانية من حيثُ النفعُ المادّيُّ للإنسان ومن حيث المظهَرُ الحَضاريُّ والفخرُ بالثروة والمكانة الاجتماعيّة:

﴿والأنعامَ خَلَقَها، لكم فيها دِفْءٌ[٣] ومنافعُ ومنها تأكُلون * وَلَكُمْ فيها جَمالٌ[٤] حينَ تُريحون وحين تَسْرحـون[٥] * وتَحْمِـلُ أثقـالَكـم إلى بلَـدٍ لم

(١) شجرة الزيتون. الدهن (هنا) الزيت. الصبغ: الغَموس (بالفتح): ما يؤتدم به (ما يغمس الإنسان به لقمته من الخبز).

(٢) وعليها (على الإبل). الفلك (بالضمّ): السفن.

(٣) الأنعام: الحيوانات الأليفة. دفء (صوف الضأن ووبر الجمال وشعر المعزى، تصنع منها الثياب). منافع (من نسلها ومن لبنها ثمّ استخدامها للركوب ولحمل الاثقال). ومنها تأكلون (لحما).

(٤) ولكم فيها جمال: زينة (ودلالة على مكانتكم وثروتكم).

(٥) حين تريحون (تردّون الأنعام من مراعيها الى حظائرها بالعشيّ) وحين تسرحون

تكونوا بالِغيهِ إلاّ بشِقِّ الأنفُس[1]. إنّ ربَّكم لَرؤُوفٌ رَحيم * والخيلَ والبِغالَ والحميرَ لِترْكَبوها وزينةً[2]. ويخلُقُ ما لا تعلَمون *﴾ (١٦: ٥ - ٨، النحل؛ راجع ٤٠: ٧٩ - ٨٠، غافر).

والإنسانُ مَدْعُوٌّ في هذه الدنيا إلى أن يَتمتّعَ بما فيها من النعيم، ولكنْ من غير إسرافٍ. والإسرافُ هو إتلافُ أسبابِ الحياة من غيرِ ضرورةٍ أوِ آستهلاكُ وسائلِ العيش من غيرِ حاجةٍ به إلى ذلك. فَبدَلاً من أنْ يأكُلَ الانسان أشياءَ لا يحتاجُ إليه فَيَلْحَقَه من أكْلِها ضررٌ أو لا يلْحَقَه ضررٌ، يحسُنُ به أن يَصْرِفَ هذه الزِّيادةَ إلى مَنَ هو في حاجةٍ إليها، فانّ حِرْمانَ الـمُحتاجِ إلى أشياءَ أنتَ في غِنىً عنها بَغْيٌ (أيْ ظُلْمٌ وتجاوُزٌ للحدود التي تقوم في الحياةِ الاجتماعيةِ السليمة النافعة).

وربّما آحْتاجَ الإنسانُ إلى أن يأكُلَ طعاماً مُحَرَّماً - إمّا لأنّ ذلك الطعامَ ضارٌّ بجسمِ الإنسانِ وإمّا لأنّه ضارٌّ بسُلوكه الشخصيّ وسلوكِه الآجتماعيّ - فيجوزُ للإنسانِ حينَئذٍ، في مثلِ تلك الحالِ، أن يأكُلَ من هذا الطعام الـمُحَرَّمِ بِقَدْرِ الحاجةِ التي تحفَظُ على الإنسان حياتَه، ومِنْ غيرِ أن يَقْصِدَ بذلك هُجوماً على ما هو حرامٌ ضارٌّ أو مُباهاةً بما جازَ له (في حال مُعيّنة) وهُوَ غيرُ جائزٍ في العادة له ولغيره:

- ﴿يا أيُّها الذين آمنوا، كُلوا من طيّباتِ ما رَزَقْناكم، وآشْكُروا للهِ إنْ

= (تخرجونها في الصباح الى المراعي).

(١) بشقّ الانفس: بالجهد (بالفتح: التعب والمشقّة).

(٢) وزينة (لجمالها وللمباهاة بكثرتها لديكم وبنوعها).

كُنتُمْ إيّاه تعبُدون * إنّما حرّمَ عليكُمُ الـمَيْتةَ والدَّمَ ولَحْمَ الخِنزيرِ وما أُهِلَّ به لغيرِ الله[1]. فَمَنِ آضْطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثْمَ[2] عليه. إنّ اللهَ غَفورٌ رَحيم * ﴾ (٢: ١٧٢ - ١٧٣، البقرة).

- ﴿وهُوَ الذي أنشأ جنّاتٍ مَعْروشاتٍ[3] وغيرَ معروشاتٍ والنَّخْلَ والزّرعَ مُخْتَلِفاً أكُلُه[4] والزيتونَ والرُّمّانَ مُتَشابهاً وغيرَ مُتشابهٍ[5]، كُلوا من ثَمَرِهِ إذا أثْمَرَ وآتُوا حَقَّهُ يومَ حَصاده[6]. ولا تُسرِفوا إنّه لا يُحِبُّ الـمُسرفين * ﴾ (٦: ١٤١، راجع ١٤٥ - ١٤٦، الانعام).

- ﴿يا بني آدمَ، خُذوا زينَتَكم عندَ كُلِّ مسجدٍ[7]، وكُلوا وآشربوا ولا تُسرفوا. إنّه لا يُحِبُّ الـمُسرفين * قُل: مَنْ حَرّمَ زينةَ اللهِ التي أخرجَ لِعباده

---

(١) الإهلال: رفع الصوت. ما أهلّ لغير الله به: ما ذبح من الأنعام للأصنام أو بذكر أسماء الأصنام عند ذبحه.

(٢) فمن آضطرّ (في مجاعة أو لوجوده في مكان ليس فيه إلآ هذه الأنواع من اللحوم والأطعمة) غير باغ (ظالم: من إرادة أكلها مع وجود الأطعمة الحلال) ولا عاد (معتد بالاكثار منها فوق حاجته أو بالتباهي بأكلها) فلا إثم (حرج - بفتح ففتح - أو ذنب) عليه: لا يكون مذنباً، ولا يعاقب.

(٣) النبات المعروش (النبات السنوي الذي يمتدّ على الأرض أو على أعمدة. وغير معروشات (النباتات التي تنتصب بنفسها ولا تحتاج إلى ما يسندها).

(٤) مختلف أكله (ثمره).

(٥) متشابها وغير متشابه (في شكل ساقه وورقه الخ).

(٦) آتوا حقّه يوم حصاده (أخرجوا زكاته يوم تحصدونه أو تقطفون ثمره): العشر من مجموع مقداره (عشرة في المائة).

(٧) خذوا زينتكم: البسوا ما تسترون به أجسامكم (ويزينكم أيضاً) عند كلّ مسجد (وقت العبادة: في الصلاة وفي الحجّ) وفي الاجتماعات (الأعياد ولقاء الناس).

والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزق؟ قُلْ: هِيَ للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يومَ القِيامة[1]. كذلك نُفَصِّلُ الآياتِ لقوم يعلَمون * قُلْ: إنّما حرّمَ رَبِّيَ الفواحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ والإثْمَ والبَغْيَ[2] بغيرِ الحقّ، وأنْ تُشركوا باللهِ ما لم يُنَزِّلْ به سُلطاناً،[3] وأنْ تقولوا على اللهِ ما لا تعلَمون﴾ (٧: ٣١ - ٣٣، الأعراف).

والطعامُ والشراب ووسائلُ النَّقْل ليستْ وحدَها الأسبابَ الضروريّةَ للحياة الحَضَريّة، بل لا بُدّ مَعَها من مظاهرَ مُحَبَّبَةٍ إلى النُّفوس (سواءٌ أكانتْ مِمّا يحتاجُ إليه الناسُ أو ممّا لا يحتاجون إليه). ففي القرآن الكريم (١٩: ٧٣ - ٧٤):

﴿وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بَيِّناتٍ، قالَ الذين كفروا للذين آمنوا: أيُّ الفريقَيْنِ خَيرٌ مقاماً وأحسنُ نَدِياً[4]؟ * وكم أهْلَكْنا قَبْلَهم من قَرْنٍ هم أحسنُ أثاثاً ورِئْياً[5] *﴾

---

(١) في الحياة الدنيا تكون هذه الزينة في الملابس وهذه الطيّبات من الرزق لجميع الناس. أمّا في الآخرة فتكون خالصة للمؤمنين (خاصّة بهم).

(٢) الفاحشة: الذنب الكبير (كالقتل والزنا). ما ظهر منها وما بطن (سواء أجاهر الانسان في إتيانها أو استتر). الإثم: الذنب العادي (عصيان أوامر الله). والبغي (الظلم، الاعتداء على الناس بغير مسوّغ).

(٣) السلطان: الحجّة (لا يجوز الإشراك بالله، نسبة أعمال الله إلى غيره، كالخلق والرزق والهداية - وليس لمن يقول بذلك دليل على صحّة قوله).

(٤) المقام: المكانة الاجتماعية. والنديّ: النادي (مجتمع القوم) مباهاة وفخراً بكثرة الرؤساء والأتباع وبالقدرة على تسيير الأمور.

(٥) الأثاث: المتاع (ما تفرش به البيوت). الرئي: المنظر والمظهر والجمال.

وحينما تتَّسعُ الحضارةُ وتكثُرُ أسبابُها ويعُمُّ خيرُها يَنْحَرِفُ نفرٌ من الناس (هم أكابرُ أهلِ البلد، ثـمّ يَتَعَلّم ذلك مِنهُمُ الأصاغـرُ أيضـاً) إلى طلـب التَّبديل في مناهجِ الحياة ووسائِلِها. وكما أنّ حاجةَ الإنسانِ في الحضارة تبدأ بالطعام والشَّراب، فإنّ «البَطَرَ» (أو نِسيانَ فَضْلِ الـمُنْعِمِ بما أنْعَمَ) يبدأ أيضاً بالطعام والشراب، ذلك لأنّ الطعام والشّراب أقربُ أسبابِ الحياة إلى نفوس الفارغين (أولئك الذين ليس لهم من وجوه الجدّ في الحياة ما يَشْغَلُهم عن سَفْسافِها). فبعدَ أنْ أنعَمَ اللهُ على بني إسرائيل بكُلّ نِعمةٍ وحَفِظَهُمْ من كلِّ مَكروهٍ ونجّاهُم ممّا كانوا فيه من الاستعباد مَلأَ البَطَرُ نفوسَهم (٢ : ٦١):

«وإذْ قُلتُمْ: يا موسى، لن نَصْبِرَ على طَعامٍ واحدٍ. فَٱدْعُ لنا ربَّكَ يُخْرِجْ لنا مِمّا تُنْبِتُ الأرضُ من بَقْلِها وقِثّائها وفُومِها [١] وعَدَسها وبَصَلِها. قالَ: أتَسْتَبْدِلون الذي هُوَ أدنى بالذي هُوَ خيرٌ [٢]؟ آهْبِطوا مِصراً [٣] فإنّ لكم ما سألْتُم. وضُرِبَتْ عليهِمُ الذِّلّة والـمَسكنةُ وباءوا [٤] بِغَضَبٍ من الله. ذلك

(١) لن نصبر على طعام واحد (وهو الطعام الذي كان لهم في أثناء تيههم) المنّ: ندى يسقط من الجوّ على أغصان الأشجار وينعقد مادّة حلوة، والسلوى (طير السمّانى، ولحمه مرغوب فيه). البقل (أنواع الخضار) والقثّاء (من فصيلة الخيار في النبات) والفوم يطلق على عدد من أجناس النبات، قيل الثوم وقيل الحنطة وقيل أيضاً الحِمّص (بكسر الحاء وتشديد الميم المفتوحة).

(٢) أتطلبون بدل الأشياء الجيّدة أشياء رديئة؟

(٣) المصر: البلد الكبير الذي استقرّت فيه الحضارة وأصبح يجلب اليه أشياء كثيرة. وقيل مصر هي البلد المعروف بهذا الاسم.

(٤) باءوا: رجعوا (لم يحصلوا إلاّ على الخيبة، بعد أن أغضبوا الله).

بأنّهم كانوا يكفُرون بآياتِ الله ويقتُلون النَبِيِّينَ بغيرِ الحقّ. ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتَدون * »

وحُبُّ التَّرف عامٌّ في البشر لأنّه المظهرُ الذي يبدو به نفرٌ من الناس فوقَ أقرانِهم، والناسُ يُحِبّون أن يَرَوْا أنْفُسَهم فوقَ أندادهِمْ في أُمورٍ كثيرةٍ من أمورِ الحياة (٣ : ١٤، آل عمران):

﴿زُيِّنَ للناس حُبُّ الشَّهَواتِ من النِّساء والبَنينَ[١] والقَناطيرِ الـمُقَنْطرةِ من الذهب والفِضّة والخَيْلِ الـمُسَوَّمَةِ[٢] والأنعامِ والحَرْثِ[٣]. ذلك مَتاعُ الحياة الدُّنيا[٤]. واللهُ عنده حُسْنَ الـمَآب *﴾.

هذا الترفُ يُورِثَ غَفْلَةً في الإنسان، إذ يَعْتَقِدُ الإنسان أنّ حالَه السعيدةَ هذه دائمةٌ (وخُصوصاً إذا كان قد وُلِدَ وهُوَ يرى هذا النَّعيم ولم يَرَ في حياته ـ فيما بعدُ ـ بُؤساً). من أجلِ ذلك تراه ـ في حالهِ تلك ـ يَسْتَهزِىءُ بالناصحين ويستَهْتر[٥] بما لَدَيْهِ (من صِحّةٍ ومالٍ وتفكيرٍ أيضاً) فَيَتسرّبُ الفسادُ إلى حياتِه ويَميلُ هُوَ إلى الفِسْق:

ـ ﴿وما أرسَلْنا في قريةٍ من نذيرٍ إلاّ قالَ مُتْرَفوها: إنّا بما أُرْسِلْتُمْ به

(١) من عادة الناس أنّهم يحبّون شهوات أبدانهم وأنفسهم من النساء (الزواج بعدد من النساء) والبنين (أن يرزقوا أولاداً ذكوراً من زوجاتهم).

(٢) الخيل المسوّمة (الجميلة، الحسنة المنظر، والمدرّبة على السباق، مثلاً).

(٣) الأنعام (الغنم والبقر والابل) والحرث (أنواع الزروع).

(٤) متاع الحياة الدنيا (في مدّة الحياة الدنيا، غير دائمة).

(٥) الاستهتار: قلّة مبالاة الانسان بما يملك (يتلف صحّته ـ مثلاً ـ في الانغماس بأعمال لا قيمة لها).

كافرون * وقالوا: نَحْنُ أكثرُ أموالاً وأولاداً. وما نحنُ بِمَعَذَّبين[1]﴾ * (٣٤: ٣٤ - ٣٥، سبأ؛ راجع ٤٣: ٢٣ - ٢٤، الزخرف).

ويبدو أنّ الإنسان إذا ضلّ من طريق الغِنى والجاه ثـمّ سُلِبَ ما كان قد أُعْطِيَه يجوزُ أن يَرْجعَ إلى شيء من الهُدى إذا هو قاسى شيئاً من الشِّدّة والشقاء:

«قال موسى: ربَّنا، إنّك آتَيْتَ فِرْعَوْنَ ومَلأهُ زينةً وأموالاً[2] في الحياة الدُّنيا، ربَّنا، لِيُضِلّوا عن سبيلِكَ[3]. ربَّنا، اَطْمِسْ على أموالِهم واَشْدُدْ على قُلوبِهم[4] فلا يؤمنوا حتّى يَرَوُا العذابَ الأليم *» (١٠: ٨٨، يونس).

والواقعُ أنّ الضّالَّ إذا وَقَعَ في الشقاء رَجَعَ إلى رَبّه وإلى نفسِه ونَدِمَ على ما كان فيه من البَغْيِ والإصرارِ على الكُفر بأَنْعُمِ الله. وفي سورة الكهف (١٨: ٣٢ - ٤٣) إحْدَى عَشْرَةَ آيةً تشرَحُ ذلك شرحاً وافياً واضحاً مُؤثِّرا. وفي بعضِ الأحيانِ يطولُ بقاءُ الجاحِدِ في النعيم قبلَ اَنْتباهَتِهِ من غَفْلتهِ. وفي

---

(١) كانوا يعتقدون أن الأغنياء والوجهاء لا يعذّبون يوم القيامة.

(٢) الملأ: أشراف القوم. - أعطيتهم زينة (مساكن كبيرة وثياباً ثمينة - تنفعهم في الدنيا) وأموالاً (كثيرة).

(٣) ليضلّوا (ليبعدوا الناس) عن سبيلك (عن دينك) - حينا يصبح للانسان قوّة ومال يحاول أن يتنكّر للقوانين التي تحيط به وأن يغالي بقوّة نفسه ومكانته.

(٤) اطمس على أموالهم: أخفها عن أعينهم كيلا يستطيعوا استخدامها أو انزعها من أيدهم وردّهم فقراء. اشدد على قلوبهم (عقولهم): اجعل قلوبهم قاسية وعقولهم قاصرة فيستمرّوا في ضلالهم وغفلتهم إلى أن يحين وقت عذابهم فيكون عذابهم شديداً، عقاباً لهم على تجبّرهم.

بعض الأحيان يُصِرُّ على ضلالته، إذ يَنْسى نفسَه في غَمْرةِ النّعيم الزائلِ مرّةً واحدةً (٦ : ٤٢ - ٤٤، الانعام):

﴿ولقد أرسَلْنا إلى أُمَمٍ من قَبْلِكَ فأخَذْناهم بالبأساءِ والضرّاءِ لَعَلّهم يَتَضرّعون[١]. * فلولا إذ جاءهم بأسُنا تَضرّعوا[٢]، ولكنْ قَسَتْ قُلوبُهم. وزَيّنَ لَهُمْ الشَّيطانُ ما كانوا يعمَلون * فلـمّا نَسُوا ما ذُكِّروا به فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أبوابَ كُلِّ شيءٍ؛ حتّى إذا فَرِحوا بِما أُوتـوا أخَـذْنـاهـم بَغتـةً فـإذا هـم مُبْلِسون[٣] *﴾

وفي أثناءِ الحياةِ الـمُتْـرَفـةِ يسـوءُ السلـوكُ الآجتماعـيّ في الأفـراد وفي الجماعات. ثـمّ يكثُرُ الفَساد بِكَثْرة الترف. والناسُ في كلّ زمانٍ ومكانٍ طَبَقات. ولا شَكّ في أنّ المالَ يجعَلُ الناسَ أقوياءَ؛ ومن شَعَرَ بقُوّةِ نفسِه حاوَلَ أن يُسَيْطِرَ على الذين يَراهم (أو يظُنُّهم) ضُعفَاءَ. والظُّلْمُ يبدأُ في الـمَلإَ (في الأشراف، في أكابرِ الناس) ثـمّ يُحاوِلُ الفُقراءُ الضّعفاء أنْ

(١) البأساء: الشدّة، الفقر. الضرّاء: الضرر، المرض. لعلّهم يتضرّعون (يدعـون الله ليكشف ذلك عنهم)، أي يرون أن قدرتهم قاصرة فيرجعون الى الله ويؤمنون به ويعملون عملا صالحاً ينفعهم وينفع الناس.

(٢) ومع ذلك، فلـمّا نزلت بهم الشدّة والحاجة لم يتضرّعوا (لم يتذكّروا الله ولا عملوا صالحاً، بل (قست) قلوبهم فأصرّوا على ما كانوا فيه من الضلال).

(٣) فلـمّا لم يتّعظوا بالشدّة التي نزلت بهم ثـمّ زعموا أن كفرهم راجع إلى أن الله لم ينعم عليهم بشيء، « فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء » (أنعمنا عليهم بنعم كثيرة) فلم ينفعهم ذلك أيضاً. حينئذ أرسلنا عليهم العذاب (بالقضاء عليهم وزوال الملك منهم)، فأصبحوا مبلسين (آيسين، حائرين) يدركون أنّ استبدادهم بالرأي لا ينفعهم، بعد أن كانوا في شدّة فلم يحسنوا العمل ثـمّ أصبحوا في رخاء فلم يحسنوا العمل أيضاً.

يستبدّوا بمن تحتَهم. ويستمرُّ هذا الظُّلْمُ من طَبَقةٍ إلى طبقةٍ دونَها حتّى يَعُمَّ الظُّلْمُ في الأُمّة كلِّها. حينئذٍ تُشْرِفُ الأمّةُ على الزَّوال (ويأتي شَرْحُ هذا الزّوالِ في الفصل التالي: في التاريخ).

* * *

ولِحياةِ التَّرَف في العُمران مساوىءُ لا تكونُ في البَدْو عادةً. وإذا هِيَ ظَهَرَتْ في البَدْو عُوقِبَت. إنّ أيامَ العربَ (أو حُروبَهم) كانتْ عِقاباً لأحوالٍ على خِلاف البِرّ (طاعةِ القبيلة) قام بها جماعاتٌ أو أفرادٌ. كان البَدْويُّ إذا رأى ظالماً أو ناقضاً عهداً قاومه أو قاتله. أمّا الحَضارة الـمُتْرَفَةُ فإنّها تتغاضى أوّلاً عنِ السّيئات ثمّ تُسَوِّغُها ثـمّ تُشَجِّعُها ثـمّ تجعَلُها قاعدةً من قواعدِ الحياة بعد أن تُطلِقَ عليها أسماءً جديدةً بريئة[1].

أوّلُ ما ينظُرُ إليه الـمُتَحَضِّرُ حُبُّ الأمْنِ في الحياةِ (فإنّ حياةَ البَدْويّ مملوءةٌ بالحَذَر ـ بالخوف من الغَزْوِ والثأر ومن عُدوانِ الحَيَوان الـمُفترس ـ والحربُ هِيَ مِنهاجُ حياةِ البَدْوِيّ). أمّا الحَضَريُّ فإنّه يَفْقِدُ في حالِ الخوف كثيراً من رَباطةِ جأشه ومـن قُـدرتـه أيضـاً (راجـع ٣٣ : ١٨ ومـا بعـد، الأحزاب)، وإذا زالَ الخوفُ عنه عادتْ له قُدرتُه وآستِهْتارهُ بالأمورِ والتجبُّرُ في مُعاملة الآخرين. وفي حالِ الأمن يَجْزَعُ الحَضَريّ من أنْ تَزولَ تلك الحالُ (٤ : ٨٣، النساء):

---

(١) يسمّون خداع الناس، مثلا، براعة. ويسمّون الانغماس في الشرّ ومخالفة الخلق الكريم «مدنيّة»...

﴿وإذا جاءهُم أمرٌ من الأمن أوِ الخوف أذاعوا به [١]. ولو رَدّوه إلى الرسول وإلى أُولي الأمر منهم لَعَلِمَه الذين يَسْتَنْبِطونَه منهم [٢]. ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيطانَ إلاّ قليلا *﴾.

والحَضَريُّ خاصّةً يرغبُ في طُولِ العُمْرِ، ذلك لأنّ حياتَه الشخصيةَ قائمةٌ على الآستمتاع بلَذّاتِ الحياة، وهُوَ لا يشبَعُ من التمتُّع بتلك اللذّات (٢ : ٩٦، البقرة):

﴿ولَتَجِدَنَّهُمْ أحرصَ الناس على حياةٍ. ومن الذين أشركوا يَوَدُّ أحدُهم لو يُعَمَّرُ ألفَ سَنةٍ. وما هُو بِمُزَحْزِحِهِ من العذاب أنْ يُعَمَّرَ [٣]. واللهُ بصيرٌ بما يعمَلون *﴾

لا شكَّ في أنّ الذي يَسُوءُ عَمَلُه يخشى الموتَ الذي يَصِلُ به إلى الحِساب

---

(١) هنالك في كلّ زمن وكلّ بلد جماعة من المثبّطين الذين يحاولون ردّ الناس عن العمل الصالح. تشير هذه الآية الكريمة الى هؤلاء الذين كانوا (في أيام الرسول) يريدون صدّ المؤمنين عن السير مع الرسول في الغزوات وفي السرايا (السريّة: معركة لم يحضرها الرسول). فإذا جاء خبر بالهزيمة في معركة قالوا للناس: أرأيتم ما كنّا نقول لكم؟ واذا جاء خبر بالانتصار قالوا لهم: هذه دعاية، هذا نصر قليل الأهميّة، هذا النصر سيزيد في حقد الآخرين وفي مقاومتهم....

(٢) .... وكان على هؤلاء وهؤلاء أن يرجعوا في هذا الأمر الى الرسول أو إلى الصحابة ممّن يعرفون حقائق الأمور (هذا ما يقال له في أيامنا دعاية موجّهة: تكتم فيها الحقائق أو تشوّه أو تبدّل).

(٣) يريد هؤلاء المشركون والكافرون أن يعيش أحدهم عمراً طويلاً (حتّى لا يصل إلى عذاب يوم القيامة. انّه لو عاش ألف سنة أو أكثر لانتهى أمره إلى الموت ثمّ إلى البعث والحساب على أعماله في هذه الدنيا وإلى العقاب على أعماله السيّئة).

يومَ القِيامة. وتلك حالٌ تنطَبِقُ على الـمُشركين وعلى غيرِ الـمُشركين إلاّ أصحابَ اليَقينِ الذين يُؤمنون بالله حقَّ الإيمان ويُدْرِكون أنّ الموتَ حقٌّ آتٍ في وُقْتِه المحدودِ وانّهم قد عَمِلوا في حياتِهِمْ كُلِّها ما يعتقدون أنّهم قد أرْضَوُا اللهَ به (راجع ٢: ٤٥ ـ ٤٦).

والحياةُ الزَّوجيةُ داخلةٌ في نِطاق الاَجتماع الإنساني. وهذه الحياةُ الزوجية ضَرورةٌ إنسانية، ومن غاياتِها في الحضارة شي من الاَطمئنان النفسي ورُكونُ كلِّ زَوْجٍ من البشرِ إلى زَوْجه (٣٠: ٢١، الروم):

﴿ومن آياتهِ أنْ خَلَقَ لكم من أنفُسِكم أزواجاً لِتَسْكُنوا إليها، وجعَل بَيْنَكم مودّةً ورحمةً. إنّ في ذلك لَآياتٍ لِقومٍ يتفكّرون﴾.

ولهذهِ الحياةِ الزوجية قوانينُ وآدابٌ لا يَنْبَغي للإنسانِ أن يُخالِفَها، وإنْ كانتِ الحياةُ الحَضَريّةُ تدعوه أحياناً إلى مُخالَفَتِها (راجع ٢: ٢٢٢ ـ ٢٢٣). وكذلك للحَمْلِ والوِلادة قواعدُ، ثـمّ هُما يُلقيانِ على الـمَوْلودين واجباتٍ نحوَ أُمّهاتِهِمْ خاصّة (٤٦: ١٥ ـ ١٨، الاحقاف؛ ٣١: ١٣ ـ ١٥، لقمان).

والبَدْويُّ يصدُرُ في أعماله عن فِطرة غايتُها الحِفاظُ على وَحْدةِ القبيلة وعلى بقائها. ومن أعماله الغَزْوُ والثأر (ولم يكونا في الجاهليّة من سوء الأخلاق). أمّا في الحضارة فالفَرْدُ مُحتاجٌ إلى عددٍ من أوجهِ السُّلوكِ الاجتماعي مِمّا يُسمّى «أخلاقاً وضعيّةً»، تلك الأخلاقَ التي تكثُرُ الحاجةُ إليها في عالمِ الاَجتماع الواسع، ولا يحتاجُ إلى مِثلِها البَدْوِيُّ ـ لِصِغَرِ الجماعاتِ البَدْويّة (بالإضافة إلى عِظَمِ الجماعاتِ في الحَضَر) ولِقِلّةِ الـمُنافسة بينَ أبناء الجماعة الصغيرة في البَدْو ـ. ولا بأسَ بالاَستشهاد بالآياتِ الكريمةِ التالية برُغْمِ كَثْرتِها (٤٩: ١٠ ـ ١٣، الحجرات).

- ﴿ إنّما المؤمنون إخوةٌ فأصْلِحوا بَيْنَ أخَوَيْكُمْ[1] واتّقوا اللهَ لعلّكم تُرحَمون * يا أيُّها الذين آمنوا، لا يَسْخَرْ قَوْمٌ من قومٍ عسى أنْ يكونوا خيراً مِنهم، ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يَكُنَّ خيراً مِنهنّ. ولا تَلْمِزوا أنفُسَكم ولا تَنابَزوا بالألقاب[2]. بِئْسَ الاسْمُ الفُسوقُ بعدَ الإيمان[3]. ومن لم يَتُبْ فأولئكَ هُمُ الظالمون * يا أيُّها الذين آمنوا، اجْتَنِبوا كثيراً من الظَّنِّ - إنّ بعضَ الظَّنِّ إثْمٌ[4] - ولا تَجَسَّسوا ولا يَغْتَبْ بعضُكم بعضاً[5]. أيُحِبُّ أحَدُكم أنْ يأكُلَ لَحْمَ أخيه مَيْتاً فكَرِهْتُموه[6]. واتّقوا اللهَ، إنّ اللهَ توّابٌ رحيم * يا أيُّها الناسُ، إنّا خلَقْناكم من ذَكَرٍ وأُنثى وجعَلْناكم شُعوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفوا. إنّ أكرَمَكُم عندَ اللهِ أتْقاكُم. إنّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ * ﴾

ثم تأتي في هذا المَنْهَجِ الاجتماعي، وَصِيّةُ لُقمانَ[7] لابنِهِ (٣١: ١٧ - ٢٠):

---

(١) فأصلحوا بين أخويكم (بعقد الصلح بين الفريقين المتنازعين من المسلمين).

(٢) لا تلمزوا أنفسكم: لا يبحث بعضكم عن عيوب بعض وينشرها. ولا تنابزوا بالألقاب (لا يدعُ بعضكم بعضاً بأسماء مكروهة).

(٣) بئس الاسم (من الشرّ أن يعرف أحدكم باسم سيّء) من الفسق (الكفر) بعد أن كان يدعى باسم يدلّ على إيمانه.

(٤) - قد يظنّ الإنسان ظنّاً سيّئاً بآخر ويكون ظنّه في مكانه، وفي عدد من الاحيان لا يكون هذا الظنّ صحيحاً (من أجل ذلك ينصحنا الله بأن نترك الظنّ كلّه ولا نحكم إلاّ بالدليل الواضح).

(٥) الغيبة: أن تذكر أحداً (وهو غائب عن مجلسك) بما يسوءه (سواء أكان ما تقوله فيه صحيحاً أو غير صحيح).

(٦) يشبّه الله الغيبة بأكل لحم الميتة، فكما أن الإنسان يكره ذلك فيجب عليه ألاّ يغتاب أحداً.

(٧) لقمان حكيم قديم أشتهر بالأمثال وبالحكم.

- ﴿يا بُنَيَّ، أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بالـمَعروفِ وآنْهَ عنِ الـمُنْكَر وآصْبِـرْ على ما أصابَكَ. إنّ ذلك من عَزْمِ الأُمور[١] * ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للناس[٢] ولا تَمْشِ في الأرض مَرَحاً[٣]. إنّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُختالٍ فَخور[٤] * وآقْصِدْ في مَشْيِكَ[٥] وآغْضُضْ من صَوْتِك[٦]. إنّ أنْكَرَ الأصواتِ لَصَوْتُ الحمير *﴾

وحينما تَتّسِع الحضارةُ ويَصِلُ كِبارُ القوم إلى الحُكْم ثـمّ لا يكونُ فوقَ أيْديهم يدٌ قاهرة تميلُ نُفوسُهم إلى الآستبدادِ (فَرْضِ آرائهم على الآخرين)، ويكونُ في ذلك عادةً شي من الظُّلْم لِلضُّعفاء. وهذا كثيرٌ في الـمُجتمعات، والكلامُ عليه في القُرآنِ الكريم أيضاً كثيرٌ.

وينشأُ في الحضارات مساوِئُ كثيرةٌ منها النِّفاقُ الذي يكونُ أيضاً في البداوة (راجع ٩ : ٩٧، التوبة)، ولكنّه في الـمُدُنِ أكثرُ آنتشاراً (راجع

---

(١) من عزم الأمور (من الأمور الصعبة على النفس والتي تحتاج إلى عزيمة في الانسان حتّى يستطيع القيام بها).

(٢) لا تصعّر خدّك للناس (لا تلتفت بوجهك عن الذي يحدّثك كأنّك تستخفّ به وتتكبّر عليه).

(٣) لا تمش في الارض مرحاً مشية (بكسر الميم) خيلاء (بضمّ ففتح): بتبختر وإعجاب بالنفس.

(٤) المختال: المتبختر (المتمايل) في مشيه.

(٥) اقصد (اعتدل) في مشيك (من غير تباطؤ: (دلالة على قلّة الاهتمام بالأمور) ولا إسراع شديد (دلالة على طمع الإنسان في السيطرة على كلّ شيء).

(٦) اغضض (اخفض) من صوتك (تكلّم بهدوء وبصوت معتدل).

٣٣ : ٦٠، الأحزاب) لِحاجةِ أهلِ الـمُدُنِ إلى الـمُداراةِ فيُظْهِرون لِمَنْ يحتاجون إليه مودّةً وهم لا يُضْمِرون له مثلَ هذه المودّة.

وبما أن الحياةَ في الـمُدُن محتاجةٌ إلى نَفَقاتٍ كثيرةٍ فإنّ الناسَ في العادة يطلُبون جَمْعَ المالَ من كُلٍّ وَجْهٍ فيأكُلُ بعضُهم أموالَ بعضٍ بالباطل [١]. وربّما كانوا لا يحتاجون إلى هذه الأموالِ فيَكْنِزونَها (راجع ٩ : ٣٤)، كما يَلْجأون أيضاً إلى الغِشّ في البَيْع والشراء ويَتَلاعبون في الكَيْلِ والميزان:

﴿وَيْلٌ لِلْـمُطَفِّفينَ[٢] * الذين إذا آكتالوا على الناسِ يستَوْفون [٣] * وإذا كالُوهم أو وَزَنوهم يُخْسِرون [٤] * (٨٣ : ١ - ٣، المطفّفين؛ راجع ٧ : ٨٥، الأعراف).

ومن الـمَساوىء التي تنتَشِرُ في الحضارة شِرْبُ الخَمْر ولَعِبُ الـمَيْسرِ [٥] ثـمّ إتيانُ الفاحشةِ والتَفَنُّنُ في وُجوهِها مما يَرِدُ التَقريعُ عليه في القُرآنِ الكريم. ولا حاجةَ بِنا إلى الآستشهادِ عليه هُنا، مَعَ كَثْرة الإشارة إليه في أماكنَ كثيرةٍ من الكتابِ العزيز.

* * *

---

(١) أكل المال بالباطل (بالاحتيال، كالرشوة والسرقة والغصب).

(٢) المطفّفون: الذين يتلاعبون بالكيل والميزان (عند البيع والشراء).

(٣) إذا هم اشتروا من أحد أخذوا من البضاعة أكثر من حقّهم.

(٤) وعند البيع يعطون المشتري أقلّ من حقّه.

(٥) الميسر: القمار.


مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

التّاريخ في الإسْلام

إذا كان التاريخُ وصفاً لتطوُّر الحضارة الإنسـانيـة (وهـذا صحيـح)، فيجب أن يكونَ بين هذا الفصل في التاريخ والفصل السابق في العمران (أو الحضارة) شيء من التداخُل. غيرَ أنّ هذا التداخُلَ يقَعُ إذا نحن أخذنا التاريخَ بمعنى سَرْدِ الحوادث فحَسْبُ. أمّا اذا نحن نظرنا إلى التاريخ من حيثُ «تعليلُ الحوادث» (أو ربطُ النتائجِ في تلك الحوادث بأسبابِها) أيضاً، فإنّ الموضوعين يُصبِحانِ حينَئِذٍ مختلفَيْنِ.

والتاريخُ أحبُّ فنونِ المعرفة إلى النفس الإنسانية، ذلك لأنّ النفسَ الإنسانيةَ تَحِنُّ إلى ماضيها، فالناسُ كلُّهم يَتَغَنَّوْنَ بالماضي. ولا شكَّ في أن الإنسانَ، عامّةً وعادةً، يعُدُّ أيّامَ شَبابِهِ الماضيةَ أفضلَ من أيّام شيخوخته الحاضرةِ أو الـمُقبلة. وبما أن التاريخَ «مَظَنَّةٌ (أي مكانٌ أو مَجالٌ) للكَذِب، فإنّ الإنسانَ يُحِبُّ أن يُزَيِّنَ ماضِيَهُ ثـمّ يفتخرَ بذلك التاريخِ الـمُزَيَّن حَقّاً أو باطلاً.

وبما أنّ التاريخَ يَرِدُ ذِكْرُه في القُرآن الكريمِ بالـمَعْنيَيْنِ - بمعنى السَّرْدِ

وبمعنى التعليلِ ـ أو بمعنى الواقعِ وبمعنى العِبرة ـ فإنّ مكانَ هذا الفصل هُنا يصبح ضَرورياً.

* * *

نبدأ بكَلِمة على التاريخ في التوراة.

في التوراة نوعان من التاريخ: التاريخ الطبيعيّ (خَلْقُ السموات، والأرض ونشأةُ الإنسان على هذه الارض) ثـمّ التاريخ الاجتماعيّ (حياةُ الإنسان على هذه الأرض وما امتزجتْ به من الرئاسةِ والحربِ ومن النعيم والوَيْلات).

أمّا الكلامُ على التاريخ الطبيعي في التوراة فيأتي في سِفْر التكوين أوّلِ أجزاءِ التوراة. ولكنّ الذي كَتَبَ هذا الجزءَ بيَدِهِ قد نَظَرَ إلى العالم وما في العالم على ما كان ذلك كلُّه في أيامه ثـمّ حاولَ أن يُرَتِّبَ النُّشوءَ الطبيعيَّ بحَسْبِ ما كان يَعْرِفُ هو في ذلك الزمان. ثـمّ إنّ ذلك الكاتبَ لجأ إلى خَياله في ترتيبِ الأحداث الطبيعيّة الماضية ودَخَلَ في تفاصيلَ جُزئيّةٍ وأحَبَّ أن يُعَيِّنها بالأيام والساعات ـ بعد أن جَعَلَ عُمُرَ العالم كُلَّه ألفَيْنِ أو ثلاثـةِ آلافِ سَنةٍ، ومنهم من جعل الدنيا تبدأ في الرابع من شهر تَشرينَ الأولِ (أكتوبر) من العام ٤٤٤٤ قبلَ الميلاد، وغَفَلَ عنْ أنّ التاريخ في مِصْرَ وفي بابلَ وفي غَيْرِهما من أقطارِ الأرض قد حَفِظَ لنا وُجوهاً من الحضارة الزاهيةِ أطولَ عُمُراً ممّا قدّر هو للدنيا كلها[١].

وأمّا تاريخُ الإنسان في التوراة فيُمْكِنُ أن نُسَمِّيَهُ رواياتٍ شخصيةً مُفْرَدَةً

(١) عمر الارض لا يحصر بعدد، وكذلك عمر الإنسان على هذه الأرض.

ليس بينَها جامعٌ يَرْبِطها، من قُرْبٍ أو من بُعْدٍ، بعِلم التاريخ. ويكفي أن نأتِيَ هنا بِمَثَلٍ واحدٍ من هذا الباب في التوراة.

جاء في الإصحاح الحادي عَشَرَ من سِفْر التكوين:

«وكانتِ الأرضُ كُلُّها لِساناً واحداً ولُغةً واحدة. وحدث في آرتحالهم شَرْقاً أنّهم وجدوا بُقعةً من أرض شنعارَ وسكنوا هناك. وقال بعضُهم لِبعضٍ: هَلُمَّ نصنَعْ لَبِناً ونشويه شَيّاً [1]. فكان لهم اللَّبِن مكانَ الحجر، وكان لهم الحمر [2] مكانَ الطين. وقالوا: هلمّ نَبْنِ لأنفُسِنا مدينةً وبُرجاً رأسُه بالسماء. ونصنعْ لأنفُسِنا آسْماً لئلاّ نَتَبدّدَ على وجه الأرض.

«فنزلَ الربُّ لينظُرَ المدينةَ والبُرْجَ اللذين كان بنو آدمَ يبنونَهُما. وقال الربُّ: هُوَ ذا شعبٌ واحدٌ ولِسانٌ لِجميعِهم وهذا آبتداؤهم بالعمل. والآنَ لا يمتَنِعُ عليهم كلُّ ما يَنْوُونَ أنْ يعملوه. هلُمَّ نَنْزِلْ ونُبَلْبِلْ هناك لِسانَهم حتّى لا يسمعَ بعضُهم لِسانِ بعضٍ. فبَدّدَهُمُ الربُّ من هناك على وجهِ كلِّ الأرض. فكفّوا عن بُنيانِ المدينة. لذلك دُعِيَ آسْمُها بابِلَ لأنّ الربَّ هناك بَلْبَلَ لِسانَ كلّ الأرض. ومن هناك بدّدَهُمُ الربُّ على وجه كلّ الأرض».

أمّا الأناجيلُ الأربعةُ القانونيّةُ والموجودةُ بأيدي الناس فَهِيَ في مُعْظَمِها

(١) اسم أطلق في التوراة على أرض بابل (جنوبيّ العراق). اللبن (بفتح فكسر) طين يطبخ (يشوى) ويستخدم في البناء (مكان الحجارة).

(٢) الحمر (في الطبعة العربية الأميركيّة: بضمّ ففتح) لم أجدها في القاموس. وفي الطبعة الانكليزيّة، Slime (الوحل، طين رقيق لزج). وفي العبرية «حمر» (بحاء ساكنة وبميم ممالة ثم راء: القار او الزفت).

حياةُ عيسى بنِ مَرْيَمَ (عليه السلام) وما يتصل بحياته الشخصية.

* * *

أمّا في القرآن فللتاريخ جانبٌ وافٍ منه: للتاريخ الطبيعيّ وللتاريخ الإنساني قبل الإسلام ثمّ لتاريخ الدعوة الإسلاميّة في حياة الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

ولقد مرّ بنا الكلامُ على التاريخ الطبيعيّ في مكانهِ عند الكلام على مدرك الله في الإسلام. أمّا التاريخ الإنساني (في قَصَصهِ أو سَرْده ثمّ في تعليلهِ وتدوينه) فمكانه في هذا الفصل.

ونبدأ بالجانبِ السَّرديّ (أو القَصَصي).

التاريخ فنٌّ مُحَبَّبٌ إلى النفوس - إلى نفوسِ جميعِ الناس -: يُحِبُّ عوامُّ الناس رِوايتَه السَّهْلة وحكايةَ أحوالِ الماضين والنَّظرَ إليها على أنّها كانتْ دائماً أفضلَ من الحال الراهنة (في زمنِ الحاكي لتلك الحكايات). من أجلِ ذلك قال ابنُ خَلْدونٍ في مَطْلَعِ مُقدّمته (أو مطلعِ الجزء الأوّل من كتابه في التاريخ):

« ... إنّ فنَّ التاريخ... تتداولُه الأُمَمُ والأجيال وتُشَدُّ إليه الركائبُ والرِّحال[1]، وتسمو إلى معرفته السُّوقَةُ والأغْفال[2]. وتتنافَسُ فيه المُلوك

(١) الركائب جمع ركوبة (بالفتح): الحيوان يسافر الناس عليه. الرحل (بالفتح): سرج يوضع على الحيوان ليركب عليه المسافر.

(٢) السوقة: عامّة الناس. الأغفال جمع غفل (بالضمّ): شيء لا علامة عليه تميّزه من غيره (الرجل الذي لا شهرة له).

والأقيال[1]. وتتساوى في فَهْمه العُلماء والجُهّال[2]، إذ هو في ظاهرِهِ لا يزيدُ على أخبارٍ عن الأيّام والدُّوَل، والسوابقِ من القُرون الأُول: تنمو[3] فيها الأقوالُ وتُضْرَبُ فيها الأمثالُ[4] وتُطْرَفُ بها الأنديةُ اذا غصّها الآحتفالُ[5]....»

وكذلك يذهبُ العُلماءَ (العَمَليّون) والمُفكّرون (النَّظريّون) إلى التاريخ لِمعرفة حقائقِ الحياة الإنسانية وما يُحيطُ بها من الأحوال للعَمَل على الإصلاح الضَّروريّ والمُمكنِ في المجتمع الإنساني. إنّ معرفة الماضي تُفسّر لنا كثيراً من أحوالِ الحاضر وتُساعِدُ على أنْ نستبقَ جانباً من أحوال المستقبل فنُحاولَ أنْ نَتَلافى بها عدداً من الأخطاء التي يمكن أنْ تَقَعَ في مستقبل حياتنا إذا لم نَعْرِفْ ذلك الماضيَ القريبَ والبعيد.

ومن أجلِ ذلك أيضاً يُتابع ابنُ خَلْدونٍ كلامَه فيقولُ:

والتاريخ «يُؤدّي لنا شأنَ الخليقة كيفَ تبدّلتْ بها الأحوالُ وآتّسع للدُّوَل فيها النِّطاق والمَجال وعَمَروا الأرضَ[6] حتّى نادى بهم الارتحال وحانَ

---

(١) القيل (بالفتح): الملك من ملوك اليمن.

(٢) يفهمه العلماء ويدّعي الجهّال أنّهم يفهمونه.

(٣) تنمو: تزيد (يبالغ الناس في الحوادث عند روايته).

(٤) تضرب فيه الأمثال: (يوازن فيه بين الحوادث القديمة والحوادث الحاضرة).

(٥) الأندية جمع ناد (مكان اجتماع الناس). إذا غصّها الاحتفال (اذا امتلأت وازدحمت بالناس). تطرف به الأندية: تروي فيها أشياء طريفة (مستغربة).

(٦) عمر الناس الأرض وبنوا (بفتح النون) البنيان وأقاموا الحضارات.

مِنْهُمُ الزَّوالُ[1]. وفي باطنهِ نظرٌ وتحقيق وتعليلٌ للكائنات[2] ومبادئها دقيق وعِلْمٌ بكَيْفيّات الوقائع وأسبابها عميق. فَهُوَ لذلك أصيلٌ في الحِكمة وعريق[3] وجديرٌ بأنْ يُعَدّ في عُلومها وخليق».

وفي القرآن الكريم جوانبُ من التاريخ ومن علم التاريخ أيضاً.

أما جوانبُ التاريخ التي يمكن أن تدخُلَ في «رِواية الأحداث» فتنقسمُ قِسمَيْنِ آثنينِ: ما جاء منها يَقُصّ أخباراً وقَعَتْ قبلَ مجيء الإسلام ثم ما جاء منها يقُصّ تاريخَ الدعوةِ الإسلاميّة في حياةِ رسولِ الله.

إنّ التاريخَ نفسَه طويلٌ، والأُمَمُ التي مرّت فيه ثمّ آنقرضت كثيرةٌ أيضاً، يعُدُّ القرآن الكريم منها قومَ نوحٍ «وعاداً وثَمودَ وأصحابَ الرَّسِّ وقُروناً بَيْنَ ذلك كثيراً»[4] (٢٥: ١٩، الفرقان؛ راجع ١٧: ١٧ الاسراء؛ ٢٨: ٤٣ القصص). ثمّ إنّ هذا التاريخَ قديم جِدّاً يَرِدُ التعبيرُ عن قِدَمِهِ في القرآن الكريم بلفظ «القُرون»[5] (١٠: ١٣ يونس، ١١: ١١٦ هود، ٤٦: ١٧ الاحقاف) وبلفظ «القُرون الأُولى» (٢٠: ٥١ طه، ٢٨: ٤٣ القصص). هذه القرونُ الكثيرةُ (أو أجيالُ الناس) لم تكن قبلَ نوحٍ فقط (وكان نوحٌ نَبيّاً قديماً جِدّاً)، بل من بعدِ نوحٍ أيضاً: «وكم أهْلَكْنا من القُرون من بَعْدِ نوحٍ...» (١٧: ١٧ الاسراء).

(١) حان: قرب.

(٢) الكائنات جمع كائنة: حادثة (من الحوادث).

(٣) عريق (قديم).

(٤) القرون جمع قرن (أهل الزمن الواحد: الجيل من الناس يعيشون في زمن واحد).

(٥) تاريخ القرون أو القرون الأولى: التاريخ القديم.

والقرون أو أجيالُ الناس أو الأُمَمُ يمكن أن تعيشَ (موحّدةً، سائدة، ذاتَ حضارة ودولة) مدّةً طويلة: أنشأنا قروناً فتطاوَلَ عَلَيْهِمُ العُمُر (٢٨: ٤٣ القصص)، وربّما لا تعيشُ طويلاً (بأسبابٍ سيأتي ذِكْرُها عند ذكر عمر الدول وتعاقبها).

والتاريخ القديم يُذْكَرْ في القرآن الكريم باسم «القرون الأولى»، وتكون أخبارُها عادةً غائبةً من الذاكرة الإنسانية (٢٠: ٥١ ـ ٥٢ طه): «قال: فما بالُ القرون الاولى؟ قال: عِلْـمُها عند ربّي في كتابٍ لا يَضِلُّ ربّي ولا ينسى». ومعنى «في كتاب لا يَضِلُّ ربّي ولا ينسى» «مُهِمّ جِدّاً في فَهْم التاريخ. إنّ أحداثَ التاريخ قد تَغيبُ من ذاكرة الناس، ولكنّ قواعدَ التاريخ تظَلُّ فاعلةً في جاعاتِ البشر. إنّ أثرَ السُّلوك الإنسانيّ (وما يلحَقُه من ثوابٍ وعقاب: من نُشوءِ الجماعات الحضارية وانقراضها) لا يُنقَلُ في الكتب ولا على الألسنة فقط، بل يستمرُّ في أخلاقِ الناس وعاداتِهم وأعمالهم وأوهامهم أيضاً.

وَهذا التاريخُ (قديماً كان أو قريباً) يُحفَظُ في الكتب (٢٦: ١٩٦ الشعراء) ويحفظ في الآثار الباقية (في القصور المهجورة وفي الآثار العاديّة[1] وفي الروايات الباقية):

ـ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين كانوا من قبلهم؟ ـ كانوا أشدّ منهم قُوّةً وآثاراً في الارض (٤٠: ٢١، ٨٢).

---

(١) العاديّ: القديم جدّاً (من أيام عاد: جدّ جاهليّ قديم من حدود العرب).

وهذا التاريخُ المقصوصُ (الـمُدوَّن في الكتب والعالقُ بالذاكرة) لا يمكن أن يكونَ مجموعاً كلُّه ومحفوظاً، وإنّما وَصَل إلينا جانبٌ منه فقط:

ـ تلك القرى نقُصّ عَلَيْكَ «من» أنبائها [1] (٧: ١٠١ الأعراف، ١١: ١٠٠، ١٢٠ هود، ٢٠، ٩٩ طه).

والأنباء (أوِ الأخبار) حينما يُدوِّنُها الناس بأيديهم في الكتب يلحقُها أشياءُ من الخطأ والشَّطَط [2] والزيادة والنَّقص والكَذِب والباطل. ويلحَقُها مثل ذلك كلِّه وأكثر منه إذا هي آنتقلتْ بالرِّواية على الألسنةِ من جيلٍ إلى جيل.

ويبدو أن كَلِمَةَ أساطيرَ كانتْ قد أصبحتْ مألوفةً في الجاهلية الثانيةِ (القريبةِ من ظهورِ الإسلام) بمعنى القِصّة الخُرافية التي تدور حول الآلهة والأبطال والأحداث الخارقة للعادة والأباطيل (المعجم الكبير ١: ٢٨٥). ويبدو أيضاً أنّها كانت معروفةً بصيغة الجمع، ولم يكن مفردُها مألوفاً [3]. ولقد قَرَّعَ القرآنُ الكريم أولئك المشركين الذين كانوا يستهزئون بالوحي ويتقوّلون على ما فيه من أسباب النصح وضرب الأمثلة للإصلاح ويزعُمون ـ من عِند أنفسهم ـ أن كلَّ ذلك من «أساطير الأوّلين». ولا شكَّ في أنَّ هؤلاء الذين لم يؤمنوا منذ مطلعِ الدعوة الإسلاميّة (كالمشركين من العرب) أو لم يؤمنوا قطُّ (كجماعات من الأحبار من اليهود وكالرؤساء من النصارى [4] خاصّة) لم يَقْصِدوا أن يخصّوا باسم «أساطير الأوّلين» الأحداثَ

(١) من أنبائها: شيء قليل من أنبائها (أخبارها).

(٢) الشطط: الابتعاد عن الحق.

(٣) المفرد أسطورة (على القياس).

(٤) كان جمهور أهل الأديان عند الفتح الإسلامي يدخلون في الإسلام بكثرة وسرعة (بعد

يخيّةً فقط (ممّا ورد في القرآن الكريم) كالإخبار عن نوحٍ وابراهيمَ وهودٍ)، بلْ كُلَّ مـا نَزَلَ من القرآن (٢٥ : ٥ الفرقان، ٦٨ : ١٥ القلم، ٨٣ : ١٣ المطفّفين). وفي كثيرٍ من الأحيان كان الـمُشركون من العرب هم الذين يَعُدّون البعث (يوم القيامة) من هذا الباب (٢٣ : ٨٢ - ٨٣ المؤمنون، راجع ٢٧ : ٦٧ - ٦٨ النحل، ٤٦ : ١٧).

كانت الغايةَ من هذا الآستشهاد الطويل أنّ ندُلَّ على أنّ مدركَ التاريخ في الجاهليّة كان خاطئاً، إذ غَلَبَ الجانبُ الخُرافي في الجاهلية على الجانبِ الواقعيّ الـمَنطقيّ العقليّ حتّى تملّكَ الجانبُ الأوّلُ القلوبَ وغاب الجانبُ الثاني في ثنايا الجهل والعِناد. من أجل ذلك أصبح العقلُ الإنسانيّ، في الجاهلية، بحاجة إلى الإيقاظ، وكان التاريخُ القديم (الذي ظلّتْ نتائِجُه معروفة برُغم تطاوُلِ الزمن على أحداثه) سبيلاً من تلك السُّبُل التي يُدعى بها العقل إلي التفكير في الأمور وإلى الاعتبار بنتائجها. وفي الآياتِ التالية من آخرِ سورةِ يُوسُفَ (السورةِ الثانيةَ عَشْرَةَ في الـمُصحَف) صورةٌ واضحةٌ كاملةٌ للدعوة إلى العِبرة بأخبار الماضين:

- وما أرسْلنا من قبلِكَ إلاّ [٢] رِجالاً نُوحي إلَيْهِم مـن أهـلِ القُـرى؛ أفَلَمْ يسيروا في الأرض فينظُروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلِهِم؟ ولَدارُ الآخرةِ خيرٌ للذين آتَقَوْا. أفَلا تَعْقِلون؟

= الفتح) لأنّهم كانوا يعانون اضطهاداً دينيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً من رؤسائهم. أمّا الرؤساء فبقي كثيرون منهم على اديانهم الأولى، فلا يزال مثلا إلى اليوم جماعة من البارسيّين (الفرس القدماء) يعيشون في الهند على الدين المجوسيّ القديم.

(١) من قبلك: قبلك (يا محمّد).

حتّى إذا استَيْأس الرُّسُلُ وظنّوا[1] أنّهم قد كُذِبوا،
جاءهم نصرُنا، فَنُجِّيَ من نَشاءُ.
ولا يُرَدُّ بأسُنا[2] عنِ القوم المُجرمين.
لقد كان في قَصَصِهم عِبْرةٌ لأُولي الالباب.
ما كان حديثاً يُفترى،
ولكن تصديقَ الذي بينَ يديهِ[3] وتفصيلَ كلِّ شيء؛
وهُدًى ورحمةً لقومٍ يؤمنون.

ويبدو أن هذا القَصَص (التاريخ المقصوصَ على الناس) وسيلةٌ فعّالة إلى التفكير في العواقب بعدَ اليَقَظة من الغَفْلة (٧: ١٧٦ الأعراف).

- فاقْصُصِ القَصَص لَعلّهم يَتَفكّرون.

وتكونُ العِبرة أوضحَ والتفكيرُ في ذلك أكثرَ نفعاً إذا رأى الإنسان الآثارَ بعد زوالِ أصحابها، فإنّه يَطّلعُ حينَئِذٍ على عددٍ من حقائق التاريخ ومن عوامل الحضارة ومن الأخطاء الاجتماعيّة التي تُعرِّضُ الأممَ للآنقراض، وتلك أمثالٌ عَمَليّة في الحياة الإنسانية (١٤: ٤٥ ابراهيم):

- وسَكَنْتُمْ في مساكنِ الذين ظَلَموا أنفُسَهم. وتَبَيَّنَ لكم كيف فَعَلْنا بهم. وضَرَبْنا لَكُمُ الأمثالَ.

---

(١) استيأس: يئس، قنط (فقد الأمل). ظنوا (هنا): ايقنوا.

(٢) لا يرّد بأسنا (عذابنا، عقابنا): لا يسامح المجرمون عند الحساب، بل لا بدّ من عقابهم.

(٣) - إنّ هذه القصص المرويّة في القرآن (مثل قصّة يوسف مثلا) ليست حديثاً مفتري (ملفّقاً) كما جاء في عدد من الكتب القديمة أو كما جاء أحياناً على الألسنة، ولكنّها «تصديق الذي يديه» (موافقة للكتب السماوية التي نزلت على الانبياء قبل القرآن).

ولكنْ في كثيرٍ من الأحوال يغفُلُ الناسُ عن منطق الأحداث في التاريخ فيسمعون الأخبارَ ثـمّ يَرْوُونَها مَعَ كلّ ما في رِوايتها ـ في وُصولِها إليهم ثـمّ في مُناوَلَتِها للـمُعاصرين لهم وللمتأخّرين عنهم ـ من الغُموض (٢٨ : ٦٦ ، القِصص). من أجل ذلك يسمعون تلك الأخبارَ من التاريخ تُروى لهم وفيها مواضعُ كثيرةٌ للعِبرة وللازْدِجار[١] عمّا يكونون فيه أحياناً من السوء ومن الأعمال التي تُؤدّي بالأممِ حتْماً إلى الانقراض. ولكنّهم لا يعتبرون ولا يَزْدَجِرون (٥٤ : ٤ وما بعد، سورة القمر).

* * *

وفي القرآن الكريم جانبٌ كبيرٌ من التاريخ المتعلّق بالدعوة، وخصوصاً في وَصْفِ المعاركِ وفي انتشار الدعوة وما قام في وَجْهِها من الـمُثَبِّطات وما نَصَرها من الأحوال. وفيه أيضاً كثيرٌ من وصف حياة رسولِ الله ومن حياة نفرٍ عديدين من أصحابه[٢].. غيرَ أنّ ذلك جانبٌ يحتاجُ إلى كتاب كامل. ولكن لا بُدَّ هنا من الإشارة إلى عدد من أحداث التاريخ، ولا سيّما تلك الأحداث التي لا تزال واضحة في الذاكرة الانسانية.

في سورة طَهَ (٢٠ : ٩ ـ ٩٨) قِصّةُ موسى من وِلادته إلى مغادرته بِبني إسرائيلَ أرضَ مصر:

---

(١) الازدجار: التوقّف عن العمل القبيح حينما يطلب من الانسان أن يتوقّف عنه.

(٢) القاعدة أنه لا يذكر في القرآن أسماء المعاصرين له. ولكن ذكر زيد بن حارثة (٣٣ : ٣٧ الأحزاب) وأبو لهب (السورة ١١١ في المصحف)، ووأشير إلى ألي بكر الصدّيق (بغير اسمه) عند هجرة الرسول من مكّة إلى المدينة (راجع ٩ : ٤٠ التوبة).

وُلِدَ موسى فخافتْ أمّه أن يقتُلَه فِرْعَوْنُ، إذ كان فرعونُ قد خُيِّلَ إليه أنّ طِفلاً سيولدُ ويغيّر وجهَ التاريخ القريبِ منه، فأمرّ بقتلِ كلّ الأطفال الذين وُلدوا في بُرهة معيّنة. وخافت أمّ موسى على موسى فألْقَتْهُ في اليمّ (في النهر: نهر النيل)، فوجدتِ ٱبنةٌ لِفرعونَ هذا الطفلَ وأحبّت أن تخُصَّ به نفسَها (فنجا بذلك موسى من القتل).

ونشأ موسى وبعثه الله رسولاً لِيَدْعُوَ قومَه ويدعوَ فرعون إلى عبادة الله (وكان فرعونُ يرى أنّه هو الربُّ في البلاد). أحسَّ موسى بضَعْفٍ في لِسانه وبأنّه يَعْجِزُ أحياناً عن التعبيرِ الواضح أو التعبيرِ بسُرعة فتمنّى أن يكونَ مَعَه أخوه هرونُ، فيكونَ هرونُ أحياناً أوضحَ تعبيراً عمّا يريدان قولَه لفرعونَ، ثمّ يكونَ وجودُهما معاً أكثرَ تأثيراً في فرعون.

وكان السِّحْرُ في مِصْرَ بَراعةَ الكَهَنةِ فيها، فلم يكُنْ بُدٌّ من أن تكونَ المعجزة التي يُحاولانِ بها إقناع فرعونَ أو أتباعِ فرعونَ من جنس السحر، ولكن من باب الكرامة لا من باب التهويل. فلمّا ألقى السَحَرةُ المصريّون الحِبالَ والعِصِيَّ أرضاً وجعلوها تظهَرُ لأعيُنِ الناس كأنّها حَيّاتٌ وأفاعٍ تسير (راجع ٧ : ١٠٦ - ١٢١ الأعراف) ألقى موسى عصاه «فإذا هي تلقَفُ ما يأفِكون» (٧ : ١١٨) - ذلك لأنّ السَّحَرَةَ المصريّين جاءوا بإفْكٍ (كَذِبٍ) وأوْهموا الناسَ من باب التخييل (التأثير النفسي) أنّ الحبالَ والعِصِيَّ أفاعٍ. وكانتِ الكرامةُ (المعجزة) لموسى دَفْعَ ذلك الوَهْمِ عن عيونِ الناس، فظَهَرَتِ العصا التي ألقاها موسى كأنّها ثُعبانٌ أكبرُ من تلك الأفاعي وأن ذلك الثعبانَ يبتلع تلك الأفاعي.

وجرى جِدالٌ بينَ فرعونَ من جانبٍ وموسى وهرون من جانبٍ آخَرَ، فلم يقتنعْ فرعونُ بما قالا. وما كان فرعونُ ـ في الـمَدْرَكِ السياسيِّ الدنيوي ـ لِيَتْرُكَ الـمُلْكَ في سبيلِ دعوةٍ إلى الحقِّ تَسْلِبُه ذلك الـمُلك، فأصرَّ على عِناده. وأمر اللهُ تعالى موسى بأن يخرُجَ ببني إسرائيلَ من مِصْرَ، في سِتْرٍ بقَدْرِ الامكان. ولكن لم يكن بُدٌّ من أن ينكشفَ خُروجُ بني اسرائيل بهذا العَدَد الكبير، فَلَحِقَ بهم فرعونُ على رأس جيشٍ لا يريد (في الأغلب) أن يَرُدَّهم إلى مصر، ولكن لِيَقْضِيَ عليهم لأنّ زعيمَهم موسى (ولم يكن فرعونُ يؤمن بنُبوَّةٍ لموسى أو لغيرِ موسى ـ ما دام هو يعتقد في نفسِهِ أنّه ربُّ هذا الوجود) قد حاولَ أنْ يَخْفِضَ مكانَتَه في نَظَرِ المِصريّين. ولا شكَّ في أن فرعونَ كان يرى في نفسِهِ أنّه إذا هو آستطاع القضاءَ على موسى وقومه فإنّه يستطيعُ أنْ يَرُدَّ المكانةَ التي كانت له (أي لفرعون) عند المصريّين قبلَ أن يستطيعَ موسى بمعجزته أن يتغلّبَ على سِحْرِ الكَهَنَةِ المِصريّين.

وقطع موسى ببني اسرائيل البحر (بحر القِلْزم، في شمَاليّ البحر الأحمر أو اللسان الغربيّ من البحر الأحمر بينَ برّ شِبه جزيرة سيناءَ وبرِّ مِصْرَ). ورأى فرعونُ موسى يقطَعُ ذلك الجسم من الماء مشياً فأراد تقليدَه وفعل فعلَه. ولكنّ البحر الذي كان هادئاً قليلَ الماء لـمّا جازه موسى، طفا الآنَ وزاد موجُه فَغَرِقَ فرعونُ وجُنودُه.

لهذا الحادثِ التاريخيّ أوجهٌ من التعليل ومن التفسير، ولكنّ المقصود الآنَ هنا صورةٌ من صُوَرِ التاريخ القديم في القرآن الكريم غايتُها الأُولى تلك العِبرةُ التي يراها العاقل في الحوادث التي تجري في أكثرِ الأحيان على غيرِ ما ينتظرُ الناس.

ومن القِصص المشهورة في القرآن الكريم قِصّة مريمَ ٱبنةِ عِمرانَ، وهي قِصّة مفصّلة في سورة مريمَ (التاسعةَ عَشْرَةَ في المصحف).

كانت مريمُ ذاتَ يومٍ في جانبٍ من بيتها لبعض شأنِها فتراءى لها أنّ مَلَكا (بفتح ففتح: واحدَ الملائكة) يحمل إليها بُشرىَ بوِلادة غُلامٍ لها. ولم تكُنْ مريمُ ذاتَ بعلٍ فجرى في نفس مريمَ نِزاعٌ بين حالِها هذه (وهي أمينةٌ في نفسِها عفيفةٌ) وحالِ الناس إذا هم عَلِموا أنّها حُبلى (وليس من المألوف أن تَحمِلَ امرأةٌ لا زَوْجَ لها).

ولكنّ اللهَ تعالى دافع عن مريمَ وسَوّغَ حالَها بأنّ الله يفعَلُ ما يشاءُ بِعَدَدٍ من القوانين التي أقرّها في عالمنا.

والغايةُ من هذه القِصّة أنّ الله تعالى أرادَ أن يدفَعْ قول الذين قالوا، فيما بعد، إنّ عيسى بنَ مريمَ (وقد وُلِدَ على غيرِ الصورة المألوفة عند الناس) ٱبنٌ لله، تعالى الله.

والأناجيل القانونيّة الموجودة بأيدي الناس ليس فيها التفاصيلُ التي جاءتْ في القرآن ولا الدفاعُ عن عِفّة مريم كما جاء ذلك الدفاعُ في القرآن. ومَعَ ذلك فإنّ إنجيلَ مَرْقُسَ لا يذكُرُ شيئاً عن ولادة عيسى عليه السلام. وفي إنجيل متّى (١: ١٨، ٢٠) وإنجيل لوقا (١: ٣٠) أن مريمَ وُجِدَتْ حُبلى من الروح القدس. وفي إنجيل يوحنّا كلامٌ رمزيّ: «في البَدْء كانَ الكلمةُ، والكلمةُ كان عند الله. وكان الكلمةُ (بالرفع) اللهَ (بالنصب)... وأمّا كلّ الذين قَبِلوه (أي اتّبعوا عيسى بنَ مريمَ المسيحَ) فأعطاهم (الله؟، المسيح؟) سُلطاناً أن يَصيروا أولادَ اللهِ، أي المؤمنين بٱسمه، الذين ولدوا ليس من دَمٍ

ولا من مشيئة جسدٍ ولا من مشيئةِ رجُلٍ ، بل من الله (يــوحنّا ١ : ١ ، ١٢ ، ١٣ ؛ راجع لوقا ١ : ٢ ، ٣٢).

أمّا النـصّ اللاتيني ففيـه : واللهُ (بـالـرفـع) كـان الكلمـةَ . وفي النـصّ الانكليزي : والكلمةُ كانتِ اللهَ.

ومهما يكن من أمر فإنّ مريمَ ٱبنةَ عِمرانَ قد نَزّهَها القرآنُ الكريمِ في مطلع القرن السابع للميلاد ، بينما الكنيسةُ لم «تُطَوِّبْ» مريمَ (ترفَعْها إلى مرتبة القِديّسين) إلاّ في مُنتَصَفِ القرنِ التاسعَ عَشَرَ.

حروب الروم والفرس

جاء في مطلعِ سورة الروم (السورةِ الثلاثينَ في الـمُصْحَفِ):

﴿آلم * غُلِبَتِ الرُّومُ * في أدنى الأرضِ .
وهُمْ من بَعْدِ غَلَبِهِمْ سيَغْلِبون * في بِضعِ سِنِينَ.
لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ.
ويومَئِذٍ يفرَحُ المؤمنون * بنصرِ الله ،
ينصُرُ من يشاءُ . وهُوَ العزيزُ الرحيم *
وَعْدَ اللهِ. لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ،
ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يعلَمون *

قصّة هذه الحرب

كانتِ الحرب بينَ الروم (البيزنطيّين) والفُرس مستمرّةً في زمن طويل، وكانتْ تمُرّ في أطوارٍ كثيرة مختلفة. وفي أحدِ الأطوار (منذ عام ٦٠٢

للميلاد = ٢٠ قبل الهِجْرةِ، وقبلَ ثماني سَنَواتٍ من بِعَثةِ رسول الله) كان النصرُ حليفاً للفرس.

ثـمّ كانتْ بِعثةُ مُحَمّدٍ رسولِ الله (عام ٦١٠ للميلاد) والفرس يُنْزِلون بالروم الهزائمَ في كلّ مكان ويُجْلونهم عن الأراضي التي كانتْ تحتَ أيدِيهمْ في العراق والشام ومصر وارمينية. واستمرّ الفرس في آنتصارهم هذا إلى ربيعِ عام ٦١٩ للميلاد (راجع الروم وصلاتهم بالعرب ١ : ٢٢٣ - ٢٢٧).

وحدثتْ بين الروم والفرس معاركُ وكانتِ الهزائمُ فيها كلّها على الروم في كلّ مكان، وقُتِلَ منهم جماعاتٌ كثيرة.

في هذه الأثناء (وقبلَ الهِجرة)، كان مُشرِكو مكّةَ يُجادلون محمّداً رسولَ الله ويقولون: أنتَ تَدْعونا إلى تَرْك أصنامِنا وعبادةِ الله وَحْدَهُ، وهؤلاء الفُرسُ (وهم مشركون مِثلَنا) ينتصرون في كلّ مكانٍ على الروم (وهم مُوحِّدون[1]، وعلى مِثل الدين الذي تدعونا أنتَ اليه).

في ذلك الحينِ، وفي أثناء ذلك الاعتراضِ من جانبِ المشركين من العرب في مكّة، نَزَلَتْ سورةُ الروم، وفي مَطْلَعِها (٣٠ : ١):

﴿.... غُلِبَتِ الرومُ في أدنى الأرض[2]، وهُمْ من بعدِ غَلَبِهم سيَغْلِبون في بِضْعِ سنينَ﴾.

---

(١) كان النصارى فرقا (بكسر ففتح) كثيرة. وكان جماعات منهم يعتقدون أن عيسى رجل صدّيق، ليس آلهاً ولا ابناً لله. وقد بقي نفر من هؤلاء الى مطلع العصر العبّاسي (ثـمّ قضت عليهم سياسة الروم البيزنطيّين).

(٢) في أدنى الأرض، (على مقربة من شماليّ بلاد العرب).

وفي بِضْعِ سنينَ، بعدَ نحوِ ثلاثِ سَنَواتٍ (آبتداءً من نَيْسانَ من عام ٦٢٢ للميلاد، وقُبيل الهِجرة) بدأ الرومُ ينتصرون على الفرس، ثمّ آستمرّ آنتصارُهم إلى عام ٦٢٨ (في العام الذي فَتَحَ الرسولُ فيه مكّة) وإلى ما بَعْدَ ذلك بقليل، إلى عام ٦٣٤ للميلاد والثالثَ عَشَرَ للهِجرة:

وَعْدَ اللهِ؛ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ (٣٠:٦، سورة الروم).

ولقد كان بالإمكان أن أتكلّمَ هنا على المعارك التي خاضها الرسولُ في بلادِ العرب ثمّ على الحروب التي خاضها المُسلمون في العالمِ منذ خِلافةِ عُمَرَ بنِ الخطّاب. ولكنّ هذا ينقلنا إلى أحداث التاريخ، وليس هذا من شرط هذا الكتاب. ثمّ إنّ هذا الجانب من الحرب (من تاريخ الحروب) معروف من كتب التاريخ. ثمّ إنّ أكثره محفوظ في الذاكرة الانسانية.

إنّ التاريخَ في الإسلام (وفي القرآن) هو التاريخُ المُدَوَّن (التاريخ الواقع). إنّ وصفَ معركةِ بدْرٍ ومعركةِ أُحُدٍ ومعركةِ حُنين وصفٌ لكلّ ما جرى فيها وما جرى على المُسلمينَ فيها، من نصرٍ وهزيمةٍ، ثم ما كان من تعليلِ النصر والهزيمة بأسبابٍ من المَنْطِق الإنساني والواقع الطبيعي والمألوف الاجتماعيّ.

في القرآن الكريم جانب مُهِمٌّ جِدّاً من التاريخ: جانبُ تعليلِ التاريخِ (ربطِ النتائج بأسبابها في نُشوءِ الأمم وزوالها).

وهنا موضع ملاحظة

ليس معنى نُشوءِ الأُمم وجودَها بعدَ أن لم تـكُـنْ ، ولكنّ معناه نهوضُ الأمم إلى السير على رأسِ مَوْكِبِ التاريخ في بُقعةٍ من بِقاعِ الأرض وفي حِقبة من حِقَبِ الزمن، وذلك بأن يكونَ لها قِسطٌ كبيرٌ من إيجاد حضارةٍ أو في توسيعِ حضارةٍ يعيشُ في ظِلّها الناسُ من أفراد تلك الأمّة ومن غيرِ أفراد تلك الأمّة. وكذلك ليس معنى زوال الأمم (أوِ انقراضها) فناءَ أُمّةٍ من الأمم وزَوالَها عن وجهِ الأرض. ولكنّ معناه تراجُعُ تلك الأُمّة عن مقام الصَّدارة في الحياة فتُصْبِحُ محكومةً بعد أن كانتْ حاكمةً أو تابعةً بعد أن كانتْ متبوعةً. وتضيعُ الأمّةُ المنقرضة في غيرِها من الأمم حينما تَفقِدُ قُدرتَها على إنشاء أسباب الحضارة فتستخدمُ أسبابَ الحضارة التي أنشأتْها أُمَمٌ غيرُها. إنّ أشخاصَ الناس الذين كانوا يعيشون في الدولة الرومانيّة لم يَنْدَثِروا، ولا قُطِعَ نَسْلُهـم، ولكنّهـم ضَعُفـوا في مجال الحضـارة الإنسـانيـة فتقسّمـوا في الحضارات التي أنشأتْها شُعوبٌ كانت خاضعةً لهم ثم ذابوا في الدول الجديدة في إيطالية (مَعَ أن إيطالية كانت مهدَ الرومان وميدان عظمتهم وحَضارتهم) وفي فرنسة وإسبانيا وفي غيرِها من البلاد.

وكذلك نَجِدُ نحنُ اليومَ في بلادنا ـ في بلادِ العرب (وهم يُسَمّونها: بلادَ الشرق الأوسط) ـ أنّ أُمَماً كانتْ تحكُمُ البلادَ وتُنْشِيء فيها الحضاراتِ: البابليّينَ والآراميّين والكَنْعانيّين (ولا تقُلِ: الفينيقيّونَ) واليونانَ والفُرسَ والرومانَ وغيرَهم. ثـمّ جاء العربُ بالإسلام فأسْلَمَ من أسْلَمَ (وهُمُ الكَثْرة) واكتفي بالتعرُّب منهم مَنِ اختار ذلك (في لُغَتِهِم ومِنهاج حياتهم ومَنْحى

تفكيرهم) وأصرّوا عليه إلى اليوم (وهُمُ القِلّة). ولكنّ الناقدَ البصيرَ يستطيعُ أن يلمَحَ اليومَ أصلَ نفرٍ من هؤلاء في تهجئة أسمائهم وفي شيء من ملامحِ وُجوهِهِم[1] وفي عددٍ من أحوال مَعاشهم أو في أمانيّ نفوسهم (مَعَ أنّ كلّ هذه الأمورِ لا يُمكِنُ أن يكونَ لها الحُكْمُ الفَصْلُ في مثل هذا الشأن، ولكن يرجَحُ بها الظنُّ في كثيرٍ من الأحيان).

وفي القرآن الكريم ذِكْرٌ لعددٍ من العوامل التي تنشأ بها الأُمم والدُّوَلُ وعددٌ من العوامل التي تنقرضُ بها الأمم والدول. ولكنْ بما أن هذا الذِّكْرَ - في القرآن الكريم - للعِبرة وٱلِاتّعاظ أكثرَ ممّا كان لإثباتِ مدركٍ سياسيٍّ، فإنّ معالجةَ نُشُوءِ الأممِ وآنقراضِها جرى في نِطاق واحدٍ من غيرِ فَصْلٍ بينَ الطَّوْرَيْنِ عند الذِّكْرِ والـمُعالجة.

إنّ لِكُلّ أمّةٍ على وجهِ هذه الأرضِ أجلاً (أو عُمُراً أو مُدّةً تَحْياها) مِثلَما لِكلّ فردٍ من أفرادِ الناس. وكما أنّ الفردَ من أفرادِ الناس يعيشُ في هذه الدنيا مدّةً مقدّرةً له في عِلمِ الله بأسبابٍ في جسمِهِ وفيما حولَه، فإنّ أعمارَ الأُمم مقدّرةٌ في علمِ الله أيضاً بما يجري في الأُمَمِ من مخالفة سُنَّةِ الله في حياتِها

---

(١) من أسماء الأسر المسلمة: دكّيز وشامبور، ومن أسماء الأسر النصرانية: الدويهي، بردويل، الصليبيّ (وكلّ هذه الأسماء من العهد الفرنجي في أثناء الحروب الصليبيّة). أمّا الاسماء مثل عبدو، علما، صليبا فهي ترجع إلى الحقبة الآرامية أو السريانية. وأمّا الأسماء: تويني، بسترس، كرياكوس فأسماء ترجع إلى العهد الرومي (اليونانيّ). ونلاحظ أن لبعض الناس شعراً (في الرأس) أسود ثـمّ لحية وشوارب صهباء (شقراء أو حمراء). ولقد رأيت أنا هذا يكاد يكون عامّاً في الجانب الجنوبيّ الغربي من ألمانية. ويبدو أن هذا أيضاً موجود عندنا منذ أيام الصليبيّين.

الطبيعيّة، وكلّ ذلك في كتاب (مُعَيّناً مُقَدّراً) ولكن مُؤجّلاً (غائباً عن علم الفرد، وإن كان على شيء من الظُّهور والوُضوح في أعمار الأمم):

- وما كان لِنَفْسٍ أن تموتَ إلاّ بإذْنِ الله كِتاباً مُؤَجَّلاً (٣: ١٤٥ آل عمران).

- وما يُعَمَّرُ من مُعَمَّرٍ ولا يُنْقَصُ من عُمُرِهِ إلاّ في كتاب (٣٥: ١١ فاطر).

- ولِكُلِّ أُمّةٍ أجلٌ؛ فإذا جاء أجَلُهُم لا يَسْتأخِرون ساعةً ولا يَسْتَقْدِمون (٧: ٣٤ الأعراف، راجع ١٠: ٤٩ يونس، ١٦: ٦١ النحل).

ولا ينتهي عُمُرُ أُمّةٍ إلاّ إذا آجتمع لها عدد من تلك الأسباب التي قدّر اللهُ تعالى أن تزولَ بها الأمَمُ، وبعدَ أنْ يترُكَ اللهُ لتلك الأمَمِ مُهْلَةً للهِداية والإصْلاح، ثـمّ يُرسِلُ الله في أثناء تلك الـمُهلة، إلى تلك الأمَم من الرُّسُلِ أو من الآياتِ (العلاماتِ الدالّة) ما يُنْذِرُها ويُذَكِّرها بالرُّجوع عن أعمال السوء:

- ولو يُؤاخذُ اللهُ الناسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْهـا مـن دابّـةٍ[1]، ولكـن يُؤَخِّرُهُم إلى أجلٍ مُسمّىً؛ فإذا جـاء أجَلُهـم لا يَسْتـأخِـرون سـاعـةً ولا يَسْتَقْدِمون (١٦: ٦١ النحل، ثـمّ راجع ١١: ٦١ هود، ٢٠: ١٢٨ طه، ٢٦: ٢٠٨ الشعراء، ٣٢: ٢٦ السجدة، ٤٦: ٢٧ الاحقاف).

وفي مَنْطِقِ التاريخ (ومنطق الحياة نفسِها أيضاً) أن الأمّة التي تزولُ

---

(١) دابّة: مخلوق يدّب (يتحرّك) على وجه الأرض.

بحضارتها عن سطح هذه الأرض لا تعودُ مرّةً ثانيةً إلى سطح هذه الأرض وبالحضارة التي زالت مَعَها، بَيْنَما الأرضُ تموتُ (يَذْوي نباتُها ثـمّ يَيْبَسُ ويكون حُطاماً)، ولكنّها تَرْجعُ (في العام التالي) إلى الحياة بالّنبات الذي كان لها في العام السابق (٣٦: ٣٠ ـ ٣٥ يّس). وسببُ الفَرْق ـ في هذا الشأن ـ بينَ عالَمِ الإنسانِ العاقلِ وعالَمِ النبات البَريء أنّ الإنسانَ مُكَلَّفٌ (بما وُهِبَ من العقل) مسؤول عن جميع أعمالِهِ ومُحاسَبٌ عليها ثـمّ مَجازًى (مُثابٌ أو معاقب)، بينها النباتُ مُدَبَّرٌ (بعواملَ لا يَمْلِكُها النباتُ)، فهو من أجل ذلك غيرُ مسؤول. ومَعَ ذلك فهنالك مُوازنةٌ يسيرةٌ بينَ عالَمِ الانسانِ وعالَم النبات. إنّ الإنسانَ يعودُ إلى حياةٍ ثانيةٍ بعدَ أمدٍ طويل لِينالَ جزاءَ ما قَدّمَتْ يداه من خير أو شرّ، كما يعودُ النبات في كلّ عام وفي حالٍ تَحْمِلُ نَتائجَ العواملِ التي كانتْ له في العام السابق. يكونُ للنَبْتةِ الواحدةِ عددٌ كبير من البِذْرِ، قد يختلف بعضُها من بعضٍ في الحجم والصِّحّة ومِقدارِ الحَيَويّة. ففي العام التالي يَخرُجُ من عدد من هذه البذور نباتٌ جديد، ولا يخرُج من بعضِها الآخَرِ نباتٌ أبداً. بعدَئِذٍ لا تكونُ جميعُ النباتات الخارجةِ من تلك البذور على حالٍ واحدةٍ: بل تكونُ الحال في كلّ نبتةٍ جديدة بِحَسْبِ حالِ البِذرة التي خَرَجَتْ منها تلك النبتةُ.

وبما أنّ النباتَ والحَيَوان البهيمَ لا تاريخَ لهما، ولا لهما أحوالٌ آجتماعيةٌ أو أحوالٌ فرديّة تُؤثّر في العوامل الطبيعيّة حولَهما، فإنّ النباتَ والحَيَوانَ البهيمَ غيرُ مَسْؤولَيْنِ عمّا يتّفق لهما من الأعمال، فلا يحتاجانِ إلى أن يُحاسَبا على تلك الأعمال. أمّا الإنسانُ (أوِ الحَيَوانُ العاقلُ ـ في الـمَدْرك الفلسفيّ

اليونانيّ) فَهُوَ بِخِلافِ ذلك مسؤولٌ عمّا يفعل، فَيَجِبُ أن تكونَ له حالٌ مُقبلةٌ مُعيَنةٌ يُحاسَبُ فيها.

إذا كان للأُمَم آجالٌ مكتوبةٌ (مُقدّرةٌ، محدودةٌ)، فما العواملُ التي ينتهي بها أجَلُ كلّ أُمّةٍ؟

رأينا أنّ لكلّ أُمّةٍ عُمُراً طبيعياً لا تتعدّاه (لا بدّ مِنَ انتهائِه). هذا العُمُرُ الطبيعيُّ (أو الأجلُ المحدود) تَسْبِقُهُ في العادة الراتبة علاماتٌ.

أولى هذه العلامات الظلم.

أنّ أبرزَ الأسبابِ وأكثرَها ذِكْراً في هَلاكِ القُرى (المدن) أوِ انقراضِ الدول كان الظُّلْمَ. لقد كان أهلُ تلك القُرى يقومون بأعمالٍ يَظْلِمون بها أنْفُسَهُمْ أو يَظْلِمون بها غيرَهم.

والقريةُ هنا بمعنى الدولة، لأنّ الجانبَ الأكبرَ من الدُّول القديمة (في القرون الأولى) كان مُدُناً كبيرةً يقومُ حولَ كلّ مدينةٍ منها عددٌ من البُلدان الصغيرةِ أو من المِساحات الزراعية. كذلك كان الشأنُ في بلادِ اليونان وبلادِ الرافدَيْنِ (دِجلةَ والفُرات: العِراق) وفي شَرْقِ البحرِ الأبيض المتوسّط، وفي شِبه جزيرة العرب. وكثيراً ما ذُكِرَتِ «الأمّةُ» في القُرآن بمعنى الدولة، ذلك لأنّ الهَلاك لا يكونُ للقَريَة التي هي تُرابٌ وحِجارة وزُروع وضُروع[1]، بل للبشرِ من أهلِ القرية. وهذا أمرٌ معروفٌ في البلاغة

---

(١) الضرع (بالكسر): الثدي (كناية عن الأنعام كالغنم والبقر والابل).

العربية. ففي القرآن الكريم، مثلاً: ﴿واسألِ القَريةَ التي كُنّا فيها﴾ (١٢: ٨٢ يوسف)، أي أهلَ القرية.

ومن الآياتِ الكريمة التي تذكُرُ هلاكَ القُرى بعامل الظُّلم:

- ﴿وتلك القُرى أهْلَكْناهُمْ لـمّا ظلموا، وجَعَلْنا لَمهْلِكِهِمْ[1] مَوْعِداً (١٨: ٥٩ الكهف).

- ﴿وما كان رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرى حتّى يبعَثَ في أُمِّها رسولاً[2] يَتْلو عَلَيْهِم آياتِنا. وما كُنّا مُهْلِكي القُرى إلاّ وأهلُها[3] ظالمون﴾ (٢٨: ٥٩ القصص).

﴿وكم قَصَمْنا[4] من قريةٍ كانتْ ظالمةً وأنشأنا بعدَها قوماً آخَرين﴾ (٢١: ١١ الأنبياء).

والكلام على الظُّلم وأنّه من أسباب هلاك القرى (انقراض الدول أوِ الأمم) كثيرٌ في القرآن الكريم[5]. والظلم يُفَرِّقُ صُفوفَ الجماعة فيجعلُ بعضَها

(١) المقصود بالقرى هنا سكّان القرى، فقد جاء في الإشارة إليهم ضمير العاقل المذكّر: الواو في «ظلموا» وهم في «مهلكهم».

(٢) في أمّها: في أكبرها، في عاصمتها (لأنّ العاصمة في العادة أكبر مدن الدولة، وتكون مسؤولة عن الناس في الدولة كلّها). ثـمّ انّ هذه العاصمة هي صاحبة الكلمة المسموعة (صاحبة الأمر والنهي).

(٣) هنا تصريح بأن المقصود بالقرى أهل القرى.

(٤) قصم (بالصاد): قسم (بالسين) على أن يفصل بين أجزاء الشيء المقسوم، أهلك.

(٥) راجع ٢: ٥٩ البقرة، ٦: ٤٥، ١٣١ الانعام ٧: ١٦٥ الأعراف، ١٠: ١٣ يونس، ١١: ١١٧ هود، ١٤: ٤٥ ابراهيم، ٢٢: ٤٥ الحجّ، ٢٣: ٢٧ المؤمنون، ٢٦: ٢٢٧ الشعراء، ٢٧: ٥٢ النمل، ٢٩: ٣١ العنكبوت.

قوياً بغيرِ حقٍّ كما يجعلُ بعضَها ضعيفاً بغير حقّ. وهذا الآختلافُ في الميزان الاجتماعي يقودُ الى الجُمود في السَّعْيِ وقِلة النّتاج، ثم يكونُ له أيضاً تأثيرٌ على النسل(١). وأكبر مساوىء الظُّلْمِ أنّه يجعَلْ في نفوس المظلومين (وهم كَثْـرَةٌ) حِقداً على الظالمين (وهم قِلّة) فتخذُلُ تلك الكَثْرةُ هذه القِلّةَ في الحُكْمِ والحرب. وربّما تآمَرَ المظلومون على الظالمين فأزالوهم من الحكم. وقد يكون من أسباب ذلك فَوْضَى تنتهي بزوالِ الدولة. وربّما آنْتَهَزَ عدُوٌّ خارجيٌّ الفرصةَ في تلك الدولةِ الـمُضَعْضَعَةِ بالظُّلم ووَثَبَ عليها وآسْتَبَدّ بحُكمها دونَ أهلِها.

ومـن أسبـابِ هلاك القُـرى (آنقـراض الدول أو الأمـم) الآنغماسُ في التَّرف.

حينما تعظُمُ الثروةُ في جَماعةٍ او في يدِ أفرادٍ يميلُ أهلُ الثروة إلى التمتُّع بوجوهِ تلك الثروة وبما تُيَسِّرُه لهم تلك الثروةُ من وجوه النعيم. وهذا يدعو إلى آنصراف الافرادِ الـمُنَعَّمين عنِ الأعمال الضروريّة في العُمران كالزراعة والصناعة والإشراف على التجارة ـ بالإضافة إلى ما يُؤدّي اليه الآنغماسُ في شَهَواتِ النفس من ضَعْف الأجسام ـ فيَقِلُّ الإنتاجُ ويضعُفُ التَنَبُّهُ لمفاجئات الحياة. وحينئذٍ يبدأ الضَّعْفُ العام في التَّسَرُّب إلى الدولة فتَهْلِكُ الدولةُ (أي ينقرض اهلُها النافذون فيها وتزول هي بآنقراضهم).

(١) يرى نفر من العلماء أن الظلم (ويصحبه عادة خوف وقلق وقلّة اطمئنان في نفس المظلوم) يجعل النفس تكسل عن النسل وعن الرغبة في النسل.

ـ وإذا أَرَدْنا أنْ نُهْلِكَ قريةً أمَرْنا[1] مُتْرَفِيها ففَسقوا[2] فيها فحَقّ عَلَيْها القولُ فدَمّرناها تدميراً (١٧ : ١٦ الاسراء).

ولا ريبَ في أنّ التَّرَفَ واتّساعَ الأحوالِ الاقتصادية والفراغَ بانصرافِ الإنسانِ المُتْرَف عن الأعمال المُنْتِجة لأنّها تَتطلّبُ من صاحبها جُهْداً شخصياً وجَهْداً بَدَنِياً وحِرماناً من شَهَواتِ النفس فيميلُ الانسانُ إلى اللّهْو (إلى الأعمال السهلة التي لا تَفْرِضُ مِنهاجاً مُعَيَّناً في الحياة ولا تنظيماً جازماً في السُّلوك ولا تَبِعَةً شَخصيّةً فيما تَتَعَرَّضُ له الجماعة ولا اهتماماً خاصّاً بما سيأتي به المُستقبَلُ). إذ أنّ القُدرة الاقتصاديّةَ في الفرد المترف وأحوالَه الناعمةَ السهلةَ تُحَبِّبُ إليه الحياةَ وتفسَحُ أمامَه أبوابَ الأمل بِعُمُرٍ مديدٍ، فلا تأتيه الحوادثُ العاديّةُ المألوفةُ حينئذٍ إلاّ بغتةً وهُوَ عنها غافلٌ لا يستطيع دَفْعَها ولا يَقْدِرُ على التخلُّص من نتائجها. وفيما يَلي آياتٌ تجمع هذا العاملَ في سقوط الأمم إلى ما قبلَه (١٥ : ٢ ـ ٥ الحِجر):

ـ ذَرْهُمْ[3] يأكُلوا ويتَمَتّعوا ويُلْهِهِمُ الأملُ. فسوف يعلمون * وما أهْلَكْنا من قريةٍ إلاّ ولَها كِتابٌ معلومٌ * ما تَسْبِقُ من أُمّةٍ أجلَها وما يَسْتأخِرون.

ومن الأسباب التي تؤدّي بالأمم والدُّول إلى الانقراض تجزُّؤُ العصبية

---

(١) في قراءة «أمّرنا» (بتشديد الميم)، جعلنا أمراءها (من المترفين).

(٢) فسقوا: عصوا (بفتح الصاد) أوامر الله، ارتكبوا أموراً محرّمة.

(٣) ذرهم: دعهم، اتركهم.

(تفرُّقُ الناس فيما بينَهم شِيَعاً[1] وأحزاباً). أمّا الآية الجامعةُ الإيجابية في حفظ وَحْدة الأمّة وفي الحِفاظ على بقاء الدولة سليمةً أطولَ مدّةٍ مُمكنةٍ في التاريخ فهي الآيةُ التالية مَعَ أخَواتها (٣: ١٠٣ ـ ١٠٥):

﴿واعْتَصِموا بِحَبْلِ اللهِ جميعاً ولا تَفرّقوا، واذكُروا نِعْمةَ الله عليكم إذ كُنْتُمْ أعداءً فألّف بينَ قلوبِكم فأصبحتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخواناً * وكُنْتُمْ على شَفا[2] حُفرةٍ من النار فأنْقَذَكُمْ منها. كذلك يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ آياتِه لَعَلّكُمْ تَهْتَدون * وَلْتَكُنْ منكم أُمّةٌ يَدْعونَ إلى الخيرِ ويأمُرون بالمعروف ويَنْهَوْنَ عنِ المُنكر. وأولئك هُمُ المُفْلِحونَ * ولا تكونوا كالذين تَفَرّقوا واختلفوا من بعدِما جاءَهُمُ البَيِّناتُ. وأولئك لَهُمْ عذابٌ عظيمٌ﴾ *

والناس في الإسلام يمكن أن يكونَ أحدُهم في أحدِ حِزبينِ لا ثالثَ لهما: في حزب الله (٥٨: ٢٢، المجادلة) وذلك إذا اتّبع القواعد العاقلة في الحياة وعَمِلَ بالقوانين الموضوعة لِخير الجماعة، أو في حزبِ الشيطان (٥٨: ١٩)، وذلك إذا سيطر عليه الوَهْمُ ونَسِيَ القواعدَ النافعة في الحياة أو تناساها.

أمّا الأسبابُ التي تدعو الناسَ أفراداً وجماعاتٍ إلى أن يختلفوا فيما بينَهم فكثيرةٌ يَجْمَعُها غَفلةُ الإنسان عمّا حولَه. إنّ الذين تكون عقولُهم قاصرةً عنِ التفكير الضَّروريِّ في الحياة يَضيقُ أُفُقُهُمْ ويظنّون انّ أفضلَ أحوالِ الدنيا ما كانوا هُمْ عليه، ولو كانتْ حالُهم تلك تافهةً. هؤلاء يُعَدّون في الذين ظلموا أنْفُسهم واتبعوا أهواءَهم بغيرِ عِلْمٍ (راجع ٣٠: ٢٩، الزمر).

---

(١) الشيعة: الاتباع والانصار.

(٢) شفا: طرف. شفا حفرة (طرف حفرة، معرّضين للسقوط في الحفرة).

وإذا تَوَهَّمَ كُلُّ فردٍ في نفسه عالَماً يعيش فيه، فَمِنَ الصَّعْبِ جِدّاً أنْ يستطيعَ العيشَ مَعَ الآخرين الذين كانوا قد توهّموا أيضاً لأنْفُسِهِم عَوالِمَ خَياليةً يعيشون فيها. ولقد أمَرَنا اللهُ تعالى ألاّ نكونَ من هؤلاء فخاطَبَنا بقولِهِ (٣٠: ٣١ - ٣٢):

﴿... ولا تكونوا من الـمُشركين *: مِنَ الذين فرّقوا دِينَهُمْ وكانوا شِيَعاً. كُلُّ حِزْبٍ بما لَدَيْهِمْ فَرِحون *﴾

فما أجهلَ الذي يفرَحُ بما لَدَيْهِ لأنّه لا يَعْرِفُ شيئاً آخرَ أو لا يستطيعُ أن يَعْرِفَ شيئاً آخَرَ أو لا يريدُ أن يَعْرِفَ شيئاً آخَرَ، وما أشدَّ شَقاءَه.

وكثيراً ما يختلفُ الناسُ فيما بينَهم بعدَ أن يتعَلموا شيئاً قليلاً من العلم أو بعدَ أن يتعلّموا جانباً من العلم تعَلُّماً ناقصاً أو مُشَوَّهاً، فيَتَّبعَ كُلُّ واحدٍ منهم طريقاً مختلفاً من طريقِ الآخَرين بِحَسْبِ ما يتخيَّلُ كُلُّ واحدٍ منهم وَجْهَ الصوابِ. قال الله تعالى (٦: ١٥٣ الأنعام):

﴿وأن هذا صِراطي مُستقيماً فاتّبِعوه، ولا تتّبِعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عن سَبيلِهِ﴾.

ومن الأسبابِ التي تنقرضُ بها الأُمَمُ وتنهارُ بها الدُّوَلُ: الجَهْلُ (الجهلُ بِسَيْرِ الـعُمران وبالقواعد التي يسيرُ بها الـعُمران وبالأحوالِ التي تُحيطُ بالإنسانِ نفسِه) وقد عَبّرَ نفرٌ من الـمُفكّرين عن هذا النوعِ من الجَهْل (في الضُّعَفاء) بلَفْظِ العدل الآجتماعيِّ (في الأقوياء). ولقد نَظَرَ الإسلامُ إلى هذا الموضوع من ناحيةٍ أوسعَ شُمولاً وأوضَحَ دَلالةً حينما تكلّم على «الصالحين» للحياة (وغيرِ الصالحين للحياة).

أنواع الظلم

مرّ معنا الكلامُ (فوق، ص ١٦٤) على الظُّلم السياسيّ: ظُلْمِ الحاكِمِ للمحكومين. وهنالك نوعانِ من الظلم أشدُّ من الظلم السياسيّ: الظُّلْمُ الطبيعيُّ والظلم الذاتي.

كان أبو نَصْرٍ الفارابيُّ (ت ٣٣٩ هـ = ٩٥٠ م) قد تكلّم في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» على العدل الطبيعي [١] وجعل العدلَ نتيجةً للظفر عند التَّغالُبِ؛ فمن قَهَرَ غيرَه كان أحقَّ بجذبِ المنافع كُلِّها إلى نفسِه من الذي خرج من ذلك التغالُبِ مقهوراً. فآستبدادُ القاهرِ بالمقهور وآستبدادُ القاهرِ بجميع المنافع دونَ المقهور عدلٌ في نظر الفارابي.

هـذا الرأي الطبيعـيُّ المادّيُّ واقـعٌ في الاجتماع الانســاني. ولقــد مسّ الفارابيّ هذا السلوكَ المادّيَّ قبلَ ماكيافيلّي الإيطاليّ (ت ١٥٢٧ م) بنحوِ ستّةِ قُرونٍ وقبلَ نيتشه الألمانيّ (ت ١٩٠٠ م) بنحوِ ألفِ عامٍ. غيرَ أن هذا الاتّجاه ظُلْمٌ صريحٌ لا يقبَلُه العقلُ ولا يصلُحُ به الاجتماعُ الإنسانيُّ. إنّنا نُشاهِدُ هذا المَسْلَكَ في عالم الحَيَوان حيثُ الغَلَبُ للقُوّة البَهيميّة الـمُسْتَقِرّة في الجسد. أمّا في العالم الإنسانيِّ القائمِ على القُدرةِ العقليّة فلا يكونُ للقُوّة المادّيّة شي من الحُكْمِ إلاّ في نِطاق العمل الإنسانيّ في الصنائع وإلاّ في نِطاق مُقاومةِ

---

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة (المكتبة المصرية ـ مطبعة التقدّم ـ القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧ م) ص ٨٢؛ تحقيق ألبير نصري نادر (المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٥٩ م)، ص ١٣٢؛ راجع «تاريخ الفكر العربي» (للمؤلّف)، دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٩ م، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥.

العَدُوِّ الداخليّ وفي مقاومة العدوِّ الخارجيّ، بحَسْبِ ما كان عليه الاجتماع الإنسانيُّ في العصورِ القديمة والوسيطة. أمّا اليومَ فإنّ التقدُّمَ والحكمَ في هذين النِطاقين أيضاً إنّما هما للعقل.

والإسلامُ لا يقبَلُ هذا الرأيَ المادّيَّ في الحياة الإنسانيّة، ذلك لأنّ الحياةَ الإنسانيّةَ الصحيحةَ قد قامتْ في التاريخ (وفي نَظَرِ الإسلامِ إلى التاريخ وإلى الاجتماع الإنساني) على التعاوُنِ في سبيلِ الخيرِ العامِّ والنفعِ العامّ، إلاّ في مكانٍ واحدٍ، وذلك حينما يَظْلِمُ الإنسان نفسَه بتجاهُلِهِ القوانينِ الطبيعيّة أو بجَهْله القوانين الطبيعيّة. حينئذ يَصِحُّ على الإنسان (في هذا الموقف وَحْدَه) رأيُ الفارابي في «العدل الطبيعيّ».

غير أنّ الإسلام جعل لهذا العدلِ الطبيعيّ إصلاحاً (لم يَقْبَلْه الذين جاءوا بعدَ الفارابي)، وذلك أن الذي يَقَعُ عليه القهرُ بقانون العدل الطبيعي يمكن أن يرتفعَ عنه هذا القهرُ إذا هو عاد فأصلح.

ما الجهل؟

الجهلُ في الإنسانِ أفدحُ أشكالِ الظلمِ: ظُلْمِ الإنسانِ نفسَه. وليسَ بعد ظُلْمِ الإنسانِ نفسَه ظلمٌ!

وما الظلم؟

الظلم نقيضُ العدل:

العدلُ وَضْعُ الشيء في مكانه، والظُّلم وضعُ الشيء في غيرِ مكانه. والعدل هو طاعة القوانين الطبيعيّة (والوضعيّة أيضاً)، والظلم هو عِصيانُ تلك

القوانينِ أو قِلّةُ المبالاةِ بها. انّ النار، مثلاً، لا تَظْلِمُ الإنسانَ (أي لا تَثِبُ عليه من مَوْقِدِها وتُحْرِقه). ولكنّ الانسانَ يَظْلِمُ بالنار نفسَه (حينما يُمدُّ إليها يده من غيرِ واسطة أو من غيرِ إدراكٍ لِفِعْلِها (جهلاً بفعلها).

ثـمّ إنّ من العدل للنار أن نُسخِّنَ بها الأشياءَ، ومن الظلم لها أن نُلْقِيَ بها في الماء من غير حاجةٍ بنا إلى ذلك. وذلك كلّه مُوجَزٌ في قوله تعالى (٢: ٢٢٩): ﴿ومَنْ يَتَعَدَّ حُدودَ الله فأُولئك هُمُ الظالمون﴾. وتَعَدّي الحدودِ أن يتجاوزَ الإنسانُ القيودَ التي يَفْرِضُها العقلُ والعُرْف في العالم الطبيعيّ وفي البيئة الاجتماعية.

من أجل ذلك كُلّهِ كان الإنسانُ إذا عَدَلَ فَعَمِلَ صالحاً، فإنّما يعملُ صالحاً لنفسه. أمّا إذا أساء، فإنّه يكون ظالماً لنفسِه هو. واللهُ سبحانه وتعالى لا يَظلِمِ أحداً، إذ ليس في عدل الله أن يضَعَ اللهُ تعالى قانوناً للحياة أو قاعدةً للسُّلوك ثـمّ يخالفَ هذه القاعدةَ أو ذلك القانونَ. وذلك قولُ الله تعالى (٤١: ٤٦، السجدة أو فصّلت):

- ﴿مَنْ عَمِلَ صالحاً فَلِنَفْسِه، ومَنْ أساء فعلَيْها. وما رَبُّكَ بظلاّمٍ للعبيد﴾.

ثـمّ يحسُنَ أن نعلمَ أنّ كلَّ عملٍ يقوم به الانسانُ (من خيرٍ أو من شرٍّ) يَرْجعُ أثَرُه (اثرُ ذلك العملِ) عليهِ خيراً أو شرّاً بِحَسْبِ ما كان هو قد سَلَكَ من قبلُ. قال الله تعالى (٨: ٥٠ ٥١، الانفال):

﴿.... ذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدّمتْ أيديكم وأنّ اللهَ ليس

بظَلاّمٍ للعبيد﴾ (راجع ٣ : ١٨٢ آل عمران، ٢٢ : ١٠ الحجّ، ٥٠ : ٢٩، ق.).

ويتردّدُ هذا المعنى كثيراً في القُرآنِ الكريم، وفيه دَلالةٌ على احترام العقلِ في الإنسان وعلى احترام الإرادة في الإنسان، لأنّ الإنسانَ نفسَه مسؤولٌ عن عَمَلِ نفسِه. وفي القرآن الكريم آياتٌ كِثارٌ في هذا المعني، منها (١٦ : ٣٣ - ٣٤).

﴿هل ينظُرون إلاّ أن تأتِيَهُمُ الملائكةُ[1] أو يأتيَ أمرُ ربّك[2]؟ كذلك فَعَلَ الذين من قبلِهِمْ. وما ظَلَمَهُمُ اللهُ، ولكن كانوا أنفُسَهم يَظْلِمون﴾ (راجع ٣ : ١٧ (٣ : ١١٧) آل عمران، ١١، ١٠١ هود، ١٦ : ٣٣، ١١٨ النحل، ٢٩ : ٤٠ العنكبوت، ٣٠ : ٩ الروم ٤٣ : ٧٦ الزخرف).

والإنسان إذا أحسنَ إطـاعةَ القوانين فإنّه لا يُحْسِنُ إلى القوانين؛ وإذا هو أساء بِعصيان القوانين فإنّه أيضاً لا يُسيء إلى القوانين. ولكنّه في الحالين كِلَيْهِما يُحْسِنُ إلى نفسِه أو يسيء إلى نفسه. وعلى هذا فإنّ الله تعالى لا يَظْلِمُ الناسَ شيئاً[3]، ولا هم يَظْلِمون اللهَ. ولكنّهم عندَ الإساءة لا يَظْلِمون إلاّ أنفُسَهم:

- ﴿إنّ اللهَ لا يَظْلِمُ الناسَ، ولكنّ الناسَ أنفُسَهم يَظْلِمون﴾ (١٠ : ٤٤ يونس، راجع ١٨ : ٤٩ الكهف).

---

(١) أن تأتيهم الملائكة (لقبض أرواحهم)، أن يموتوا.

(٢) أن يأتي أمر ربّك: العذاب (يوم القيامة).

(٣) انّ الله لا يظلم الناس شيئاً (مهما يقلّ، ممّا هو حقّ لهم).

ـ ﴿وما ظَلَمونا[1]، ولكن كانوا أنفُسَهم يَظْلِمون﴾ (٢ : ٥٧ البقرة، راجع ٧: ١٦٠ الأعراف).

ثـمّ إنّ لعِصيانِ القوانينِ الطبيعيـة (وهـي في النهـايـة قـوانينُ إلّهيّـةٌ) ولِمخالفةِ قواعدِ السُّلوك الآجتماعيّ العاقلِ (وهذه أيضاً تَرْجعُ من قُرْبٍ أو من بُعْدٍ إلى القوانين الطبيعية الإلّهية) عواقبَ (نتائجَ سَيِّئةً على العـاصين والمخالفين). قال الله تعالى (١٠ : ٣٩ يونس):

ـ ﴿بل كذّبوا بما لم يُحيطوا بِعِلْمِهِ، ولـمّا يأتِهِمْ تأويلُه[2]. كذلك كذّب الذين من قَبْلِهِمْ، فآنـظُر كيفَ كان عاقبةُ الظالمين﴾ (راجع ٢٨ : ٤٠ القصص).

وعاقبةُ هذا الظُّلم الهلاكُ أوِ الزوالُ بالآنقراضِ أو بسقُوط الدُّول ودُخولِ أهلِها في حُكْمِ غيرِهم (٦: ٤٤ ـ ٤٥ الأنعام):

ـ فلـمّا نَسُوا ما ذُكّروا به فتَحْنا عليهِمْ أبوابَ كُلِّ شَيْءٍ[3]. حتّى إذا فَرِحوا بما أُوتوا أخَذْناهم بَغْتَةً فإذا هم مُبْلِسون[4] * فَقُطِعَ دابرُ القومِ[5] الذين ظَلَموا. والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ *

---

(١) وما ظلمونا: يقول الله عن نفسه «وما ظلمونا» (وما أضرّوا الله لـمّا خالفوا أمره، ولكن أضرّوا أنفسـهم).

(٢) لم يحيطوا بعلمه (لم يعلموا كلّ شيء يتعلّق به)، ولا جاءهم تأويله (تفسيره لهم ليفهموا مقاصده).

(٣) فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء: آتيناهم من كلّ شيء ما يريدون وما يشتهون.

(٤) المبلس: الآيس (القانط) من كلّ خير، ليس له أمل في شيء حسن.

(٥) قطع دابر القوم: هلكوا كلّهم.

ونحن إذا تطوّفنا اليومَ في الارض (كما كان الذين من قبلنا يفعلون ايضاً) أبصرنا مُدُناً قد خَرِبَتْ وهُجِرتْ أو هَلَكَ أهلُها كُلُّهم مَعَ خَرابِها، وفي مثل هذا قوله تعالى (٢٧: ٥١ ـ ٥٢ النمل):

ـ فانظُرْ كيفَ كان عاقبةُ مَكْرِهِمْ. إنّا دَمّرْناهُمْ وقَوْمَهم أجْمَعينَ * فتلك بيوتُهم خاوِيةٌ[1] بما ظَلَموا. إنّ في ذلك لآيةً لِقَوْمٍ يَعْلَمون*

ولعلّنا لا نحتاجُ إلى دليل على ذلك، فنحن اليومَ نسكُنُ في مدنٍ أو على مقُربةٍ من مدنٍ كانت من قبلُ عامرةً بأهلها في الزمن الماضي، ثـمّ زال أهلُها بزوال حضارتهم أو بزوال مُلْكِهم. ثـمّ ما زال يتعاقبُ على هذه الـمُدُنِ قومٌ بعدَ قومٍ حتّى نزلنا نحن في منازلِ الذين كانوا من قبلِنا. ولعلّنا في الحينِ بعدَ الحينِ نذهبُ إلى تلك الخرائبِ لننظُرَ إلى آثارها (كما نذهبُ إلى قلعةِ بَعْلَبكَّ في لُبنانَ، أو إلى الأقْصُرِ في مِصْرَ أو إلى بومبايِي في إيطالية أو إلى بابِلَ في العراق) او لا نذهبُ إليها. فانظُرْ في قولهِ تعالى (١٤: ٤٤ ـ ٤٥ ابراهيم):

ـ ﴿.....أوَ لَمْ تكونوا أقْسَمْتُم من قبلُ ما لكُمْ من زَوالٍ؟ * وسَكَنْتُمْ في مساكنِ الذين ظَلَموا أنفُسَهم، وتَبَيّنَ لكُمْ كيفَ فعلنا بِهِمْ. وضَرَبْنا لَكُمُ الأمثالَ﴾ *

غيرَ أنّ هلاكَ الأُمَمِ لا يأتي دائماً عَقِبَ الأعمالِ الظالمةِ أو الفاسدة مُباشَرةً، بل يُمْهِلُ اللهُ أولئك الظالمين الـمُفسدين لَعلّهُمْ يَرْجِعون إلى أنفُسِهم

---

(١) خاوية: خالية (ليس فيها سكّان).

فَيَتوبون مِمّا هم فيه. إنّ العقابَ وسيلةٌ للرَّدْعِ، فإذا أصلَحَ الناسُ بعدَ الفَسادِ وصَلَحوا زادَ في عُمُرِ دَوْلَتِهِمْ زمنٌ بِمِقْدارِ ما يحتمِلُه صَلاحُهُمُ الجديدُ. وفي ذلك قولُه تعالى (١٦ : ٦١ النحل)[١] :

ـ ﴿ولَوْ يُؤاخِذُ اللهُ الناسَ بِظُلْمِهم ما تَرَكَ عَلَيْهـا مـن دابّـةٍ. ولكـنْ يُؤَخِّرُهم إلى أجَلٍ مُسمّىً. فإذا جـاء أَجَلُهُـمْ لا يَسْتـأخِـرون سـاعـةً ولا يَسْتَقْدِمون﴾.

في هذه الأثناءِ ـ في أثناءِ إمهالِ الدُّوَلِ حتّى تُصْلِحَ من شأنها ـ يُرْسِلُ اللهُ إليها مُنذِرين (٢٦ : ٢٠٩ الشعراء) أي رُسُلاً يُحَذِّرون أهْلَ تلك الدُّولِ من الآستمرار في الغَيِّ[٢] ويُذَكّرونهم بالرُّجوعِ إلى العدل والصَّلاح. ثـمّ إذا نَزَلَتْ مُصيبةٌ بالدَّولة الظالمة، فإنّ تلك الـمُصيبةَ لا تقتَصِرُ على الظالمين من أهلِ الدَّولة، بل تَعُمُّ الـمُذنبين والأبرياءَ معاً (٨ : ٢٥). إنّ المجتمعَ واحدٌ متداخِلٌ، وليسَ في الإمكان إذا نَزَلَتْ مصيبةٌ فيه أن تَميزَ[٣] الـمُصيبةُ الصالحين مِنَ الطالحين. ويبدو أنّ هُنالِكَ تعليلاً لذلك، هو أنّ الصالحين الذين يَهْلِكون عادةً بِهَلاكِ الطالحين كانَ بإمكانِهِمْ، أن يَمْنَعـوا شيئـاً مـن الفساد الذي كان ينغمسُ فيه الظالمون الأقوياءُ. فالصالحون، إذَنْ، يَحْمِلون شيئاً من التَّـبِعَةِ الـمُتعلّقةِ بالأعمال الفاسدة أو الظالمة التي كان يقومُ بها الفاسدون أو الظالمون.

---

(١) راجع فوق، ص ١٦٢ ـ ١٦٤.

(٢) الغيّ: الضلال: الانحراف عن الهدى والصواب.

(٣) ماز الرجل القمح من الشعير، وضع كلّ جنس منهما جانبا. وماز الخبيث من الطيّب: عرف الخبيث وعرف الطيّب.

ثـمّ إنّ الأُمَم إذا ٱنْقَرَضَتْ (وٱنقراض الأُمَمِ مَعْناهُ زوالُ سُلْطَتِها السياسيّةِ أو ضياعُ رِسالَتِها الحضاريّة) نشأ مكانَها أُمَمٌ أُخرى تقوُم بما كانتِ الأَمَمُ الأُولى تقومُ به، ذلك لأنّ الآجتماعَ الإنسانِيّ لا يبطُلُ.

من أجل ذلك جاء في القرآن الكريم عددٌ من الآيات التي تدُلُّ على نشأةِ أُمَمٍ (أو دُوَلٍ) جديدةٍ بعدَ ٱنقراض الدُّولِ القديمة الظالمة (أو غيرِ الظالمة):

- ﴿وكم قَصَمْنا[1] من قريةٍ كانت ظالمةً وأنشأنا بعدَها قوماً آخَرين﴾ (٢١ - ١١ الأنبياء[2]، راجع ٦ : ٦ الانعام، ٢٣ : ٣١، ٤٢ المؤمنون).

وذَهابُ أُمّةٍ ثـمّ مجيءُ أمّةٍ مكانَها ليس إرادةً محضاً ولا ٱنتقاماً من قومٍ، دونَ آخَرينَ، ولكنّه قانونٌ طبيعيٌّ وآجتماعيٌ - في وقتٍ معاً - حتّى يستمرَّ هذا العالمُ قائماً. ومعَ أنّ المقصودَ الأوّلَ أنْ تكونَ كلُّ أُمّةٍ لاحقةٍ أفضلَ من كلّ أمّةٍ سابقةٍ، فإنّ الحضارةَ الإنسانيّة التي ترقى في جوانِبِها المادّيّةِ تَتْرُكُ في الناس مَساوِىءَ في الجوانبِ النفسيّة والخُلُقية بأثرٍ من الـمُنافسة في سبيل آحتيازِ ثَمَراتِ تلك الحضارة. غير أنّ الأملَ في صَلاح البشر عامّةً يحتملُ ما يأتي به جماعاتٌ من البشر من أسبابِ الشرّ. ويبدو هذا الأملَ بصَلاح الكَثْرة من الناس ممزوجاً بتهديدِ تلك القِلّة التي تسعى إلى الشرّ أو يظهَرُ الشرُّ على يَدَيْها. من ذلك مثلاً قولُه تعالى في خِطابِ أهلِ مكّةَ في عَهْدِ مُقاوَمَتِهِمْ للدعوة الإسلاميّة (٦ : ١٣٣ - ١٣٥):

---

(١) قصم (بالصاد): قسم (بالسين) على أن يفصل بعض أجزاء الشيء عن بعض.

(٢) راجع فوق، ص ١٦٤.

- ﴿وربُّك الغَنيُّ ذو الرحمة. إن يَشأْ يُذْهِبْكُمْ ويَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يشاءُ، كما أنشأكُمْ من ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرينَ * إنّما تُوعَدونَ لَآتٍ. وما أنْتُمْ بمُعْجِزين * قُلْ: يا قَوْمِ، آعْمَلوا على مَكانَتِكُم، إنّي عاملٌ. فسوف تعلَمون من تكونُ له عاقبةُ الدار. إنّه لا يُفْلِحُ الظالمون﴾.

ثمّ وَصَفَ اللهُ تعالى في الكتاب العزيز (٢٤ : ٥٥، سورة النور) أولئك الذين ستكونُ لَهُمْ الخِلافةُ أوِ البقاءُ في مَكّةَ (وفي العالم أيضاً) مِنَ الصالحين الأتقياء:

وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعَمِلوا الصالحاتِ
لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرض كَما آسْتَخْلَفَ الذين من قَبْلِهِم،
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الذي آرْتَضى لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ من بَعْدِ خَوْفِهِم أمْناً:
يعبُدونَني لا يُشْرِكون بي شيْئاً.
ومَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلك فأولئك هُمُ الفاسقون *

تعاقُبُ الأمم

إنّ الأممَ في هذه الحياة تَتَعاقَبُ: يأتي بعضُها إثْرَ بعضٍ. ولكن ليس معنى «تعاقُبِ الأمم» آنقراض أمّةٍ سابقةٍ وولادةَ أُمّةٍ لاحقةٍ تأخذُ مكانَ الأُمّة الـمُنْقرِضة في أرضها وديارها. إنّ تعاقُبَ الأمم معناه أن تَخْلُفَ أمّةٌ - في قيادة الحضارة الإنسانية - أمّةً أُخرى سَبَقَتْ في الزَّمن وكانت قد حَمَلَتْ رسالةَ الحضارة من قبلُ. إنّ التاريخَ لا يُعنى بوُجود الأمم إذا كانت تلك

الأممُ كُتَلاً بَشَرِيَّةً تأكُلُ وتشرَبُ وتنام وتَسْتَيْقِظُ وتمرَضُ وتَصِحّ وتتزَوَّج وتَنْسِلُ ـ مِمّا يجري مثلُه أو قريباً منه في عالَمِ الحَيَوان البهيمِ وفي عالَمِ النباتِ أيضاً ـ، ولكنَّ التاريخَ يُعنى بوُجود الأممِ التي تصنَعُ الحضاراتِ الإنسانيّة. فإذا فَقَدَتْ أمّةٌ من الأمم قُدْرَتَها على صُنْعِ أسبابِ الحضارة ثمّ عَجَزَتْ عن أنْ تَجِدَ مكاناً لها في مَوْكِبِ الحضارة الإنسانية، آنقادتْ هي لِغَيْرِها وقلّدت غيرَها في أكثر أسبابِ الحياة فضاعتْ حينئذٍ في غيرها. وحينئذٍ يغفُلُ التاريخُ عن تدوين أخبارها، ذلك لأنّ أخبارَها تُصْبِحُ تكراراً لأفعال واحدةٍ في طبيعتها (كالطعام والشراب والنسل والتنازُع)، فتسير تلك الأمّة عند ذلك في ركاب غيرها أو وراء غيرِها كما تسير القافلة الطويلةُ وراءَ دليلِها. وهذا معنى آنقراض الأممِ، أي غيابِها عن مسرح التاريخ وعن ميادينِ الحضارة الإنسانية، فتكتفي تلك الأمّةُ بعدَ ذلك بتَقْليد الأممِ القويّةِ المُسْتَوْلية على ميادينِ الحياة وعلى مجرى التاريخ وعلى أسباب الحضارة.

الفهرس الهجائي

لأعلام الأشخاص ولعدد من المدارك العامة

م = مكرّر، ح = في الحاشية

آ ـ أ

ب

ت، ث

ج

ح، خ

د، ذ

ر، ز

س، ش

ص، ط، ظ

ع، غ

ف، ق

ك، ل

م

ن، هـ

و، ي

صدر للمؤلّف

في دار الكتاب العربيّ

* اخوان الصفا
* تجديد في المسلمين لا في الإسلام.
* التصوّف في الإسلام.
* عبقريّة اللغة العربية.
* العرب والإسلام في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسّط.
* العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسّط.

